

الْأَعْنَامُ فِي صَدَرِ الْإِسْلَامِ

الدكتور عبد للطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
 بكلية الآداب بجامعة القاهرة (سبا)

ملتقى الطبع والنشر
دأول للفكر العربي

الشارع جمادى حى - القاهرة

ص ٠ ب ١٣٠ - ت ٣٩٢٥٥٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَهْدِيْم

بِقَلْمِ الدَّكْتُورِ عَبْدِ الْحَلِيمِ مُحَمَّد

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ
الْمَرْسَلِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَبَعْدَ :

فَنَ حَقُّ الْإِنْصَافِ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ أَنْ كِتَابَ «الْإِعْلَامُ فِي صِدْرِ الْإِسْلَامِ» ،
لَهُ الْرِّيَادَةُ فِي هَذَا الْمَحَالِ مِنْ مَيْجَالَاتِ الْدِرْسَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ .

فَلَمْ نُعْرِفْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بَاحْثًا مِنَ الْبَاحِثِينَ السَّابِقِينَ تَنَاهُوا مَوْضِعُ :
«الْإِعْلَامُ إِلَّا إِسْلَامِيٌّ» بِالْمَدِرَسَاتِ الْمُسْتَقْلَةِ وَالْمُنْجَيَّةِ .

كَلَّذَكَ فِي ثَقَافَتِنَا الْمُعَاصِرَةِ لَمْ يَقْدِمْ بِيَدِهِ قَبْلِ الدَّكْتُورِ «عَبْدِ اللَّطِيفِ
حَمْزَةَ» عَلَى هَذَا الْمَلْوَنَ مِنَ الْدِرْسَةِ ، بَلْ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ مُهْتَاجِفٌ :
وَتَمَلَّكَ بَادْرَةً ذَكِيرَةً مِنَ الْأَسْتَاذِ الْمُؤْلِفِ تَعْرِفُ لَهُ وَتَقْدِرُ ، وَتَأْخُذُ بِيَدِهِ
فِي ثَقَهٍ وَحْفَاؤِهِ إِلَى مَرْكَزِ الْرِّيَادَةِ فِي مَيْجَالِ هَذِهِ الْدِرْسَةِ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ السَّيِّدَ الْمُؤْلِفَ عَلَى صَلَةٍ وَثَقِيلَ بِالْمَدِرَسَاتِ إِلَّا إِسْلَامِيَّةٍ
إِذْ شَارَكَ فِيهَا بِأَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ كِتَابًاً أَسْهَمُ بَهَا فِي تَعْمِيرِ الْمَكْتَبَةِ إِلَّا إِسْلَامِيَّةٍ
فَقَدْ أَبَى عَلَيْهِ ضَمِيرُهِ الْيَقْظَ وَإِحْسَاسُهُ بِالْتَّبَعَةِ الْعَلَمِيَّةِ وَأَمَانَتُهَا إِلَّا أَنْ يَصَارُ
فَارِئًا بِنَحْوِ الْجَنْفَرِ نَفْسَهُ عِنْدَمَا اعْتَزَمَ مَعَالِجَةُ هَذَا الْمَوْضِعَ الرَّائِدَ فَقَالَ فِي هَذِهِ
الْمَصَارِحَةِ :

«... إِنِّي أَقْدَمْتُ عَلَى هَذَا الْبَحْثِ بِشَيْءٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنَ التَّرْدُدِ وَالْخُوفِ ،
فَهَا السَّبَبُ فِي ذَلِكَ ؟ وَأَجَابَ السَّيِّدُ الدَّكْتُورُ عَلَى السُّؤَالِ الَّذِي طَرَحَهُ بِقَوْلِهِ :

«إِنَّ الَّذِي يَبْحَثُ فِي تَارِيخِ الْإِعْلَامِ فِي إِسْلَامٍ لَا يَبْدُ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَصْحَالَةً»

ـ حقيقة في الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ، والمذاهب الإسلامية ، ولابد أن تكون في نفسه أصالة حقيقة في عام الاتصال الذي يشتمل على فنون كثيرة من أهاها : فن الإعلام بوسائله الكثيرة . وفن الدعاية باشكالها المختلفة ، وأين من يدعى لنفسه الإحاطة الكاملة بهاتين الثقافتين في دقة وعمق معًا » . وهذا موقف للمؤلف له دلالته .

تلك هي أن التصدي لعمل علمي لا بد أن يكون على مستوى هذا العمل معرفة واستيعاباً ، ومن قبل ذلك ومن بعده استعداداً ذاتياً .
وذلك حفظ صادق في نطاق التحرير النفسي للباحث – أى باحث – حتى يستشعر التبعة الملقة على عاته ، وهي لاشك جد مبهضة .

ومن ناحية أخرى ينحو به إلى تواضع العلماء حتى لا يجمع به الغرور إلى كبوات لا مأمن منها مع تلك الظاهرة الخطيرة التي تلم بكثير من المثقفين ، وقد استشعر السيد المؤلف عبد التبعة فأقدم في تواضع المارسين الأصلاء على هذا الموضوع البكر إقدام العالم الباحث متوكلاً أخلاصاً ثلاثة كلها هادفة وشريفة . والأهداف الثلاثة هي :

الأول أن هذا الاتجاه الجديد في بحوث الاتصال والإعلام الإسلامي سيغرس في الباحثين بالدخول في هذا الميدان ، وولوج شباب بحوثه على طول الطريق من أول أيام الإسلام حتى عصرنا الذي نعيش فيه .

الثاني : الدفاع عن كرامة المؤلفين المسلمين الذين لا يليق بهم أن يطالوا في الواقع التبعة للمؤلفين الأجانب ، فلا ينبغي الانتظار حتى يأتي أحجبي ويؤلف في النواحي التي لم يؤلف فيها بعد من الثقافة الإسلامية كناحية الدعاية والإعلام في الإسلام ، وبهذا تغلب على مؤامرة الصمت التي ترتكب ضد الثقافة الإسلامية .

الثالث : لفت شبابنا المعاصر إلى ثقافتنا الإسلامية ، إذ جهورهم منصرف إلى التراث الأجنبي مفتون به . ويعرف عنه أكثر مما يعرف عن التراث الإسلامي . بل أصبح شباب هذا الجيل يفخر بعضهم ببعضها بهذه الظاهرة التي

تمثل مركب نقص في الشباب يجبر على الفاقهين من أبناء هذا الجيل تخلص
الشباب من عقابه .

وتلك حامد للسيد المؤلف تذكر بالعرفان ، وتقابل بما هي أهل له من
الشكران ، وقد اختار السيد المؤلف أقوم منهج وأعدله في الدراسة .

ذلك هو تتبع أحداث التاريخ في مسيرة وتحليل معطيات تلك الأحداث ،
واستخلاص النتائج من الشوائب التي قد تلتوي بالدرس عن الطريق الموصى .

وكانت الدقة طابع التعبير في رحلة الكتاب ، إذ حدد المفاهيم تحديداً
نقيناً يحسن القاريء ويبتعد به عن الخلط ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

التفرقة بين المدعوة والإعلام والدعائية ، وتحديد المقصود بكل واحدة
من هذه الثلاثة مما يجده القاريء موضحاً في مواطنها من الكتاب ، وقد
أبرز السيد المؤلف أن عمل النبي ﷺ كان دعوة من الله أمر بتبلighها إلى
الناس كافة ،

وإذا كانت كلمة «ثورة» قد وصف بها الإسلام في الكتاب فإنه من
ال الطبيعي ألا يقصد منها المعنى المبادر والشائع من أنها ظاهرة ذاتية لفرد من
الأفراد انفعلا خاصاً بواقع يعيشها في مجتمع ما أدى به إلى حمل تبعية
التغيير، وإنما المقصود بالكلمة هدفها وغيرها وهو التغيير وتعديل الأوضاع
على النحو المستقيم .

ولم يترك المؤلف ثغرة ينفذ منها متربص بالإسلام عندما تناول
«الجهاد» كوسيلة من وسائل الإعلام، إذ حدد مفهوم الجهاد في الإسلام، وبين
أنه ليس مقصidaً إلى التوسيع والسيطرة ابتعاد النفع ، وإنما كان لرد العداون
وتأمين المدعوة، ومعتنقها من مكان الدس والغدر والتربص والتحرش في الداخل
والخارج .

وقد أوضح السيد المؤلف الفواصل بين الدعاية البيضاء والدعائية السوداء،
وبين أن الأولى تعتمد على الصدق والشرف . والأخرى تبيح لنفسها الكذب
والتحريف والاختلاف وركز على أن القدوة الحسنة وسيلة من وسائل

الإعلام تغنى بذاتها عن جهود كثيرة تبذل في سبيل الإعلام، وقدم عاذج حمية للقدوة الصالحة من سيرة الرسول الكريم. وكثير من رواد الصحابة عليهم رضوان الله تبارك وتعالى.

ونحن مع السيد المؤلف في الانتفاع بموسم الحجج ك مجال لأكبر تجمع إسلامي في مستويات متنوعة تجتمع كلها من القمة إلى القاعدة في انسجام متهيء للتأثير والتحشد لما فيه خير الإسلام وال المسلمين، ولإعل الأمان في الاستجابة يخفف من آلام السيد المؤلف التي أحس بها والتي أشاركه الإحساس بمعاناتها، والتي بقيت روابتها في نفسه منذ أدائه فريضة الحج عام ١٩٦٨.

ومن اللمحات البارعة في الكتاب استبطانه حادث الهجرة في جميع جوانبه وزواياه، وإبراز الحركة الإعلامية فيه و دراسته للأذان في الإسلام واستخراج لون من الفنون الإعلامية فيه سواء من جهة دلاته أو من جهة تركيبه اللغطي، وتناوله صاحب «الحدبية»، وكيف كانت لحركات الممس التي أسفرت عنها بعض شروطه أثرًا إعلاميًّا في نشر الدعوة، وكيف كان الفاروق عمر رضي الله عنه يستعمل أحدث أساليب قياس الرأي العام وغير ذلك كثير في ثنايا هذا الكتاب الرائد.

ور بما تطرق إلى الفهم العجلان ما يرتب في مواقف بعض الصحابة في بعض الأحداث، لذا ندعو القارئ إلى التأنى في القراءة، وفي تناول الأحداث السياسية التي ألمت بال المسلمين، منذ عهد الخليفة الثالث رضوان الله عليهم أجمعين، ونحن لا نعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، ولكننا ننبه على أمر قد يغيب عن بعض القراء.

ذلك أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه كما قال القاضى أبو بكر بن العربي : كان عند الظن به ، مخالف عهدا ، ولا نكث عقدا ، ولا اقتحم مس克روها ولا خالف سنة (١) وقد كان النبي ﷺ قد أخبر بأن عمر شهيد ، وبأن عثمان شهيد على بلوى تصفيته .

وقد أورد ابن العربي رحمه الله جميع ما وجهه إلى الخليفة الثالث عثمان
ابن عفان رضي الله عنه من مأخذ وأثر على جميعها نقداً موضوعياً بالحججة
والبرهان ٥

وكانت أصابع الفتن والشكك للإسلام والحقيقة من أعدائه هي محرك
الأحداث في نشأتها ومسارها وتواجدها .

وبعد : فإن السيد المؤلف رحمه الله جدير بالتقدير ، وحسبه أنه بحق
رائد هذا المجال الذي لم ينفلد إليه من قبله فذكر .

وأقول متناسقاً مع المؤلف : إذا كان لي أن أقترح شيئاً على الجامعات
والمعاهد ومراعز البحوث في مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي فإني
أقترح أن تتألف لجنة علمية ل القيام بممشروع «التاريخ للدعابة والإعلام في
الإسلام » .

وأضيف إلى هذا تنقية التاريخ تنقية يمكن معها تنقية كل مزور ،
ولبعد كل ما ليس له من الصحة حظ حتى تكون لدينا ذخيرة إعلامية
متميزة الأبعاد تستقبل ما تقدم به الأيام والأجيال من متنوع الأساليب .

والحمد لله الذي تم بنعمته الصالحات ، وجزى الله السيد المؤلف
أطيب الجزاء وأجزله . ونفع بما قدم للمكتبة الإسلامية من جهود موفقة ،
بورحمة رحمة واسعة .

لأنه سميع مجيب . . .

والحمد لله رب العالمين .

دكتور
عبد الحليم محمود

اللهُمَّ لَا

إِلَى الْجَامِعَةِ الْأَزْهَرِيَّةِ الْغَظِيمَةِ وَقَدْ
بَدَأْتَ تَنْجِهُ عَنْ أَيْمَانِهَا إِلَى دِرَاسَةِ
الْإِعْلَامِ وَالدِّرْعَاءِ، وَذَلِكَ فِيمَا
عَنِيتُ بِهِ مِنَ الْدِرَاسَاتِ الْمُعاصرَةِ
.. أَقْدَمْتُ هَذَا الْكِتَابَ ۝

عَبْدُ اللَّٰهِ طَيْفِ حَمْزَةٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تحادث التاريخ عن الإسلام من زوايا كثيرة :

منها الزاوية الدينية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والإدارية ،
ومنها الزوايا العلمية ، والثقافية ، والفلسفية ، والمذهبية ، ومنها الزوايا الخلقية ،
والفنية ، والحربية .

كما كتب الكثير عن تاريخ الأدب الإسلامي نفسه ، وبذلك أصبحت
الثقافة الإسلامية من أوسع الثقافات التي عرفتها البشرية منذ ظهور الإسلام
إلى اليوم .

ولكن بقيت من هذه الزوايا المتعددة زاوية واحدة هي زاوية الإعلام
أو الاتصال بالناس .

ولم يكن ذلك تصريراً من القديمابوجه من الوجوه إذ أن علم الاتصال
علم حديث كل الحداثة ، وإن كان الاتصال في ذاته قد يبدأ كل القدم ،
فقد مارسه جميع البشر منذ وجدوا على ظهر الأرض ، ومنذ احتاج بعضهم
إلى الاتصال ببعض ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « ولو لا دفع الله الناس
بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

والآن وقد أصبح الاتصال علماً من العلوم الحديثة المعروفة لم يبق
هناك عنده للعلماء المحدثين إذا هم قصرموا في البحث عن الأديان - ومنها
الإسلام - وذلك من الناحية الإعلامية ، أو من ناحية الدعاية ، وهاتان
الناحيتان هما جانب من جوانب الاتصال .

وهذا وحده في الواقع هو ما حفزنا إلى التفكير في وضع الكتاب
بين يدي القارئ .

* * *

غير أنني أريد أن أقول لهذا القارئ كلمة صريحة تنبئ من ضميري
العلمي ، أو شعوري بمسئوليتي عن هذا البحث .
هذه الكلمة هي أنني أقدمت على هذا البحث بشيء غير قليل من
التردد والخوف ، فما السبب في ذلك ؟ .

إن الذي يبحث في تاريخ الإعلام في الإسلام لا بد أن تكون له
أصالة حقيقية في الثقافة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي ، والمذاهب
الإسلامية ، ولا بد أن تكون في نفسه أصالة حقيقية في علم الاتصال الذي
يشتمل على فنون كثيرة ، من أهمها : فن الإعلام بوسائله الكثيرة ،
وفن الدعاية بأشكالها المختلفة ، وأين من يدعى لنفسه الإحاطة الكاملة
بهاتين الثقافتين السابقتين في دقة وعمق معًا ؟
ثم عدت أسأل نفسي هذا السؤال :

هل أستطيع أن أفر من هذا الميدان - ميدان البحث في تاريخ الإعلام
في الإسلام - وقد مضت لي تجربة طويلة إلى الآن في كل من الثقافة
الإسلامية والثقافة الإعلامية ؟ .

وسرعان ما أجبت عن هذا السؤال الأخير بالنفي :
فإني أذكر - وليس ذلك تزكية لنفسي ، ولكن بنعمة الله أحدث أنني
شاركت في الثقافة الإسلامية بأكثر من عشر يين كتاباً ، كما وضعت في الثقافة
الصحفية والإعلامية ما لا يقل عنأربعين بحثاً .

ومعنى ذلك أنه ليس من حقي بعد ذلك أن أتخلى عن هذا الميدان ،
ميدان البحث في تاريخ الإعلام في الإسلام ، بل يجب على أن أدل بدلوي
وأضرب ضربتي الأولى في هذه الأرض البكر .

ولاني لعلى يقين تام بأن هذا الاتجاه الجديد في بحوث الاتصال في

الإسلام سيغرى الكثيرون من الباحثين بالدخول في هذا الميدان ، وبذلك عرض لنا الباحثون صوراً جديدة من التاريخ الإسلامي ، وزوايا جديدة من هذا التاريخ كانت مجھولة كل الجهل من جهور المثقفين قبل اليوم .

وكم من كنوز سيقع عليها الباحثون في هذه المنطقة من مناطق البحث عندما يتحدثون عن الدعاية الأموية ، والدعاية العباسية ، والدعاية المذهبية ، والدعاية الفاطمية ؛ وكم من كنوز سيقعون عليها عندما يتحدثون بنوع خاص عن دعاية الشيعة ، ودعاية القرامطة والدعاية في عهد الحروب الصليبية ، وذلك حتى يصلوا في بحوثهم إلى الدعاية في حرب السويس سنة ١٩٥٦ .

* * *

شيء آخر دعاني إلى ترك الخوف والتردد في اقتحام هذا الميدان — ميدان البحث في تاريخ الإعلام في الإسلام — هو الدفاع عن كرامة المؤلفين العرب الذين لا يليق بهم أن يظلو تابعين للمؤلفين من غير العرب ، أو يظلوا مكتوفي الأيدي حتى يأتي علماء أوربا فيقولوا لهم في النواحي التي لم يؤلف فيها بعد من نواحي الثقافة الإسلامية كناحية الدعاية الإعلامية في الإسلام .

وبهذا وحده نتغلب على مؤامرة الصمت التي ترتكب ضد الثقافة الإسلامية من جانب علماء أوربا وأمريكا ، وذلك في النصف الثاني من القرن العشرين على وجه التحديد كما صرّح بذلك المؤرخ الفرنسي جارودي^(١) .

* * *

وثالث الدوافع التي حفزتني على تقديم هذا الكتاب إلى القراء ، هو ما نعلمه عن أكثر شباب الجيل الحاضر أنهم أصبحوا يعرفون عن التراث

(١) جريدة الأهرام : المد الصادر بتاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٦٩ في محاضرة ألقاها في موضوع «الحضارة العربية وأثرها في الثقافة العالمية» .

الأوروبي أكثر مما يعرفون عن التراث الإسلامي ، بل أصبح شباب هذا الجيل يفاخر بعضهم بعضاً بهذه الصفة ..

وكان الأولى بهم أن يتسلّموا بأباهم وأجدادهم من ذر العصر العباسي ، وهم الذين جمعوا إلى الثقافة العربية كلا من الثقافتين اليونانية والفارسية ، وصهروا هذه الثقافات الثلاث في بوتقة واحدة خرج منها ما يسمى « بالثقافة الإسلامية » التي تتّالُف من العنصر العربي ، والعنصر الفارسي ، والعنصر اليوناني ، أما اكتفاء الجيل الحاضر « بالثقافة الأوروبية » وتفاخرهم بتجاهل الثقافة الإسلامية ، فقد كان جائزًا في عهود الاستعمار ، أما في العهد الذي بدأ فيه الشخصية العربية تتميز بين الشخصيات ، فلا ، ثم لا ..

* * *

ولقد كان الإسلام في ذاته ثورة ، كما كانت المسيحية في ذاتها ثورة ، وكانت اليهودية ثورة ، وكان لا بد أن تعتمد هذه الثورات على كثير من وسائل الإعلام أو الاتصال حتى تنجح وتحقق الغرض الذي جاءت من أجله ، ومن ثم أصبحت دراسة الاتصال بأنواعه التي من أهمها الدعاية والإعلام واجبة على جميع معاهد الإعلام في العصر الذي نعيش فيه ، وهي أشد وجوباً — فيها نرى — للجامعات التي تعنى بالدراسات الدينية أو المعاهد التي تشغّل بإعداد المبشرين الدينيين وتخريج الدعاة .

أثر عن بعض البابوات المحدثين أنه قال :

لو بعث المسيح من جديد لاختار لنفسه أن يكون صحفيًّا ، وهذا قول ينطبق على الأنبياء جمِيعهم على السواء .

فإن النبي إذا بعثه الله في أمّة من الأمم وجب عليه أن يختار من وسائل الإعلام والإرشاد والاتصال بالناس أنجح هذه الوسائل في العصر الذي ظهر فيه .

وقد كانت الوسيلة الإعلامية سحرًا في عهد موسى ، وكانت طبًّا في عهد عيسى ، وكانت قرآنًا في عهد خاتم النبيين محمد ﷺ .

أليس معنى ذلك أن الإسلام دين إعلامي لأنه اعتمد على القرآن .. . والقرآن آية الله تعالى في البلاغة ، وفي التأثير في نفوس البشر إلى الدرجة التي سجد لها العرب ، وإذا كان القرآن هو أكبر وسائل الإعلام في الإسلام فلماذا لانسميه ديناً إعلامياً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ؟

ثم إن وسائل الإعلام في ذاتها نوعان : نوع قديم وآخر حديث ، والنوع الأول منها فضلي من صنع البشر ، كالخطابة والشعر والندوة والسوق ، والنوع الثاني منها صناعي من اختراع العلم كالصحف والراديو والتلفزيون وكالات الأنباء والسيما ونحو ذلك .. وكل وسيلة من هذه الوسائل الحديثة من وحي العلم ولحمة الاختراع ولا ندرى ماذا سيحدث منها فيما بعد ، وبها تيسير الاتصال بين الناس ، وقد كثر عددهم في كل بقعة منها ، ولم يعد في وسعهم أن يتصل بعضهم ببعض عن طريق الخطابة فقط أو القصيدة فقط ، أو السوق فقط أو الندوة فقط وهكذا ، لأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يجتمع الملايين في مكان واحد ليحافظ عليهم في موضوع معين ، كما كان الحكام أو القادة يقدرون على شيء من ذلك في الأزمنة القديمة ، وإنما أصبحت الوسيلة الوحيدة في العصور الحديثة لهذا الاتصال هي الصحف أو الإذاعة أو وكالة الأنباء وما شاكل ذلك ، وهذا أصبحت عملية الاتصال في ذاتها في العصر الذي نعيش فيه عملية مصطنعة تفقد كثيراً من قيمتها وإن لم يكن في استطاعة أي مجتمع من المجتمعات أن يستغني عنها.

بینما الوسائل القديمة كانت لها قدرة أكيدة وعجيبة على التأثير في الأفراد والجماهير بالقدر الذي لا يمكن أن تحلم به وسيلة من وسائل الاتصال الحديث كالصحافة والإذاعة ونحوها :

هذا الكتاب

وهذا الكتاب الذي بين أيدي القراء مؤلف من ثلاثة أبواب :

الأول : يتحدث عن وسائل الإعلام التي عرفها العرب في الجاهلية والإسلام ، فاما الجاهلية فقد عرف عنها وسيلة التجارة الخارجية ، والتجار العرب كغيرهم من تجار الأمم الأخرى كانوا يستغلون بنقل الأخبار من مكان إلى مكان ، وكانوا يستغلون بنقل الثقافة أيضاً . كما كان من الوسائل الإعلامية في الجاهلية وسيلة للبعثات الدينية كاليهودية والنصرانية ، وقد كان لها أثر كبير في الإعلام العربي والثقافة العربية في الجاهلية ، هذا كله في خارج جزيرة العرب ، وأما في داخل شبه الجزيرة فقد مارس العرب شتى الوسائل المعروفة في البيئات القديمة ، ومن أهمها القصيدة الشعرية ، والخطبة والخطباء ، والنداء والمنادون والأعياد ، والأسواق والندوات وغير ذلك ،

وجاء الإسلام فاستحدث صوراً جديدة في مجال الإعلام والاتصال بالناس ، ومن أوضح هذه الصور القرآن الكريم الذي هو أكبر وسائل الإعلام في الإسلام ، ثم الحديث الشريف ، وقد اعتمدت عليه جميع العصور الإسلامية من الناحية الدعائية ، وكانت القدوة الحسنة من جانب الرسول وكبار الصحابة من أكبر العوامل في نشر الدين الجديد ، وقد اعتمد الرسول ﷺ إلى جانب ذلك على وسيلة معروفة في علم الاتصال أو الإعلام ، وهي وسيلة الاتصال بنوعيه الشخصي والجماعي ، والنوع الأخير يتمثل بوجه خاص في مجال الإعلام والدعائية ، ومع هذه النرائين الإعلامية كلها كانت ذريعة لقاصص غير القرآني ، وقد بدأت في الظهور أيام الخلفاء الراشدين ، ثم اعتمدت عليها الخليفة الإسلامية بعد ذلك منذ الخليفة الأموي الأول معاوية ابن أبي سيفان . ويضاف إلى هذه الميادين الإسلامية كلها ميدان الحج ،

وباختصار جاء الباب الأول من أبواب هذا الكتاب عرضاً شاملاً للوسائل الإعلامية التي عرفها العرب في الجاهلية، والوسائل الإعلامية التي احتاج إليها الإسلام :

ثم في الباب الثاني من أبواب الكتاب وعنوانه (الدعوة في عهد الرسول) أتينا بكلمة تمهيدية للتفرقة بين الدعوة والإعلام والدعائية .

أما الدعوة فاسم عرفت به جميع الجهود التي بذلها الرسول في سبيل الرسالة التي بعثه الله من أجلها ، وقد شملت هذه الجهود جميع الوسائل الإعلامية التي ظهرت في الإسلام .

. وأما الإعلام فاسم لجميع الجهات التي ينتمي إليها الخلفاء الراشدون وكانوا فيها صورة دقيقة من الرسول نفسه وذلك في العقيدة ذاتها .

وأما الدعاية فهي الجهود التي بذلها المحكم المسلمون وأقاموا عليها حكوماتهم وذلك منذ حكم معاوية بن أبي سفيان إلى وقتنا هذا . وبعد هذا التمهيد شرح الكتاب مراحل الدعوة الإسلامية وهي المرحلة السرية ، والمرحلة العلنية ومرحلة الاضطهاد الديني ، ومرحلة الهجرة ، ومرحلة الاستقرار بالمدينة . ووقف البحث عند كل مرحلة من هذه المراحل ، واستعرض الطرق الإعلامية التي سلكها الرسول في كل مرحلة منها ؟

وبنوع خاص في المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة الاستقرار بالمدينة ، وفيها اتسعت مجالات الإعلام وعظم نشاط النبي ﷺ في هذه المجالات وتعددت صوره وأشكاله ، وجئ المسلمين ثانية هذا النشاط في كل صوره ، وفي نهايتها نزل قول الله تعالى : «اليوم أكلتم لـكم دينكم وأثقمت عليـكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» .

وفي الباب الثالث والأخير من أبواب هذا الكتاب حديث عن الإعلام في عهد الخلفاء الراشدين وذلك في فصول أربعة : فصل في الإعلام على (م ٢ الإعلام في صدر الإسلام)

عهد أبي بكر ، وفصل في الإعلام على عهد عمر ، وفصل في الدعاية والإعلام على عهد عثمان ، وفصل في الإعلام على عهد علي . وانتهى البحث عند هذا الحد .

اقتراح :

(وبعد) فإذا كان لي أن أقترح شيئاً على الجامعات والمعاهد ومراكز البحث في مصر وفي غيرها من بلاد العالم الإسلامي، فإني أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بهذا المشروع الشخصي ، وأعني به مشروع :

التاريخ للدعاية والإعلام في الإسلام

ولهذه اللجنة أن تقوم ببحث هذا التاريخ عصراً عصراً ، أو فكرة فكرة ، أو مذهباً مذهباً ، في النهاية ستحصل المكتبة العربية على مجموعة غنية من الكتب الإعلامية الإسلامية ، تصبح كل واحدة منها بمثابة رائد من الروايدات التي تصب في نهر الإعلام :

نعم - ألح في العناية بهذا المشروع الجلل لأمرتين :

أولاً : أنني لا أستطيع بمفردي أن أقوم بجمع الحلقات التي تتألف منها هذه السلسلة .

ثانياً : أنني لم أقل غير الكلمة الأولى فقط من هذه الحلقة الأولى يعني أن موضوع (الدعاية والإعلام في صدر الإسلام) ما زال مفتوحاً أمام الباحثين لأنني لم أقل فيه الكلمة النهاية .



وبعد : فإني أقدم الشكر لجميع من تفضلوا بمعاونتي في هذا البحث ولو بإبداء الرأي .

فأشكر صديقي وزميلي الدكتور : إبراهيم إمام أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة .

وأشكر الشاب العراقي الأستاذ عناد الكبيسي فقد جاءني ببعض

النصوص التي احتاج إليها البحث . وأشكر موظفي المكتبة التابعة لجامعة أم درمان الإسلامية ، فقد يسرت لي الحصول على بعض المراجع القديمة والحديثة منذ كلفتني هذه الجامعة بإلقاء بعض المحاضرات في موضوع الدعوة الإسلامية وأساليب نجاحها .

ثم أشكر — مقدماً جميع الذين يتعرضون لنقد هذا الكتاب من جميع جوانبه، وأنا أشد الناس حاجة إلى هذا النقد.

والله أَسْأَلُ أَنْ يَنْفَعَ بِهَذَا جَمِيعُ الْمُتَقْرِبِينَ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَالْأَرَابِينَ فِي إِنْصَافِ الْقَوْمَ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ رِجَالِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ بَقِيعَةٍ مِّنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ ،

عبداللطيف حمزة مدرس الجديدة في فبراير ١٩٧٠

صور الاتصال والإعلام عند العرب في الحماهية وصدر الإبلام

الفصل الأول

الاتصال بالجماهير

بعض صوره في الحكاية

تحتفل المجتمعات القديمة عن الحديقة في نواح شتى : أهمها ناحية الاعلام والاتصال بالجماهير. ذلك أن المجتمعات القديمة كانت ضيقه بالقياس إلى المجتمعات الحديقة ، وفي البيئات الضيقه من حيث المساحة والعدد يسهل اتصال الأفراد بعضهم ببعض .

ونستطيع أن ندرك هذه الحقيقة بجلاء حين نوازن - من هذه الناحية - بين القرية من جهة والمدينة أو العاصمه الكبيرة من جهة ثانية ، ذلك أن التفاهم بين الأفراد في القرية أيسر بكثير من التفاهم بينهم في العاصمه أو المدينة المزدحمة بالسكان .

ومعنى هذا أن قلة العدد في أي بيئه أو مجتمع مما يسمى بحرية المناقشه وإبداء الرأي . أما كثافة السكان في البيئه أو المجتمع فإنها تعوق هذه الحرية وتجعل الأفراد في الأمة الواحدة أشبه بالقطيع الذي لا حيلة له إلا الخضوع للمراعي : ونکاد لا نستثنى من هذه القاعدة غير بيئه مكة والمدينه في صدر الإسلام ، وببيئه أثينا في بعض عصور التاريخ القديم . ومع هذا وذلك فإن المجتمعات القديمة كانت - كما يحدث التاريخ - لا تحفل كثيراً بما يسمى (بالرأي العام) .

أما المجتمعات الحديقة فلها عنایة بهذا الرأي ، ومن ثم وجدنا فيلسوفاً كبيراً كافلاطون ي مجرد الرأي العام لجماهير من كل قيمة . ومن أقوال فلاسفة اليونان ، في ذلك ، أن الأمة إذا اتسعت اتساعاً كبيراً لا تقوى على المحافظة على حريتها . والسبب في ذلك أنه لابد أن يجتمع الناس كلهم في ساحة واحدة لكي يستمعوا إلى أقوال الزعماء والقادة . وب بدون ذلك

لا يستطيع الشعب الاطلاع على أحوال الحكم - أو بعبارة أخرى لا يستطيع
تبني أعمال الحكومة^(١) .

من أجل هذالم يكن التاريخ يعطينا الدلائل السكافية على وجود رأى عام
يعنده الصحيح في البيئات القديمة ، وذلك باستثناء مكة والمدينة وأثينا. بل إن
التاريخ أمدنا بالشواهد الكثيرة على وجود رأى واحد فقط هو رأى الحكم ،
والذى ينظر إليه في بعض تلك البيئات القديمة على أنه ظل الله في الأرض ،
ولا معقب لحكمه ، ويأمر ولا راد لأوامره^(٢) .

مهما يكن من شىء فقد كان للإعلام والاتصال بالجماهير ميادين
كثيرة في البيئات القديمة . غير أن تلك الميادين الإعلامية القديمة كانت
تختلف في صورتها عن الميادين الحديثة .

فنحن نعرف أن الاتصال بالجماهير في هذه العصور الحديثة يشمل
ميادين كثيرة من أهمها : الإعلام والدعائية والإعلان والعلاقات العامة والتعليم
والحرب النفسية .. إلخ . ونفس هذه الميادين في الواقع هي التي وجدت
الصور القديمة وذلك مع فارق واحد لا بد من وجوده ، هو اختلاف
الصورة في البيئات القديمة عنها في الحديثة .

لقد عرف الناس في البيئات القديمة كلًا من الإعلام والدعائية ، ولكن
بالصور والوسائل التي تتناسبها ، كما عرف الناس في تلك البيئات القديمة
كلًا من الإعلان والعلاقات العامة والتعليم بالصور والوسائل التي تتناسب
معها وهكذا .

فاما الإعلام

فقد عرف الناس في البيئات القديمة من أساليبه المتعددة ووسائله
الكثيرة - وخاصة في العصر الجاهلي - أشياء كثيرة من أهمها فيما يتصل
بـ الإعلام الخارجي ما يلى :

(١) عبد اللطيف حزة : الإعلام والدعائية ص ٩ . الناشر دار الفكر العربي ،

(٢) عبد اللطيف حزة : الإعلام له تاريخه ومذاهبه ص ٩ الناشر دار الفكر العربي

١ - وسيلة التجارة : والتجار في الجزيرة العربية كمافي البلاد الأوربية كانوا ينقلون الأخبار ويقتبسون بعض مظاهر المدنية وينقلونها من مكان إلى مكان ، يقول الأستاذ أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام^(١) :

« شاع بين الناس أن العرب في جاهليّة كانت أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراة من جانب والبحر من جانب حصاراها وجعلها منقطعة عن حوالها لاتتصل بهم في مادة ولا تقتبس منهم أدباً ولا هنديّاً . والحق أن هذه الفكرة خاطئة وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً » .. وزريرد نحن على ذلك أن هذا الاتصال بين العرب ومن حولهم من الأمم كان إعلامياً إلى جانب أنه مادي وأدبي .

٢ - ومن تلك الوسائل الإعلامية كذلك البعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب تدعوا إلى دينها ونشر تعاليمها . فقد تكونت مستعمرات يهودية في الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرون . وأشهرها « يثرب » التي سميت فيما بعد (بالمدينة) وكان من أشهر القبائل اليهودية في يثرب قبيلة (بني النضير) وقبيلة (بني قريظة) وقبيلة (الأوس والخزرج) وهما من اليمن . وكان اليهود حملة الثقافة اليونانية إلى الجزيرة العربية لأنهم نزحوا إليها من مراكز هذه الثقافة بالشام والإسكندرية .

وأما البعثات النصرانية ومن أهمها بعثة تنتهي إلى فرقه النمساطرة وأخرى تنتهي إلى فرقه اليعاقبة . النسطورية في الحيرة واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام ، وأهم مركز للنصرانية في الجزيرة العربية هو نجران . وكان يتولى أمورها ثلاثة رؤساء . السيد ، والعاقب ، والأسقف . فالسيد كان رئيس القبائل في الحروب وكان يتولى أمر العلاقات بينها وبين القبائل الأخرى . والعاقب يتولى الأمور الداخلية ، والأسقف يتولى الأمور الدينية .

وكان بنجران كعبه تصاهى الكعبة بمكة . ثم تحولت كعبه نجران إلى كنيسة ، وكان لنجران اتصال كبير باللحشة لأنها يعقوبية المذهب .. وكان

(١) أحمد أمين - فجر الإسلام ص ٣٢ وما بعدها

قسس نجران يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

وكانت النصرانية قبل دخولها الجزيرة العربية تحمل في ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو الشأن في اليهودية : وكان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين فلجهوا إلى الفلسفة يستمدون منها التعليم والبرهان^(١) .

هكذا كانت هذه البعثات اليهودية والنصرانية وسائل اتصال بين العرب والأمم والمدنيات المجاورة .

٣ - ثم من وسائل الاتصال بالجماهير في الجاهلية أو من أسباب هذا الاتصال وجوده - إنشاء إمارات على الحدود ، ذلك أن الجزيرة العربية كانت تقع بين أعظم حضاراتين آن ذاك : الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية - أولاهما من ناحية الشرق والثانية من ناحية الغرب ، وقد حاول كل من الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم انتقاماً لشنائهم وسلبهم ونهبهم . وبدلًا من أن يكلفوها أنفسهم غزو جزيرة صحراوية لاأمان لها ، فلأنهم - أي الفرس والروم - ساعدوا بعض القبائل العربية المجاورة لهم على أن يستقروا في الحدود يزرعون فيها ويتحضرون ، ويكونون في الوقت نفسه رداً لهم ضد بقية البدو المقيمين في صحراء الجزيرة العربية . ومن ثم تكونت في شبه الجزيرة إمارات على الحدود منها :

إمارة الحيرة على تخوم الفرس .. إمارة الغساسنة على تخوم الروم .. فكانت هذه الإمارات أو المدن الجديدة همة الوصل بين العرب من جهة والأمم المجاورة لهم من جهة ثانية ^٥

قال الهمدانى في كتاب (الوشى المرقوم)^(١) :

« لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب . وذلك

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣٣ وما بعدها ،

(٢) أحمد أمين - فجر الإسلام ص ٣٢ نقلًا من الكتاب .

لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الشام أخبر بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونان ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً .. إلخ .

* * *

تلك إذن هي أهم وسائل الاتصال بين العرب ومن جاورهم من الأمم في العصر الجاهلي ، ومم وسائل الاتصال بين العرب بعضهم وبعض في داخل شبه الجزيرة أشرنا إليها في كتابين سابقين هما كتاب « الإعلام له تاريخه ومذاهبه » وكتاب « الإعلام والمدعية » ولا بأس من أن نشير إلى بعضها فيما يلى :

١ - القصيدة الشعرية :

الحق أن الشعر في العصر الجاهلي كاد يكون هو الوسيلة الوحيدة من وسائل الإعلام والمدعية ؛ والحق أنه لم توجد إلى جانب هذه الوسيلة غير وسيلة الخطابة ، ولكن المنزلة الأولى في الجahلية كانت للشعر دائمًا ، وفي بيته لا يعرف القراءة والكتابة فيها إلا قليلون يكادون يغدون على الأصابع كان لابد للشعر أولًا ثم للخطابة بعد ذلك أن يقوم بوظيفة الإعلام ووظيفة الدعاية للقبيلة . ولعل أكبر دليل على أهمية القصيدة العربية واهتمام العرب بها ما رواه التاريخ عن العرب أنهم كانوا يختارون أجود القصائد ويكتبونها على (القباطي) بناء الذهب ، وكانوا يعلقونها على أستار الكعبة أو في بيوت الملوك ، ومن أشهر هذه القصائد ما سمي (بالمعلقات السبع أو العشر) .

صحيح أن قلة من المؤرخين أنكروا ذلك ، وعلى رأسهم (أبو جعفر النحاس) وتبعهم بعض المستشرقين في هذا الرأي . ولكن بقية المؤرخين والنقاد ذهبوا في قصة المعلقات إلى أنها صحيحة . ذكر البغدادي في خزانة الأدب : أن العرب كانت في الجahلية يقول الرجل متهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي قائله في موسم الحج فيعرضه

على أندية قريش . فإذا استحسنوه روى وكان فخرا لقائله . وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه^(١) .

والعقل لا يرى مانعاً من صحة تعليق هذه القصائد في الكعبة . ويجوز أن يقع ذلك في أيام المواسم كلها أو بعضها ، ويجوز أن يكون في ساعة من نهار . والتاريخ يذكر أن قريشاً حين استقر رأيها على قطعة بنى هاشم كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة :

ولم تجد قريش أفعى من هذه الطريقة الإعلامية ولا أقوى منها تأثيراً في نفس الرسول وأصحابه وفي نفوس بنى هاشم ليفهموهم أن قريشاً مصممة على تعذيبهم بهذه الطريقة لأن تعليق الصحيفة على أستار الكعبة يعطيها كل هذه الأهمية الإعلامية التي لا تجاري ..

والتاريخ يذكر لنا كذلك أن الرشيد حين كتب العهد للأمين والمأمون بالخلافة بعده أمر أن يعلق في أستار الكعبة ليكتسب بذلك قوة وهيبة . وليرزد الناس خضوعاً لهذه الطريقة الإعلامية الضخمة .

إذا صح كل ذلك فلامانع من أن يكون للعرب وللشعر عندهم كل هذه المنزلة – عناية بالمعلمات التي هي من أجود القصائد العربية باعتراف جميع النقاد ، والتي تعتبر في الوقت نفسه من أعظم أنماط الدعاية للشاعر ولقبيلته التي يدافع عنها ويغتال بها في معلماته .

أجل لقد شهد التاريخ أن القصيدة الشعرية قامت بوظيفتها في العصر الجاهلي خير قيام . وأن الشاعر إذا ظهر في قبيلة من القبائل هنا أفرادها بعضهم بعضًا ، وهنأتهم القبائل الأخرى كذلك بهذا الحادث السعيد وهو ظهور هذا الشاعر .

والسبب في ذلك أن الشاعر في القبيلة كان يقوم مقام الصحيفة بالنسبة للأحزاب في الوقت الحاضر . فهو الماطق بلسان هذه القبيلة : وهو المناضل عنها بشعره ، وهو الحافظ لهما في أوقات الحرروب وهو المصور لأخلاقها

(١) محمد هاشم عطية : تاريخ الأدب العربي في مصر الجاهلي ص ٢٢٣ .

وعاداتها ومكانتها بين القبائل الأخرى . غير أن أكثر هذا الشعر كان من باب الفخر ، والفخر من أنساب الأبواب الشعرية في الجاهلية وذلك لظهور العصبية والقبيلية — فترى على حد قول القائل :

ونشرب إن وردنا الماء صفوأ ويشرب غيرنا كدرأ وطينا
.. الخ

وقد بي هذا النوع من الشعر القبلي سائداً في الجزيرة العربية حتى بعد ظهور الإسلام، وأظهر ما كان ذلك في الدولة الأموية . ومن أكبر شعرائها جرير ، والفرزدق ، والأنسطل ، وذو الرمة ، وлем في (باب التقائض) أو شعر المهاجنة القبلية شأن وأي شأن .

٢ - الخطبة والخطباء :

وقد كان هؤلاء يقومون بما قام به الشعراء من الوظائف الاجتماعية والسياسية وخاصة في أوقات الفتن والحروب والقلائل ، وقد كانوا يعتنون بالنصرانية ، وكان لشعرهم وخطبهم طابع ديني في أكثره .

٣ - المناداة :

وكان الناس يمارسون هذه الطريقة الإعلامية بأشكال مختلفة منها دق الطبول ومنها إشعال النار على قسم التلال أو المرتفعات ، ومن أهمها الأصوات التي ترتفع بها حناجر المنادين في القرى والمدن .

ومازال كثير من هذه الأشكال سائداً في البيئات العربية إلى يومنا هذا ، وإن أضاف إليها مرور الزمن أشكالاً أخرى من المناداة ومنها إطلاق الأغيرة النارية في الأفراح أو البشائر كإعلان عن نجاح مرشح في الانتخابات أو الإعلان عن نجاح شاب في بعض الأسر وحصوله على شهادة علمية .

ومنها — أي من أشكال المناداة — ماكنا نراه في القرية المصرية حين تختتم صبياتها حفظ القرآن الكريم فإذا ذاكيه كب الصبي بجملاً أو حماراً أو حصاناً ويطاف به في القرية إعلاناً بأنه أتم حفظ القرآن الكريم .

وقد اختفت هذه الأشكال الأخيرة من أشكال المناداة في الوقت الحاضر . كما سيأتي ذكر ذلك .

٤ - الأعياد :

وقد عرفت البشرية الأعياد في جميع عصورها ولم يستغн عصر من هذه العصور عن الأعياد في أي شكل من أشكالها . وعرف العرب في الجاهلية كثيراً من الأعياد ومنها على سبيل المثال :

عيد الشباب :

فيه كان يجتمع شباب كل قبيلة تحت شجرة كبيرة ، أو في مكان به أشجار كثيرة . ويأتي الشاب منهم فيتعلق رمحه أو يعلق سيفه أو يعلق نوطه على غصن من أغصان الشجرة ، ويحتفل الجميع بهذا اليوم وكانوا يطلقون على الشجرة اسمها يعرفونه بينهم ، فيسمونها (ذات أنواط) يفعلون ذلك من قبيل الفخر بالقوة . وكان هذا الفخر في ذاته يتفق وطبائع الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على هذه الشجرة وكان معه أصحابه وفيهم بعض الشباب قالوا « يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » فضحك رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يجهز لهم ما طلبوا . وعرف الشباب من الصحابة بعد ذلك أن الإسلام له أعياد من نوع آخر ، وله ذرائع لإظهار القوة من طراز جديد لأغراض جديدة لم تعرفها الجاهلية .

ومهما يكن من شيء فقد كان (عيد الشباب) في الجاهلية وسيلة من الوسائل الإعلامية وطريقاً من طرق الدعاية . وبهذا الطريق كانت كل قبيلة تعلن عن قوتها حتى تخشاها القبائل الأخرى .

٥ - الأسواق :

تحذلنا الأولوي في كتابه (بلوغ الأربع في معرفة أحوال العرب) عن الأسواق في الجاهلية والإسلام ، ومن هذا الحديث نعلم أن الأسواق عند العرب لم تكن مراكز للمبادرات التجارية فقط ولكنها كانت ممراً

للبضائع الفكرية والأدبية إلى جانب أنها معرض للبضائع المادية أو التجارية، وفي الأسواق كانت تفضي المنازعات القبلية . وفيها كانت تعلن القبيلة الحرب على قبيلة أخرى . وفيها كان يحدث التعارف بين الناس . وقد يؤخذ من هذا التعارف إلى عقد الزواج بين بعض وبعض . وفيها كان يأتي من كل قبيلة شاعر ليعرض شعره على الناس ويختتم فيه إلى الحكمين في نقد الشعر (النابغة) وغيره .

وفيها كان يأتي الخطباء ليخطبوا الناس في مختلف الشئون ، وكان من أولئك الخطباء « قس بن ساعدة الإيادى » الذى كان يخطب الناس في الأمور الكونية ويدعوهم إلى التأمل في الموت وما بعد الموت . وقد سمعه رسول الله عليه السلام وأعجب به .

وقد كانت هذه الأسواق على ضربين من حيث الإتاوات والمكوس (أو الضرائب) ، منها ما يفرض المكوس على الوافدين إليها ، وهى الأسواق التي تتبع قبيلة من القبائل بالذات . ومنها ما لا يفرض هذه المكوس أو الضرائب لأنها لا تتبع قبيلة بالذات ، ومن الأخيرة سوق عكاظ . وقبل أن نتحدث عن سوق عكاظ التي هي في نظر التاريخ أعظم أسواق العرب في الجاهلية يجلد بنا أن نمر مروراً سريعاً ببقية الأسواق ومنها :

سوق دومة الجندي :

وهي سوق تجارية بختة يحل موعدها كل عام في أول ربيع الأول . وتقطنه قبيلة كاب وجوية طيء . ويشرف على موسمه أمراء من العرب . وكان (أكيدر) صاحب دومة الجندي يرعى الناس ويقوم بأمرهم في أول يوم .

سوق المشقر : (بكسر الميم وتشديد القاف) .

وهي حصن قرب هجر وتنزل هذه السوق أخلاط من جميع العرب . وكان أمرو القيس ينزلها . وفيها حصر كسرى بنى تميم ، وأغلق عليهم باب الحصن ، ثم قتل الجندي وسي المداري .

سوق هجر :

وهي سوق تجارية أيضاً تشتهر باللؤلؤ والنخيل وفيها تروج تجارات الهند وفارس ويدير أمورها (المنذر بن ساوي) ملك البحرين .

ثم من هذه الأسواق كذلك (سوق عمان) (سوق حباشة) على أرض
تهامة على بعد ست ليالٍ من مكة إلى جهة اليمن . وقد تاجر فيها رسول الله ﷺ
وسوق (صحاب) وسوق (دبي) وسوق (الشحر) وغيرها ،
وكل هذه الأسواق المتقدمة لاتعنينا كثيراً في هذا البحث لأنها أسواق
تجارية خالصة تفيد الناس من ناحية التجارة ومن ناحية الاتصال ببعضهم
بعض ، ولكن السوق التي تستحق منها كل عنابة في هذا البحث هي :

سوق عكاظ :

وعكاظ هي المعرض العربي العام أيام الجahلية :
 فهو مجمع أدبي لغوي رسمي له ممكرون تضرب عليهم القباب فيعرض
شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، وما استيجادوه فهو الجيد وما به جوه
فهو الزائف . وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية ،
فما ينطق الحكم به كمه حتى يتناقل أولئك الرواة الفصيحة الفائزة ، فتسرير
في أغوار الجزيرة وأنجادها ، وتلهج بها الألسن في النوادي والمحاضر ،
ويحمل إلى هذه السوق التهامي والهجاري والتتجدي والعراقي ، واليماني واليماني
كل ألفاظ حية ، فatzال عكاظ بهذه اللهجات نخلا واصطفاء حتى يتبقى
الأنسب الأرقى ، ويطرح المحفوظ الثقيل ، كما أنها السوق التجارية
الكبرى لعامة أهل الجزيرة . وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم
الاجتماعية ، فهنا قس بن ساعدة يخطب في الناس ويدرك الحالق ويعظم من
كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير ، وهذا ندوة سياسية عامة تطرح فيها أمور
كثيرة بين القبائل : فمن كانت له إلتادة على قبيلة نزل عكاظ فيجاءوه بها .
ومن أراد تحايل نصر لحية - فعل فعل عمرو بن كلثوم - فرحل إلى عكاظ

وخلده فيها شعراً : ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في عكاظ حتى يسمعه العامة الناس . ومن أراد إعلان حرب على قوم أعلنه في سوق عكاظ .

وكانت هذه السوق تقوم بين العرب يومئذ مقام الصبحيفة الرسمية في أيامنا هذه ، فنأتى عملاً شائناً تأباه مروعة العربي شهروا به في عكاظ ونصبوا له راية غدر : فعرفوه فلعنوه فاجتنبوه . ومن أراد التبرؤ من قريب لسبب أو آخر تبرأ منه في عكاظ .

وعكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف ، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق . وتقام هذه السوق في ذى القعدة وتنزله قريش وهوazen وغطفان وخزاعة والأحبابيش وطوائف من العراق والبحرين والمأمة وعمان واليمن وسائر أطراف الجزيرة . وليس فيها مكس ولا أعشار لأنها لا تبيع أحداً من النساء . حتى جاء الإسلام فكان يعظ بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع . وكان أبوه قاضياً في الجاهلية . فمات فصار ميراً لهم .

وتقيم العرب في عكاظ وهم يتوجهون للحج ويتنادون ويتفاخرون . ويتنازعون ويتنافرون ويتعاظمون ، ولم يكن للعرب سوق كعكاظ . وبقيت له هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقد جاء في الأمالي لأبي علي القاتلي أن (عبد الرحمن بن ملجم) قاتل على لما سئل عن قتله علياً قال : ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلتهم . وكان يقوم بأمر الحكومة عامة بنو تميم وكانت الحكومة في الشجر للنابغة ، وكانت تضرب له قبة بهذه السوق يجتمع إليه فيها الشعراء فدخل إليه حسان وعنه الأعشى ، قال النابغة أنشدته شعراً وحكم له . ثم أنشدته الحنساء قوله :

قدى بعينيك أم بالعين عوار
أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار
حتى انتهت إلى قوله :

وإن صخرأ لتأم المداة به
كأنه علم في رأسه ناراً
وإن صخرأ لكافينا وسيلنا
إذا نشتو لنحار

فقال النابغة : لو لا أن أبي بصير (يريد الأعشى) أنشدني قبلك لقلت
إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة (كتنائية عن المرأة) فقالت :
والله من كل ذي خصييتين (كتنائية عن الرجل) ، فقال حسان : أنا والله أشعر
مثلك ومهما . قال : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجهنمات الغر يلمعن بالضمحى وأسيافنا يقطرن من نجدتهم
ولدنا بني العنقاء وابني محراق فأكرم بنا حالاً وأكرم بنا ابنها
فقال النابغة : إنك لشاعر لو لا أن قلت عدد جفانك وفخرت بمن .
ولدت ولم تفخر بمن ولدك .

* * *

وقف رسول الله ﷺ بعد هبعته بثلاث سنوات في عكاظ يدعوه
الناس إلى الخير والهدى والسعادة والإيمان ، وقد لزمه منذ قيامه بالمدعوة
حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، فعزם ليقصدهن المواسم
وليأتين فيها القبائل كل قبيلة بمئرها وكل جماعة في حيهم ، يعرض
عليهم هذا الدين .
قام في عكاظ يقول :

يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا ،

ويتبعه رجل له غديرتان وهو يقول :

يأيها الناس ، إن هذا ابن أخي وهو كاذب فاحذروه .
فعرف الناس أن هذا الصاد عن سبيل الله هو عمه (أبو هلب) يكتبه
كلما قال كلمة الحق .

وعاود الرسول مراراً فلم يستجب له ولم ييأس ، فكان يقول للحي
في موسم عكاظ : لا أكره منكم أحداً على شيء ، من رضي الذي أدعوه
إليه قبله ومن كرهه لم أكرهه إنما أريد أن تجوزوني لما يراد بي من القتل
حتى أبلغ رسالات ربى . ويغفر الله لي ولمن صحبني بما شاء .

ولعل أشهر أسواق الجاهلية أيضاً :

سوق مجنة : (بتسليد النون)

يقصده العرب بعد أن تنقضى سوق عكاظ :

سوق ذى المجاز :

ورد ذكرها كثيراً في شعر العرب . وخاصة شعراء هذيل - لأنها من أسواقهم الكبرى . وهذه الأسواق الثلاث : عكاظ ومجنة وذو المجاز كانت تقوم في أيام الحج وبيتها العرب قاطبة . وقد شهدت إلى جانب البيع والشراء والمفاحرة مشهداً من أقطع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى للرسول . وابتلت بضميرها صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلت من دعوات .

وجاء الإسلام فاستمرت بعض هذه الأسواق وأضيف إليها أسواق

جديدة منها :

المربد :

ولم يعهد لهذه الأسواق في الإسلام تلك القيمة التي كانت لها في الجاهلية ، وذلك أن العرب تحضرت وسكنت الأمصار وكثرت فيها الأسواق الدائمة إلا ما كان من أمر المربد الذي ورث عكاظ . وأنحد أمر المربد (وهو عكاظ الإسلام) يزداد شيئاً فشيئاً .

ونقع هذه السوق قرب البصرة ، وقلت أهميتها في عصر الخلفاء الراشدين وعادت إلى قوتها في العهد الأموي ، وذلك للعصبية القبلية التي كانت من صفات هذه الدولة .

وتتعدد حلقات هذه السوق ويتوسطها الشعراء والرجاز ، ويؤمها الأشراف وسائر الناس يتامرون ويتناخرون ويتهاجون .. إلخ .

ولشكل قبيلة شاعر يعرض شعره في المربد ، وكانت ت湧ج بأعلام اللغة والأدب والشعر وال نحو ، معهم مخابرهم ودفاترهم يكتبون من فصحاء الأعراب فل مجرير والفرزدق حلقة والراعي التميري وذى الرمة كل منها حلقة .. إلخ .

وكان لكل من الشعراء رواة ينقلون له ما قاله خصمه وينشرون في الناس جواب شاعرهم عليه .

٦ - الندوة :

ولعل من أقوى طرق الاتصال بين العرب في الجاهلية - عدا الأسواق - الندوة . وهي مكان يجتمع فيه أهل الرأي في الأوقات التي تحتاج إلى تبادل الرأي .

ومن الأمثلة عليها (دار الندوة) قرب السكة، وهي الدار التي اجتمع فيها رؤساء القبائل العربية ومنهم بنو هاشم وأخذوا يتشارون في الطريقة التي يتخلصون بها من محمد ﷺ . وكان ذلك قبيل الهجرة ، وكان العرب ينتزون فرصة اجتماعهم كذلك بالأسواق على النحو الذي شرحناه في هذا الفصل ويعقدون فيما بينهم (ندوة) يتباخرون بها في شئ المشكلات التي تعرض لهم ويخرجون بحيل ل بكل مشكلة . وقد يشتت بينهم الجدال فلا يخرجون بشيء .

٧ - إشعال النار في رعوس الجبال :

كذلك كان من وسائل الإعلام في الجاهلية وسيلة فطرية لا تكلفهم شيئاً من الجهد والمشقة ، وهذه الوسيلة الأخيرة هي إشعال النيران فوق رعوس الجبال يخبرون بها عن عدو يريد الإغارة على القبيلة، أو يخبرون بها عن حادث كبير . ساراً كان أو محزناً حدث في القبيلة ، أو يعلنون بها عن ولادة كبيرة وهكذا ، وحول هذه النار تخلق العرب ومعهم ضيقائهم وهم الذين من أجلهم أو قدموها . وكثيراً ما يكون بين القوم شاعر يتفعل بهذه المخلص ويمدح صاحب النار ويصفه بالكرم والجود فإذا روى هذا الشعر أصبحت لصاحب النار شهرة كبيرة .

وتحادثنا كتب الأدب عن رجل اسمه الخلق كانت له بناة لم يتزوجن وعلت بهن السن : وفي ذات ليلة من الليالي جاءه شاعر من الشعراء فأورد له

النار وبالغ في إكرامه وطعامه وشرابه ، ونظم الشاعر قصيدة في مدح هذا الرجل الذي أشعل النار (ويات على النار الندى والخلق) وسارت هذه القصيدة ، وعلم الناس بأخبار الرجل وبناته فتقديم للزواج منهن خير شباب العرب .

والظاهر أن طريقة إشعال النار فوق الجبال هي التي تطورت بعد ذلك في الإسلام إلى (المناور) والمناور هي مواضع رفع النار في جنح الليل ومواضع الدخان في وضح النهار ، وتكون تارة على رءوس الجبال . وتكون تارة في أبنية عالية ، وفي كل واحد من هذه المناور – كما يقول صاحب صبح الأعشى – نظارة لرؤيه ما وراء (المناور) وما يكون أمامها ، يقول صاحب صبح الأعشى : وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند الـكثرة وجود الجبال في تلك البلاد .

ونحن نقول إن الأمر لا يحتاج إلى نقل فكرة (المناور) من بلد إلى بلد ، لأن الطبيعة هدت العربي إلى إشعال النار في رءوس الجبال بجميع تلك الأغراض الإعلامية ، ومن الطبيعي كذلك أن تخضع هذه الفكرة البسيطة للتتطور شيئاً فشيئاً حتى تصبح في العهود الإسلامية اللاحقة على صورة (المناور) .

٨ – المناداة :

وهي من أقدم الطرق الفطرية في الإسلام وجدت في جميع البيئات القديمة بدون استثناء ، والنداء في جميع تلك البيئات وسيلة لنشر الأخبار وما زال إلى اليوم في بعض البلاد العربية المختلفة أو النامية . وذلك في الوديان والسهول والقرى وبعض الجهات المتطرفة ، وما زال المنادى يتتجول في بعض المدن ، وقد يكون للمدينة الواحدة متادون كثيرون ، وأكثر ما يكون ذلك في المواسم الدينية كشهر رمضان والعيدرين ونحو ذلك ،

لذلك كان من الأمور الطبيعية أن يوجد المنادى في الجاهلية وأن يقوم بكثير من أغراض الإعلامية ، وأن يشبه في ذلك (المنادى) في الإسلام

وهو الرجل الذى يعهد إليه بإذاعة الأوامر الحكومية والأخبار الحربية وبعض الأخبار الرسمية كوصول حاكم جدى للولاية وتحديد الأعياد الدينية .

وكما تطور إشعال النيران فى رعوس الجبال إلى (مناور) كذلك - فرأينا تطور النداء فى الجاهلية إلى (الأذان) فى الإسلام وهو هذا النداء الذى يسمعه الناس خمس مرات فى اليوم والليلة إيذاناً بالصلوات الخمس المعروفة .



البَابُ الْأَوَّلُ
أشهر صور الإعلام في صدر الإسلام

تَحْصِيدٌ

عرفنا أن العصر الجاهلي لم يكن يمارس من وسائل الإعلام غير الوسائل الفطرية المعروفة عند الأمم المختلفة أو الجماعات البدائية ، وأن أهم هذه الوسائل التي عرفها الناس في الجاهلية وسيلة القصيدة الشعرية ، ووسيلة الخطب ، ووسيلة الندوات ، والأسواق والمناداة ، ووسيلة إشعال النيران من أعلى الجبال ونحو ذلك .

ومنذ ظهور الإسلام كان لا بد من أن يصبح للإعلام صور جديدة لم يعرفها العرب من قبل ، وصور قديمة احتفظ بها الإسلام وكانت معروفة للعرب من قبل :

فأما الصور القديمة التي احتفظ بها الإسلام فهي القصيدة الشعرية وإن لم يصبح لها في الإسلام شأن كبير كما كان لها هذا الشأن في الجاهلية ، ومنها الخطابة وهي الصور الإعلامية التي أصبح لها في الإسلام شأن أكبر من شأنها في الجاهلية ، ذلك أن الخطابة فن الاقتتاح وأنها لا تزدهر في عصر من العصور كما تزدهر في عصر الثورات ، ولذلك باغت الخطابة أوجها على يد الرسول وأيدي الحلفاء الراشدين من بعده : أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وكان هذا الأخير مضرب المثل في البلاغة العربية على حد سواء .

ثم من الوسائل الإعلامية التي احتفظ بها الإسلام وسيلة الأسواق ووسيلة الندوات لأنهما متصلتان اتصالاً قوياً بحياة الناس في كل زمان ومكان :

جاء الإسلام واستحدث الكثير من الأساليب الجديدة في ميدان الإعلام والاتصال بالناس منذ عرض عليهم هذا الدين الجديد . وبذل النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل هذه الغاية من الجهود الكبير ذاتي ستتصفح عند الكلام على كل أسلوب من هذه الأساليب على حدة .

وقد سبق أن قلنا في التمهيد إن الجهود التي بذلها النبي في ميدان الاتصال تسمى بالدعوة ، وإن الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون في هذا الميدان يمكن أن نطلق على أكثرها اسم (الإعلام) ، ذلك أن الرسول كان قد أدى الأمانة وقام بالرسالة وفرغ من عرض الدين الجديد على الناس . أما الخلفاء الراشدون من بعده فكان عليهم واجب آخر لا يصح أن نسميه (دعوة) ولكن نطلق عليه اسمًا آخر هو (الإعلام) في سبيل نشر الدعوة :

وإذا ذهبنا نستعرض أساليب الدعوة والإعلام في صدر الإسلام وجدناها كثيرة في جملتها ، وكانت كلها من وحي القرآن ، أو كانت كلها من وحي الرسالة التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام . فمن هذه الأساليب بعد القرآن الكريم والحديث للشريف والخطبة النبوية :

أسلوب الأذان لإقامة الصلاة ، وأسلوب الغزوات والسرايا الحربية التي كان الرسول والخلفاء من بعده يقومون بتنظيمها لاستطلاع حال العدو وإعلامه أن الدين الجديد له من القوة الحربية ما يستطيع بها المحافظة على نفسه في الداخل والخارج ، وقد نظر هذا البحث — كما سبق القول في ذلك — إلى الغزوات على أنها كانت من أقوى وسائل الإعلام بهذا المعنى .

أسلوب العلاقات الودية :

وقد كانت معروفة في الحماعة الجاهلية ولكن لم يكن لها من المظورة والأهمية ما أصبح لها منذ ظهور الثورة الإسلامية ، والسبب في ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يقيمون حياتهم على العصبية القبلية ،

وهي التي أشعلت بينهم نار الحرب لأنفه الأسباب ، ثم هي العصبية التي جاء الإسلام لمحاربتها واقتلاع جذورها من الوجود العربي ، ومن أجل ذلك وجدنا الإسلام قد أحل أسلوب العلاقات الودية محل العصبية ، ومارسها الرسول مع أصدقائه وأعدائه على السواء

ولا شك أن الذي ساعد الرسول على القيام بهذه العلاقات الودية هم أصحابه من القراء والمتلقين في دينه ، فقد كان هؤلاء هم الصلة بينه وبين

القبائل العربية التي كانت تكرم هؤلاء الرسل تارة ، وكانت تسعي إليهم إلى درجة الغدر بهم وقتلهم تارة أخرى :

ومهما يكن من شيء فنحن إذا استعرضنا وسائل الاتصال بالجماهير في عهد الرسول والخلفاء الراشدين فسنجد أن أقواها تأثيراً في التفوس وأعظمها نجاحاً في الترويج للعفة يداه التي جاء بها الرسول مالا يقل عن تسع وسائل نذكرها مرتبة حسب أهميتها على الوجه الآتي :

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الحديث الشريف والخطبة النبوية .
- ٣ - القدوة الحسنة من جانب الرسول والصحابة أجمعين .
- ٤ - الاتصال الشخصي والجماعي وهو من أقوى وسائل الإعلام قدماً وحديثاً .
- ٥ - أسلوب القصص ، وهو وسيلة إعلامية ظهرت أول ما ظهرت في القرآن الكريم . ثم ظهرت على أيدي نفر من دخلوا الدين الجديداً أطلق عليهم اسم (القصاصين) وكان لهذه الوسيلة أعمق الأثر في تعلق المسلمين بهذا الدين ، ثم في ميدان الجهاد من أجل نشر هذا الدين .
- ٦ - مواسم الحج أو مواطن التجمعات الإسلامية على أوسع نطاق ، وقد كانت هذه المواسم أشبه شيء بالمؤتمرات الإسلامية الكبرى أو ، الأسواق العامة .
- ٧ - الغزوات التي نظر إليها البحث على أنها وسيلة إعلامية أوجبها القرآن للنشر الإسلام .
- ٨ - العلاقات الإنسانية .
- ٩ - القصيدة الشعرية .

من هذه الوسائل التسع سنتحدث عن الوسائل الإعلامية الآتية كل على حدة وهي :

أولاً : القرآن الكريم . ثانياً : الحديث الشريف .

- ثالثاً : القدوة الحسنة : رابعاً : الاتصال الشخصي ؛
خامساً : القصص : سادساً : مواسم الحج ؛
سابعاً : العلاقات الإنسانية .

أما الغزوات والبعثات الحربية وأما القصيدة الشعرية وأما الخطبة النبوية فسنرجي الحديث عنها إلى الوقت الذي نتحدث فيه عن (الدعوة الإسلامية على يد الرسول وطرق نجاحها) وتلك هي الخطة التي وضعناها للباب الأول من أبواب هذا الكتاب .

هذه هي أهم صور الإعلام والاتصال في عهد رسول الله ﷺ وسنرى أن الخلفاء الراشدين اتبعوا هذه الطرق الإعلامية نفسها . ولم يكادوا يزيدون عليها ، وذلك أن تاريخ الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم كان صورة دقيقة - في ميادين الإرشاد والتعليم والاتصال والإعلام - من حياة الرسول ؛

ونحن حين نقف عند كل وسيلة إعلامية من هذه الوسائل السبع منضرت المثل فيها بالرسول . وذلك لأنه أضخم شخصية في الوجود الإسلامي ، ولأن الاستشهاد بسيرته ومساركه في ميدان الاتصال يعني عن الاستشهاد بالصحابة أنفسهم ، كما سنشرح ذلك في كلمة بعنوان (تمهيد) مبنية بها الكلمة في الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ؛

الفصل الأول

القرآن أكبر وسائل الإعلام في الإسلام

ما لا شك فيه أن القرآن الكريم هو الوسيلة العظمى والطريقة المشلى للدعوة الإسلامية، ولا محل للمناقشة أو الجدل في هذه الحقيقة سواء كان هذا الجدل من المسلمين أو من غير المسلمين أو من الدهريين أو الوثنيين الذين لا دين لهم ولا عقيدة.

وقد نص القرآن في كثير من آياته على أن الرسول مكافف من قبل الله تعالى بشيء واحد فقط هو تبليغ الناس هذه الرسالة الجديدة . وأنه ليس مسؤولاً عن تصديق الناس لها أو عدم تصديقهم إياها . قال تعالى : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

وحضن الله رسوله كذلك على قتال المشركين ونشر الدعوة الإسلامية بطريق السيف ، فتصدّع الرسول لهذا الأمر ومارس الحرب للتوسيع الإقليمي ولا للحصول على السلطان ولا للانتقام من أحد من المشركين : فليست بيته وبين أولئك المشركين إلا أن يقولوا « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فإن قالوها عصموها منه دماعهم ولم يجز له أن يقاتلهم ، وأسلوب آخر من أساليب القرآن في الدعوة إلى الإسلام – ولعله كان أكثرها وقعاً في نفوس العرب وغيرهم من الأمم التي اعتنقـت الإسلام – وهو أسلوب القصاص ، وقد حفل الكتاب بقصص الأنبياء وما لقيه كل نبي منهم من أذى بأعنة الصور والأشـكال التي عرفـها البشرية ، ومع ذلك صبر الأنبياء على ما أوذوا في سبيل الله ، وكانت هذه الطريقة السلبية – وهي الصبر – من أنجح الطرق في تبليـغ رسالتـهم السماوية إلى الأمم التي بـعشوا إليها ، وكانت هذه القصاص التي حكت حـياة الرسـل من لـدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسـى عليهم السلام قد بـشت في المسلمين روح التضـميـحة ولـلصـبر من أجل الدين . وأوحـت إليـهم بالـقدوة الحـسنة التي سـبقـ القـول أنها كانت في العصور الـقديمة من أـنجح الوسائلـ في مـيادـينـ الإـعلاـمـ والتـربيةـ والتـعلمـ ومـيدـانـ العـلـاقـاتـ العـامـةـ .

ثـم إن القرآنـ الـكـرـيمـ نـزـلتـ آـيـاتـهـ حـسـبـ المـوـاـقـفـ وـالـحـوـادـثـ الـتـيـ مـرـتـ بالـرسـولـ ، يـسـترـشـدـ بـهـذـهـ الـآـيـاتـ الـتـيـ نـزـلـتـ بـهـ الـوـحـىـ فـكـلـ حـادـثـ منـ هـذـهـ الـحـوـادـثـ وـفـيـ كـلـ مـوـقـفـ مـنـ هـذـهـ الـمـوـاـقـفـ ، وـكـانـتـ بـعـضـ آـيـاتـ الـكـتـابـ تـنـبـيـءـ الرـسـولـ يـمـاـ سـيـحـدـثـ لـهـ وـلـأـخـابـهـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ ، وـكـانـتـ بـعـضـ آـيـاتـ الـكـتـابـ تـنـقـفـ الرـسـولـ عـلـ أـخـبـارـ الـمـشـرـكـينـ وـالـمـنـافـقـينـ وـمـاـ كـانـ يـدـبـرـهـ هـؤـلـاءـ وـهـؤـلـاءـ مـنـ الـمـؤـامـرـاتـ وـنـحـوـ ذـلـكـ ، كـمـاـ كـانـتـ بـعـضـ آـيـاتـهـ تـنـقـدـ حـالـةـ الـمـسـلـمـينـ فـكـثـيرـ مـنـ الـمـوـاـقـفـ الـتـيـ تـمـرـ بـهـمـ وـتـرـشـدـهـمـ إـلـىـ الـصـوـابـ فـيـ هـذـهـ الـمـوـاـقـفـ .

وـإـذـاـ نـظـرـنـاـ إـلـىـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ مـنـ جـمـيعـ هـذـهـ التـوـاحـيـ الـإـخـبـارـيـةـ وـمـاـ يـتـبعـ هـذـهـ الـأـخـبـارـ مـنـ نـقـدـ وـتـحـلـيلـ مـوـاـقـفـ الـمـسـلـمـينـ وـالـمـنـافـقـينـ وـرـسـمـ

الطريق الذى يسلكه المسلمون تجاه المنافقين ورسم الآداب الذى يجب على المسلمين أن يعاملوا بها الرسول : نقول إذا نظرنا إلى القرآن الكريم من هذه الناحية فقط أمكننا أن نعتبر هذا الكتاب المقدس صحيفه العهد الذى ظهر فيه الإسلام ، إذا صحي هذا التعبير ، ولكنها صحيفه من طراز آخر عتاز بالصدق كأحسن ما يكون الصدق وبالنزاهة فى التوجيه والارشاد كأحسن ما تكون النزاھة ، ولاغرو إنها صحيفه الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا .

وأهم من ذلك كله أن هذه الصحيفه الإلهيه كان لها الأثر كل الأثر فى خلق مجتمع جديد في الجزيرة العربية هو المجتمع الإسلامي الذى يختلف اختلافاً تاماً عن المجتمع الجاهلي . يدلنا على ذلك أنه أصبح للمجتمع الإسلامي الجديد على يد الرسول مجموعة من القيم والمفاهيم مخالفة كل المخالفة للقيم والمفاهيم التي كانت للعرب في الجاهلية ، وبعبارة أخرى أصبح مثل الأعلى للMuslimين على يد الرسول شيئاً مغايراً كل المغایرة للمثل الأعلى للعرب في العصر الجاهلي .

وقد سُئل المستشرقون من الغربيين هذه القضية بحثاً مستفيضاً ، وأفاد الأستاذ أحمد أمين من هذه البحوث في كتاب « فجر الإسلام » ، وقال : إن مثل الأعلى للرجل في الجاهلية كان يتمثل في الشعر العربي عامه وفي المعلقات بوجه خاص ، وقد صور طرفة بن العبد - وهو من شعراء المعلقات - هذا مثل الأعلى في الجاهلية بقوله :

ولولا ثلاثة هن من عيشة الفتى وربك لم أحفل متى قام عودي^(١)
ففهمن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تربد^(٢)

(١) معناه ولولا ثلاثة أشياء تقوم عليها حياتى لم أهتم متى جاء الأجل وتركنى جميع من يعودونى في المرض .

(٢) أول هذه الأشياء للثلاثة إسكان العاذلات والعدل للذين يلومونى على شرب الخمر المعقة التي يعلوها الزبد متى ما علاها الماء .

وتقسيم يوم الدجن والدجن معجب

ببهكة تحت الجباء المعهد(١)

وكرى إذا نادى المضييف مجنبا كسيد الغضا ذى السورة المتور(٢).

وليس شيك أن القارئ الحديث يجد صعوبة ما في قراءة هذه الأبيات الجاهلية ولكننا نطالب هذا القارئ الحديث بأن يفهم مغزاها وأن يرسم في ذهنه من خلالها صورة للمثل الأعلى للرجل العربي في الجاهلية.

وهي صورة رجل يقول أنه لا يعيش حياته إلا لغایات ثلاثة:

الغاية الأولى : شرب الخمر .

الغاية الثانية : قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الجميلة .

الغاية الثالثة : النجدة لكل من يستدرج به والهجوم على من يتبعى على هذا الضعف هجوم الذئب على فريسته ، والغاية الأولى هي التي عبر عنها البيت الثاني وهي شرب الخمر التي يعلوها الزبد متى علاها الماء ،

والغاية الثانية هي التي عبر عنها البيت الثالث - وهي الجلوس إلى الحسناء في اليوم الغائم تحت الخيمة القائمة على العمد ، والغاية الثالثة هي التي عبر عنها البيت الأخير وهي الارساع لنجددة الخائف أو الملهوف أو الضعيف ، ليقفز لنجدته كما يقفز الذئب الخنثى وراء الأشجار استعداداً للهجوم على.

(١) الدجن : الفم وبهكة ، المرأة الحسناء ، والمعد : القائم على أعدة ، والمعنى أن الشيء الثاني من هذه الأشياء الثلاثة التي أعيش من أجلها هو قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الحسناء في خيمة كبيرة ذات أعدة .

(٢) كرى : من الكر وهو البرى ، والمساف : اللاحچ أو المستدرج والجنبه (بكسر النون المشددة) المعنی من شدة الصفت أو الخوف وسيد النساء (بكسر السين) هو الذئب المخنث وراء الأشجار استعداداً للهجوم على فريسته . وذى السورة ، معناه ذو النسب الشديد . والمتمرد : أى الوارد على عجل .

والمعنى : إن الشيء الثالث من الأشياء التي أعيش من أجلها وثوبه لنجددة من يستدرج به كمامات به كمامات الذئب على فريسته .

فريسته بكل عنف . ذلك إذن هو المثل الأعلى للرجل العربي في العصر الجاهلي ،

أما المثل الأعلى الذي رسمه القرآن للرجل المسلم فإنه يظهر في آيات كثيرة ليس من السهل أن نحصرها ، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكراكم عند الله أتقاكم » ، ومعنى ذلك أن المثل الأعلى للرجل في الإسلام هو مخافة الله تعالى مخافة تحول بينه وبين معصية الله ورسوله ، وقوله تعالى يشرح معنى التقوى التي هي المثل الأعلى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغارب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والتبنيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموoron بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في اليساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

الحق لقد كان الإسلام في ذاته ثورة كبيرة ، وكان لا بد لهذه الثورة أن تكون مقرونة بطائفة من القيم الجديدة والمفاهيم الجديدة ، ومثل جديدة يقوم عليها المجتمع الجديد ، ويصبح بها مغايراً كل المعاير للمجتمع الذي سبقه إلى الوجود ، وهو المجتمع الجاهلي .

* * *

يقول الأستاذ توماس أرنولد في كتابه (الدعوة الإسلامية) (١) . إن دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر إليه الغريب نظرة مأواها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين . كما كانت تعلم حديث العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانت قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار . كان العربي يتباهى برد الشر بالشر ، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظره إلى كل نذل ضعيف .

(١) الدعوة إلى الإسلام ، تأليف أرنولد — وترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد الحميد عابدين ، وإسماعيل النحراري . الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨ ص ٦٢ .

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفى كيما يضر وينفعها
ولقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم أمثال هؤلاء بقول القرآن
ال الكريم « ادفع بالى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ول حميم » .

وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية من هؤلاء العرب الذين يوجه
إليهم محمد رسالته أول الأمر ، وكان من أشقر مراحل رسالته أن يوجه
تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق فلم يكن هذا الشىء معروفا لدى الوثنين من
العرب ، ولذلك لم يكونوا مهيبين كل التهديد لتلقى تعاليم الرجل ، ولم يعد هؤلاء
يحتملون هذه القيود التى جد الإسلام فى فرضها على حريةهم فالنهر والنساء
والغذاء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربى في الجاهلية ، وكان النبي
صلى الله عليه وسلم صارما شديدا في نواهيه الخاصة بكل منها .

وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذى يقوم على الدعوة
ويسعى بذنب قلوب الناس وتحويلهم إليه وحثهم على الدخول في زمرة
أصحابه .

كل ذلك بطبيعة الحال كان بفعل القرآن الكريم الذى وضع الأساس المتنين
للمجتمع الإسلامي الجديد ودعا محمد أصحابه إلى التعاون معه في هذا البناء .

* * *

وهدف آخر من أهداف القرآن الكريم ، في ميدان الدعوة لهذا
الدين الجديد، هو تحريض المؤمنين على قتال المشركين حتى ينطقووا « بشهادة
» أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » فإذا رفضوا أن يقولوها وجب
على المسلمين أن يقاتلوهم ، وهذا معنى قولنا في أول هذا الكتاب أن الإسلام
كان ثورة كبيرة ودعوة جديدة اعتمدت في نساجها على وسيطين كبير تين هما ،
الكلمة من جهة والسيف من جهة ثانية ، وقد اعتمد الرسول الكريم على
الكلمة وحدها في العهد المكى . فلما انتقل إلى المدينة المنورة أمره الله تعالى
بأن يعتمد عليها وعلى السيف معها .

ولعل من أخطر القيم أو المفاهيم التي بني القرآن عليها صرح المجتمع الإسلامي الجديد مفهوم الجihad في سبيل الله وهذا الجihad في ذاته من أكبر وسائل الإعلام والدعوة إلى الدين الجديد ، وكتاب الله زاخر بالسور والآيات التي تدعو المسلمين إلى القتال باعتباره إحدى الدعامتين اللتين قام عليهما الإسلام . من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما تستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترعبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفعوا من شيء في سبيل الله يوسف إليكם وأنتم لا تظلمون » ،

وقوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » ، ، إلخ ،

وقوله تعالى : « ولا تقولوا ملئ يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

وقوله تعالى : « إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

إن الروح المعنوية بين المسلمين كانت تعلو بهذه الآيات إلى الدرجة التي كانوا فيها يتتساقون إلى الموت في سبيل الله وإلى الدرجة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في غير عهد النبي ﷺ ،

* * *

إننا لانستطيع ولو حرصنا أن نخصى القيم والمفاهيم الجديدة التي أتى بها القرآن الكريم التي بني عليها النبي هذا المجتمع الإسلامي بناء سليماً ، ولكننا لا نستطيع أن نترك الكلام عن هذه القيم والمفاهيم دون الإشارة إلى مفهوم الشوري .

قال تعالى : « وَأُمُرُهُمْ شُورٍ بِيْنَهُمْ » معنى ذلك أن العصمة لا تكون لبشر ولو كان هذا البشرنبياً من الأنبياء أو رسولاً من الرسل ، ومحمد مخصوص من الخطأ في تبليغ الرسالة ولكنه ليس مخصوصاً عند الاجتهاد في الرأى .

أذن الرسول لبعض المنافقين بالتخالف عن غزوة تبوك فعاتبه الله على ذلك في قوله تعالى ، « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذْنْتُ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لِكُلِّ الدِّينِ صَدَقُوا وَتَعْلَمُ الْكَاذِبُونَ » .

الخلاصة :

إن النبي ﷺ كان على سمو منزلته ، وكمال عقله وخلقـه معرضـاً للخطأ لأنـه بشـر وـكان بـحاجـة إـلى الرـجـوع فـفي كـل أمرـ من أمرـه إـلى أـصحابـه يـقف عـلى آرـائهمـ ويـوازنـه بـینـها بـعـقولـه ، ثـم يـأخذـ بالـأـمثلـ في نـظـرهـ من هـذـهـ الآراءـ ، وـكانـ لاـ يـمـنـعـهـ خـطـأـ وـاحـدـ مـنـ أـصحابـهـ فـي الرـأـىـ مـنـ أـنـ يـعـودـ إـلـيـهـ بـالـشـوـرـةـ فـيـ المـرـةـ الثـانـيـةـ ، وـهـذـاـ مـاعـنـاهـ الـقـرـآنـ كـماـ سـيـقـ ذـكـرـ ذـكـرـ بـقـولـهـ تـعـالـىـ « فـاعـفـ عـنـهـمـ وـاسـتـغـفـرـهـ لـهـمـ وـشـاـورـهـ فـيـ الـأـمـرـ » .

الحق - لقد كانت حياة النبي من أول الرسالة إلى آخرها تشاوراً بينه وبين كبار الصحابة ، وكان النبي لا يهمـلـ معـ ذلكـ آرـاءـ غيرـ الكـبارـ منـ الصـحـابـةـ .

فـهـذـاـ رـأـىـ لـبـعـضـ الـمـسـلـمـينـ الـعـادـيـنـ يـظـهـرـ عـلـىـ بـقـيـةـ الـآـرـاءـ فـيـ غـزـوـةـ بـدرـ « فـقـدـ خـرـجـ رـسـوـلـ اللـهـ فـيـ ذـكـرـ الـيـوـمـ وـاخـتـارـ هوـ وـكـبـارـ الصـحـابـةـ مـوـضـعاـ مـعـيـنـاـ لـهـمـ وـلـبـقـيـةـ الـجـيـشـ ، فـقـالـ « اـلـحـبـابـ بـنـ الـمـنـدـرـ » لـرـسـوـلـ ﷺ : أـهـذاـ مـنـزـلـ أـنـزـلـكـهـ اللـهـ لـيـسـ لـنـاـ أـنـ تـقـدـمـهـ أـوـ تـنـأـخـرـهـ ؟ أـمـ هـوـ الرـأـىـ وـالـحـربـ وـالـمـكـيـدةـ ، فـقـالـ لـهـ رـسـوـلـ اللـهـ : بـلـ هـوـ الرـأـىـ وـالـحـربـ وـالـمـكـيـدةـ . فـقـالـ الـحـبـابـ : يـارـسـوـلـ اللـهـ - إـنـ هـذـاـ لـيـسـ لـكـ بـنـزـلـ فـإـنـهـضـ بـالـنـاسـ حـتـىـ تـأـقـيـ أـدـنـيـ مـاءـ مـنـ الـقـوـمـ فـتـنـزـلـ ، وـتـرـدـ الـأـبـارـ ، وـتـبـنـيـ لـنـاـ حـوـضـاـ نـمـئـهـ بـالـمـاءـ فـنـشـرـبـ وـلـاـ يـشـرـبـونـ ، فـفـعـلـ رـسـوـلـ اللـهـ مـاـ أـشـارـ بـهـ الـحـبـابـ :

وـفـيـ غـزـوـةـ الـخـنـدقـ أـوـ الـأـحـزـابـ أـشـارـ سـلـمـانـ الـفـارـسـيـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ

أن يحفر خندقاً حول المدينة ليذرأ عنها الخطر . فعمل الرسول بمشورته واشترك بنفسه في هذا الحفر .

وأنى الخلفاء الراشدون فأرسوا قواعد الشورى وكان أحدهم لا يقطع بأمر حتى يرجع فيه إلى أهل (الichel والعقد) من كبار الصحابة ، ومن ذلك أن اختيار أبي بكر أو عمر لعماهم (أي لأمراء الأقاليم) كان يقوم على أساس من تقديم الرأى أو تقديم المشورة . قال عمر ذات يوم لأصحابه (أشروا على ودلوني) على رجل أستعمله في أمر قد دهمني فقولوا ما عندكم فإني أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة «الربيع بن زياد الحارثي» فذشیر على أمير المؤمنين به فاستدعاه عمر فولاه ووفق في عمله وحقق ما أراد عمر .

* * *

وقيمة كبيرة ومفهوم عظيم من المفاهيم التي بني عليها القرآن بناء المجتمع الإسلامي الجديد – هو المفهوم الذي يتصل بعلاقة الحاكم بالحكم ، وهي علاقة تتلخص في أول كلمة قالها أبو بكر بعد توليه الخلافة : – «أطيعوني ما أطعت الله فيكم ورسوله فإن عصيتم فلا طاعة لي عليكم» ، وعلى نفس الطريقه سار عمر بن الخطاب في خلافته ، وهو القائل : « ومن رأى في اعوجاجاً فليقوه » فرد عليه أحد الجالسين في المسجد : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيفنا .

كان عمر بن الخطاب يستغل يوماً بتقسيم بعض الغنائم فإذا بعض الحاضرين يقف بينهم ليقول : اتق الله ياعمر ، فغضب الحاضرون لقوله هذا واستكثروا على أمير المؤمنين أن يقول له هذه الكلمة . فيما كان من عمر إلا أن قال لهم : دعوه يقولها فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ولا خير فيما إذا لم نقبلها منكم .

وهكذا قامت العلاقة بين الحاكم والحكم في الإسلام على هذه القاعدة ،

وهي قاعدة العدل ، فإذا وقع شيء من الجور – وإن كان قليلاً ، وجب على المسلمين أن يكلموا فيه الحكم ويمنعوه منه فإن اقتضى ورجح إلى الحق وأقام الحدود فلا يخلع ولا يخلعه ، وإن امتنع عن إقامة الحدود وجب خلعه وإقامة غيره من يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (١) .

وهل نستطيع أن نترك القيم القرآنية والمفاهيم الإسلامية دون أن نقف وقفه عابرة عند مفهوم التكافل الاجتماعي . ولعل من مظاهر التكافل الاجتماعي في الإسلام علاقة المسلم بال المسلم وعلاقة المسلم بالجامعة وعلاقة الرجل بزوجته وعلاقة الفرد بأفراد أسرته ، وقد حضن القرآن والحديث جميع المسلمين على أن يتنازلوا عن بعض حقوقهم لمصلحة الآخرين ، بل يتنازلوا عن حريةهم الفردية في سبيل الجماعة ، ومن الشواهد على ذلك في الإسلام نظام الوراثة ، وذلك بين الأصول والفروع بلغة الفقهاء ، أو بين الأقارب – أقارب العصب ، وأقارب الحواشى ، فنظام التوارث عبارة عن التكافل الاجتماعي ، بين الأجيال المتعاقبة وبين أفراد الأسرة الواحدة ، وهو نظام يقول به العرائز الإنسانية ، وتحتممه الضرورات الاجتماعية ، وتشجع عليه محنة الآباء لأنبائهم .

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ لأن ترك ورثتك أغنىاء خير من أن تركهم عالة يتکفرون الناس . إن نظام التكافل الاجتماعي يجب على كل فرد في المجتمع الإسلامي مراعاة صالح الجماعة التي يعيش فيها كمراعاة صالح نفسه سواء بسواء . قال رسول الله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض) .

وقال رسول الله ﷺ . « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينه فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصبيانا

(١) ابن حزم ، في الملل والنحل ج ٤ ص ١٧٦ إلى ١٧١ :

خرقاً ولم تؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن
أندروا على أيديهم نجوا جميعاً» (١) :

لقد حث القرآن كما حض الحديث على أن يرعى كل مسلم مصلحة
الMuslim سواء كان أخيه أو أبوه أو أمه أو أخيه أو زوجته أو خادمه ، ولا
أدل على هذا المعنى الأخير من معانٍ التكافل الاجتماعي الذي دعا إليه
القرآن والحديث من قوله ﷺ . «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» .

أجل لستنا في مقام الإحصاء الدقيق للمفاهيم الجديدة التي أتى بها القرآن
الكرم ، ولكننا نلام إذا أهملنا الحديث عن «مفهوم المساواة في الإسلام»
على النحو الذي شرحه لنا الكتاب الذي نزل على النبي ﷺ .

والإسلام دين جاء بتحريم التفرقة العنصرية أو الجنسية أو التفرقة على
أساس المال أو الجاه أو السلطان ونحو ذلك .

والرسول نفسه - رغم أنه المثل الأعلى في سمو الأخلاق بشهادة القرآن
الكرم كان بحاجة إلى طريقة ترشده أو درس يتعلمها في هذا المفهوم
الجديد ، وهو مفهوم المساواة ، وقد تولى القرآن إرشاده إلى هذا المعنى
وأعطاه هذا الدرس ، يدلنا على ذلك حادثان حدثاً للرسول الكريم في
حياته بمكة .

الأول : حكايته مع الأعمى ، فقد كان الرسول يدرك جيداً أنه إذا
نفع في إقناع السادة والأشراف من قريش بصدق دعوته جاء إقناع بقية
أهل مكة وبقية الأفراد في القبائل العربية بهذه الدعوة ، وهي حقيقة من
الحقائق التي يعترف بها (رجال الاعلام) . وما زال يؤخذ منها إلى يومنا
هذا ، وقد كان الرسول مشغولاً في يوم من الأيام بإقناع بعض السادة
من قريش ، وإذا ذاك دخل عليه شاب أعمى من فقراء مكة يقال له
(عبد الله بن أم مكتوم) وسأل الرسول أن يعلمه مما عالمه الله . فيما كان

(١) روى هذا الحديث بصورة كبيرة ، وكلها ترمي إلى معنى الحرية المحدودة بحدود
المسؤولية الاجتماعية والتكافل الاجتماعي :

من الرسول — يحكم أنه بشر — إلا أن عبس في وجهه وهو يعلم علم اليقين أن هذا الشاب لم ير شيئاً من هذا العبوس ، غير أن السماء رأت هذا العبوس من النبي ولامته عليه ، وفي هذانزلت سورة عبس (عبس وتولي ، أن جاءه الأعمى ، وما يدركك لعله يزكي ، أو يذكر فتنفعه الذكرى) أما من استغنى ، فأنت له تصدقى ، وما عليك ألا يزكي ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى : فأنت عنه تلهى) .

والثاني : من هذين الحادفين اللذين وقعوا بمكة ، أن نفرا من أشرافها وسادتها ذهبوا إلى رسول الله في مجلسه وصارحوه بقولهم : يا محمد إننا نريد أن نستمع إليك وننظر في دعواتك ولا يعنينا من ذلك إلا جلوسك إلى هؤلاء العبيداء الذين يحيطون بك وهؤلاء الفقراء الذين لا يليق بنا أن نجلس معهم جنباً إلى جنب ، وقد جئنا إليك لتذير لنا مجلساً لا يكون فيه واحد من هؤلاء الفقراء أو العبيد ، ولحرص النبي على أن يؤمن بدعوه سادة قريش وسراتهم وقد تهيبوا — في نظره — لشيء من ذلك ، ولأن عمر بن الخطاب استحسن هذا الرأي وأشار على النبي بأن يعمال به من أجل الدعوة ، أظهر النبي لهم شيئاً من القول . لهذا أجمعوا على طلبه وكاد يهيء لهم هذا المجلس بالصورة التي سألوها منه ، ولكن السماء لم تسمح بهذه الصورة التي تم عن التيزير بين البشر على أساس لا يرضاه الإسلام فلا يميز بين الناس إلا على أساس التقوى .

ولذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى مخاطباً الرسول :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشاء يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ت يريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطبع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . إنما اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها » : إلخ (١) .

من هذه الآيات وأمثالها تعلم الرسول — وتعلم الصحابة — كيف تكون

المساواة التي يدعوا إليها القرآن فهمارسها الرسول في حياته ، ومارسها الصحابة في حياتهم ، ونجح الجميع في تثبيت هذه الصورة في أذهان المسلمين ، وتاريخ الصحابة حافل بالأمثلة على هذه الحقيقة وإن كان عمر أشدهم استمساكاً كاً بهذه المساواة على أكمل صورها — كما شهد بذلك التاريخ ، وربما أتينا بشهادت علـى ذلك عند الكلام في عهد عمر بن الخطاب في الباب الرابع من أبواب هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى .

* * *

وأخيراً نأتي إلى مادة من مواد الإعلام في القرآن ، ونعني بها المادة التي تتحدث عن الجنة والنار ، وفيها أوصاف كثيرة لما أعده الله لعباده المؤمنين من نعيم كبير في الجنة ، وما أعده الله تعالى للكافرين من العذاب في النار .

والجنة والنار واليوم الآخر أو يوم الحساب كلها أمور غيبة أخبر بها الرسول الكريم وعنiet بها الكتب السماوية كلها على السواء ، وليس هذا هو موضوع بحثنا الآن ، ولكن موضوع البحث هنا هو (القيمة الإسلامية) لهذه الأوصاف التي وصف بها القرآن — بنوع خاص — كلا من الجنة والنار ، فإلى أي حد تأثر المسلمون بهذه الأوصاف ؟ وإلى أي حد ترك ذلك أثره في سلوكهم مع الرسول ومع الصحابة إذ ذاك ؟

من الصعب علينا في الواقع أن نخصى الآيات التي جاءت بأوصاف الجنة والآيات التي جاءت بأوصاف النار ، ولكن يمكن أن نذكر أن من أوصاف الجنة أنها كبيرة ومتعددة (عرضها كعرض السموات والأرض) وأنها تحوى من أنواع النعيم والملذات (ملاعين رأت ولا أذن سمعت ولا لاحظت على قلب بشر) فيها حور عين ، ولدان محملون ، وأكواب وأباريق وكأس من معين ، وأنهار من لبن وأنهار من عسل مصنف ، وغير ذلك مما تشتمى النفس البشرية من ألوان الشراب والطعام إلى آخر هذه الأوصاف التي حفل بها القرآن الكريم والتي قلنا إننا لا نستطيع ولو حرصنا أن نخص بعضها في هذا الفصل ، ترى ماذا كان لهذه الأوصاف من أصداء في

نفوس المسلمين منذ قرآن عليهم الرسول هذه الآيات ؟ لقد أخبرنا التاريخ أن المسلمين الذين سمعوا هذه الآيات تبدل حرصهم على الحياة وتقديرهم لها سخريه بهذه الحياة ويعاها في سبيل الله تعالى ، وهذا هو السبب الذي من أجله تسابق المسلمون الأولون في ميدان الاستشهاد أو الجهاد في سبيل الله .

ولماذا لا يتتسابقون إلى ذلك ! ألم يعدهم الله بأنهم سينتقلون من هذه الحياة الدنيا إلى حياة أفضل منها ، وأنهم سيبدلون بهذه الأعمار القصيرة أعمارا طويلا لا يذوقون فيها طعم الموت ولا طعم العذاب الذي وجدهم في الدنيا ؟

إن رجل الإعلام إذا نظر إلى هذه المادة من مواد القرآن وإلى التأثير الذي أحدثه في نفوس الناس عندما أصبحت هذه المادة جزءاً من نسيج عقولهم شيئاً يمتزج بأرواحهم ودمائهم لا يتحقق له أن يهمل الحديث عنها أو التنبؤ بها ، والتاريخ حافل بالآلاف الشواهد على المسلمين والمسلمات وعلى الرجال والصبيان الذين يتتسابقون إلى الاستشهاد في سبيل الله حتى لقد أقبل على الجهاد من أفاءهم الله من عباء الجهاد ، فقد قال الله تعالى (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) ومع ذلك فقد كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج وله أربعة أولاد وكان لهم جميعاً شرف الغزو مع رسول الله فلم يكتتف أبوهم بذلك حتى ذهب واستأند زرسول الله في أن يخرج مع أولاده للغزو ليكون له شرف الاستشهاد في سبيل الله فأحاله الرسول إلى قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج) وألح الرجل أن يخرج إلى الغزو في سبيل الله وهو أعرج فلم يسع رسول الله إلا أن أذن له .

وبحديثنا التاريخ كذلك عن أمهات وزوجات كن ينافسن أولادهن وأزواجهن على بلوغ هذا الشرف ، حتى لقد كانت واحدة من أولاء تدافع عن الرسول في غزوة أحد ، وقد أحدق به المشركون برياديون

قتله ، وكانت الفرصة مواتية لهم للإقدام على هذا العمل ولكن قوة الإيمان عند بعض الصحابة إذ ذاك ، ومنهم هذه السيدة – هي التي حمت الرسول من هذا المصير :

وقل مثل هذا في كثير من الصبية الذين تطوعوا للقتال في صف الرسول قبل أن يبلغوا الحلم ، ويقدروا على حمل السيف أو الرمح ، وكان الغلمان والصبية يفعلون ذلك بوازع من ضمائرهم وإيمانهم أولاً ، وبدافع من أهمياتهم المسلمات بعد ذلك .

ولا يسمح لنا الحال في هذا الفصل أن نسترسلي في ضرب الأمثلة والإتيان بالشاهد الشكيرة التي تدل دلالات كبيرة على القيمة الإعلامية لهذه المادة من مواد القرآن – ونعني بها الأوصاف الممتعة أو المذهلة التي وصف بها الجنة والنار :

وهكذا نرى أن القرآن الكريم كان ضرباً رائعاً من ضروب الإعلام على يد رسول الله الكريم ، بما أتى به من قيم ومفاهيم جديدة تختلف كل الاختلاف عن القيم والمفاهيم في عصر الجاهلية : بل كان من أنجح وسائل الإعلام في الإسلام على وجه الإطلاق .

الفصل الثاني الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية

كان رسول الله ﷺ عالم هذه الأمة ، وكان قبل ذلك داعية لهذا الدين الذي دخلت فيه هذه الأمة ، ومن أجل هذا حملت خطب النبي ﷺ وأحاديثه طابع في وقت معًا ، وهذا :

- ١ - طابع التعليم والإرشاد والهدایة ،
- ٢ - طابع التبشير والدعوة أو الدعایة ،

والطابع الأخير هو الذي يعنينا في هذا الفصل ، ولعل أكبر شاهد على هذا الطابع أحاديثه ﷺ في موضوع الجهاد ، والجهاد كان ولايزال من أقوى وسائل الدعوة الإسلامية ومن أعظم أسباب انتشارها — كما نعلم ، ومن أبواب الفقه الإسلامي باب يسمى بباب الجهاد — نوع فيه الفقهاء بأجر المهاجرين في سبيل الله ، واعتمدوا في ذلك على كثير من آيات الكتاب الكريم وعدد عظيم من الأحاديث النبوية .

وفي كثيـر الحديث طائفة صالحة من كلام الرسول في هذا الباب ، فإذا وجدنا إلى كتاب « مفتاح كنوز السنة » للعالم الهولندي ونسٹك^(١) وجـدنا للبخاري خمسة وخمسين حديثاً في هذا المعنى . ولمسلم تسعة وستين « ولترمذى خمسة وأربعين ، ولأبي داود ثمانية وثلاثين . وللنسائى واحداً وخمسين . ولابن ماجه اثنين وثلاثين .

و هؤلاء هم أشهر من جمعوا حديث رسول الله ﷺ ، وهم خير من تحرروا في جمعه كل الصدق والدقة وتحملوا في سبيله كل ما يمكن أن يتضوره من تعب وكد ومشقة .

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي ، راجع باب الجهاد في هذه الترجمة ص ١٢٩ .

ومن هذه الأحاديث على سبيل المثال (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، والروحية يروحها العبد في سبيل الله أو العدو خير من الدنيا وما عليها) .

ومنها : (إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهد في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض) .

ومنها : جاء رجل إلى النبي صلى عليه وسلم فقال : « يارسول الله ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أحذنا يقاتل غصباً ويقاتل حمية ، فرفع إليه النبي عليه السلام رأسه وقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل » .

وفي الحديث الأخير ما يدل على اختلاف مفهوم القتال في الجاهلية عنه في الإسلام . فالقتال في الجاهلية عن حمق وحمية وعصبية ، والقتال في الإسلام عن رغبة صادقة في إعلاء كلمة الله واعتقادا بوجوده ، ومن أحاديثه صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغزو أو يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق » .

· وخرج رسول الله على جماعة من المسلمين فيهم ابن عباس . فقال : (لا أخبركم بخير الناس منزلة ؟ قالوا : باي يا رسول الله . قال : رجل مسلك برأس فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يقتل) .

ومن أحاديثه عليه السلام في هذا المعنى كذلك : (من شاب شيئاً في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيمة) .

ومن أشهر أقواله عليه السلام (الجنة تحت ظلال السيف) .

* * *

الحق أن كل واحد من هذه الأحاديث وأمثالها كان بمثابة « شعار » للثورة الجديدة التي أتى بها الإسلام ، ونحن نعلم أنه لا غنى لكل ثورة عن الشعارات ، ووظيفة الشعار في كل ثورة هي تلخيص العمل الذي سجّلت من أجله أو الأفكار التي أتت لإعلانها والمناداة بها ، ومن أجل

ذلك نرى كل زعيم من الزعماء في كل ثورة من الثورات يجتهد في صياغة هذه الشعارات ويحاول بعد ذلك أن يردها ، ويكثر من ترددها بين الناس حتى يحفظها الناس عن ظهر قلب . وبذلك تصبيع لهذه الشعارات قدرة كبيرة على الإيحاء ، وعليها يعتمد الزعماء في إذكاء شعور الجماهير وفي سرعة اعتناقهم للفكرة الجديدة أو العقيدة الجديدة أو الدعوة الجديدة .

من أجل هنا وجدنا في أحاديث الرسول الكريم مادة قوية تصالح لكل ثورة من الثورات الإسلامية ، فلم يكن يمر بال المسلمين عصر من العصور يتقللون فيه من دور إلى دور ، أو من نظام إلى نظام ، ومن خلافة إلى خلافة أو من ملك إلى ملك : أو من مذهب إلى مذهب إلا واعتمدوا فيه اعتماداً قوياً على الأحاديث النبوية ، وأخلوا منها ما يتفق ودعتهم أو فكرتهم ومذهبهم ، ذلك أن الشعب الإسلامي لا يسمح حديثاً من أحاديث النبي ﷺ إلا وترك في نفسه من الأثر العميق مالا تتركه وسيلة أخرى من وسائل الاعلام أو الإرشاد وذلك باستثناء القرآن الكريم .

وهذه حقيقة ثابتة لا تحتمل الجدل ولا يرقى إليها الشك .

ألا ترى أن الأئمة في جميع المساجد بالبلاد العربية في وقتنا هذا يسلحون أنفسهم ويماؤن خطبهم بمثل هذه الأحاديث في معنى الجهاد ضد إسرائيل؟ ولو خلت خطبة من الخطب الدينية من بعض هذه الأحاديث النبوية قلت قيمتها وانصرف الناس عنها .

ولنستطرد قليلاً فنقول إنه لعل من أبرز الأدلة التاريخية على استغلال الأحاديث النبوية ما قامت به الخلافة الأموية ، ثم الخلافة العباسية ، ثم الخلافة الفاطمية ، من الاعتماد في دعايتها السياسية على هذه المادة .

وسنكتفي هنا بضرب المثل بما فعلته الخلافة الأموية وبما قامت به هذه الدولة من الدعاية القوية ضد الإمام علي بن أبي طالب . فقد روت لنا بعض الكتب الأدبية أن الدولة الأموية حملت إلى تحريف الأحاديث أو إلى

اختلافها وإسنادها إلى رواة ثقات حتى يصدقها الناس فور سماعها مسندة
إلى أولئك الرواة .

ومن هذه الأحاديث التي يشتم منها أنها موضوعة لغرض من الأغراض
حديث فيه طعن ظاهر على الإمام على بن أبي طالب : (روى عن عروة
ابن الزبير أنه قال : حدثني عائشة أم المؤمنين أنها قالت : كنت عند رسول
الله ﷺ إذ أقبل العباس ، وعلى ، فقال النبي ﷺ يا عائشة إن هذين (يشير
إليهما) (يعوتون على غير ملئي) (١)) :

وأغرب من هذا وذاك أن في هذه الكتب رواية عن معاوية بن أبي سفيان
تقول إن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم ليقرأ الآية الكريمة «
« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في
قلبه وهو ألد الخصوم ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويمثل الحرج
والنسل ، والله لا يحب الفساد » وأمره معاوية أن يقول إنها نزلت في على (٢)
ثم أمره معاوية بعد ذلك أن يقرأ الآية :

« ومن الناس من يشري نفسه ابتغا مرضاطات الله » ويقول إنها نزلت
في عبد الرحمن بن ملجم قاتل على ، ولكن الفقيه سمرة بن جندب لم يقبل ذلك ،
فبذل له معاوية مائة ألف درهم فلم يقبل ، فبذل له معاوية أربعين ألف درهم
قبل ، وكان لكل شرف نقطة انتصار - كما يقول الإنجليز - ودرجة
الانتصار عند هذا الفقيه وصلت إلى هذا الرقم ، ومن حق المؤرخ أن يشك
في هذه الروايات وأمثالها - مما نسجه الخيال حول معاوية ولكنها في نظر
رجل الإعلام والدعابة لا تخلي مطلقاً من دلاله ، وهي أن رجال السياسة
في تلك العصور كانوا يلجأون إلى طرق كثيرة لكسب الجماهير إلى جانبهم ،
ومن هذه الطرق تفسير القرآن بما يناصر دعوتهم .

ومن هذه الطرق أيضاً تحريف الأحاديث أو اختلافها بحيث تدخل

(١) كتاب شرح النجج لأبي الحميد ج ١ عن ٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٥٨ .

فِي رُوْءِ الْجَاهِيرِ أَنَّ الْقَادِةَ أَوَ السَّاسَةَ عَلَى حَقٍّ وَأَنْ خَصْوْمَهُمْ عَلَى باطِلٍ
وَهُنَّا يَظْهَرُ الْفَرْقُ وَاضْعَافًا بَيْنَ الدِّعَايَةِ الْبَيْضَاءِ وَالدِّعَايَةِ السُّودَاءِ .

فَالدِّعَايَةِ الْبَيْضَاءِ تَقْوُمُ عَلَى أَهْدَافٍ شَرِيفَةٍ وَتَسْتَعِنُ عَلَى غَايَاتِهَا
بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ .

أَمَّا الدِّعَايَةِ السُّودَاءِ فَإِنَّهَا تَبِعُ لِنَفْسِهَا تَحْرِيفَ الْأَحَادِيثِ وَاخْتِلاَقُهَا
وَتَفْسِيرَ الصَّحِيحِ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي قِيلَتْ فِيهِ :

وَقَدْ كَانَ مَعَاوِيَةً يَحْسَسُ قَوْيَيَاً بِحَاجَةٍ إِلَى تَثْبِيتِ مَلْكَهُ وَتَأْيِيدِ
سُلْطَانِهِ وَالْدِفاعَ عَنْ هَذَا السُّلْطَانِ ضَدَّ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الرَّهِيبَةِ الَّتِي لَا يَمْكُنُ
التَّغَلُّبُ عَلَيْهَا بِالْطَّرْقِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَهِيَ شَخْصِيَّةُ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

فَنَحْنُ وَإِنْ كَنَّا لَا نُنْهِيُّ إِلَى تَصْدِيقِ الْرَوَايَاتِ الَّتِي نَقَلَّنَاها عَنْ أَبِي أَبِي
الْحَدِيدِ فَإِنَّا نَضْعُ فِي اعْتِبَارِنَا مَعْنَى لَامْفَرْ مِنْهُ وَهُوَ كَراَهِيَّةُ الشِّيَعَةِ لِمَعَاوِيَةِ بْنِ
أَبِي سَفِيَّانٍ ، وَمِنَ الْجَائزِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْكَراَهِيَّةُ هِيَ الَّتِي حَمَلُوهُمْ عَلَى نَسْبَةٍ
هَذِهِ التَّصْرِفاتِ إِلَى مَعَاوِيَةَ .

مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُ إِذَا صَحَّتْ هَذِهِ الْرَوَايَاتِ فَإِنَّهَا تَذَكَّرُ رَجُلٌ
الْإِعْلَامُ وَالدِّعَايَةُ بِالْمُسَاوِمَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ أَحْيَانًا بَيْنَ بَعْضِ أَهْلِ الصَّحْفِ
مِنْ جَهَةِ وَكِبَارِ الْمَعْلِمِينَ وَالسَّاسَةِ الْمَغْرِبِينَ مِنْ جَهَةِ ثَانِيَةٍ :

فَإِذَا جَاءَ أَحَدٌ مِنَ السَّاسَةِ أَوِ الرَّأْسَمَالِيِّينَ وَعَرَضَ عَلَى صَاحِبِ جَرِيدَةٍ
مِنَ الْجَرَائِدِ مَائِةً جُنْيَهٍ لِكَيْ يَتَنَازِلَ عَنْ نَشْرِ مَقَالٍ مِنَ الْمَقَالَاتِ الَّتِي تَحَارِبُ
سِيَاسَتَهُ أَوْ تَضُرُّ بِرَأْسَمَالِهِ فَإِنَّهُ لَا يَقْبِلُ هَذَا الْمَبْلَغُ ، فَإِذَا عَرَضَ عَلَيْهِ السِّيَاسِيُّ
أَوْ الْمَعْلِمِيُّ مَائِتَيْنِ فَإِنَّهُ لَا يَقْبِلُ أَيْضًا وَتَمْضِيَ الْمُسَاوِمَةُ بَيْنَهُمَا حَتَّى يَعْرَضَ
السِّيَاسِيُّ أَوْ صَاحِبُ رَأْسِ الْمَالِ مَبْلَغاً يَقْرَبُ مِنْ أَلْفِ جُنْيَهٍ فَإِنَّ صَاحِبَ
الْجَرِيدَةِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ يَقْبِلُ ؛ وَهُنَّا هُوَ سُلْطَانُ رَأْسِ الْمَالِ عَلَى الصِّحَافَةِ
وَبِهِذِهِ الطَّرِيقَةِ كَانَ الْمُلُوكُ وَالسَّلاطِينُ وَالْمُخْلِفَاءُ فِي بَعْضِ عَصُورِ الْإِسْلَامِ
يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْفَقَهَاءِ وَهُمُ الَّذِينَ يَمْثُلُونَ الرَّأْيَ الْإِسْلَامِيَّ يَسْتَعْبِدُونَهُمْ بِالْمَادِدَةِ
وَيَشْتَرِئُونَ ضَمَائِرَهُمْ بِالْمَالِ وَيَسْتَخْدِمُونَهُمْ لِتَحْقِيقِ أَغْرِاضِهِمْ بِمَثْلِ هَذِهِ الْطَّرِيقَةِ .

ولأن الفقهاء في تلك العصور الماضية كانوا كالصيحيين في الوقت الحاضر ، منهم من كان له ضمير حي وخوف صحيح من الله ورعايته تامة لمصالح الرعية وشجاعة نادرة في مواجهة السلطان ، ومنهم من كان رقيق الدين غير مكترث بمصالح المسلمين فهو لا يرغب في أن يقوم بالواجب الذي فرضه عليه الدين والضمير .

* * *

لقد استطعنا في الكلام عن الأحاديث النبوية وطرق استغلالها في الأمور السياسية لنقدم الأدلة الواضحة على أن لها قدرة دعائية ازدادت مع الأيام قوة .

غير أننا يجب أن نقول في هذا الفصل أن الأحاديث النبوية كانت تتماشى مع الدعوة الإسلامية ومع القرآن ، وذلك في عهد الرسول وفي عهود الخلفاء الراشدين ، وأنها كانت قوة هائلة في نشر الدين والعمل بالقرآن وذلك ، على الوجه الذي لا نظير له في أيام فترة أخرى من فرات الإسلام .

ذلك أن الرسول ﷺ كان في جميع أحواله ، وفي كل ما ينطق به من أقوال وأحاديث يمثل القرآن الذي نزل عليه وصدقته السيدة عائشة أم المؤمنين حين سئلت عن خلق الرسول فقالت ﷺ « كان خلقه القرآن » .

ونخت الكلام عن الحديث بهذه العبارة التي أوردتها الأستاذ(1) أحمد أمين وفيها ، يقول : وبعد — فقد كان للحديث — سواء منه ما كان صحيحًا أو موضوعاً — أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الإسلامي . فقد أقبل عليه الناس يتدارسونه إقبالاً عظيماً وكانت الحركة العلمية في الأمصار تقاد تدور عليه ،

وعن طريق الحديث انتشرت في العالم الإسلامي أنواع من الثقافة

(1) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٧٦

عدة : فالتأريخ الإسلامي بدأ بشكل الحديث . . وقصص الأنبياء وما إليهم جاءت في القرآن وتوسع فيها أصحاب الحديث . ثم توسع فيها القصاص ، وظهر القصاص ومعه الحكم وقواعد الأخلاق وشيء من فلسفة اليونان . والهند والفرس ، ووضعت كل هذه المواد وضعًا في الحديث وانتشرت بين الناس على أنها دين . فكان لها من الأثر في الناس ما ليس للتعاليم الدينية . وفوق ذلك كان الحديث منبعاً للتشريع والمسائل المدنية والجنائية . وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة لعلم ولثقافة في ذلك العصر .
أجل ، كان الحديث أوسع مادة لعلم ولثقافة وقد أثبتنا في هذا الفصل كيف أن الحديث كان — إلى جانب هذا وذلك — أوسع مادة للدعابة . فقد اعتمد عليه الحكماء في الترويج لسياستهم ; كما اعتمد عليه أهل المذاهب الدينية لنشر مذاهبهم ، ومن هنا كثُر فيه الوضع ، وذلك تبعاً لكثرتهم الدواعي التي دعت إلى هذا الوضع .

الفصل الثالث القدوة الحسنة

والقدوة الحسنة مبنية على غريزة من غرائز الإنسان هي غريزة التقليل أو المحاكاة ، ولهذه الغريزة الإنسانية تأثير فعال في ميدان الإعلام وميدان الإعلان وميدان التربية والتعليم على السواء ، ولذلك يعتمد عليها رجال هذه الميدان كلها بدون استثناء ، فالمربون والمعلمون في جميع مراحل التعليم يسوقون إلى الشباب أمثلة كثيرة للبطولة والأبطال . وذلك في كل مجال من مجالات العمل والكفاح ، كمجال العلم و المجال الكشف ، و المجال الأدب ، فضلا عن مجال الحرب والجهاد .

والمعلونون ورجال التسويق يجذبون الناس إلى بضماعهم بطرق الإعلان المختلفة ، ومنها طريقة الترغيب في هذه السلعة أو تلك – ولتكن نوعاً من المسووجات بأن فلاناً من العظاء أو اللامعين في المجتمع يؤثرونها على غيرها من الأنواع الأخرى .

ورجال الإعلام – هم الذين يقومون بتزويد الناس بالحقائق السليمة والمعلومات الصحيحة – ينظرون إلى القدوة الحسنة على أنها وسيلة من وسائل الإعلام تغنى في ذاتها عن بذل الجهد الإعلامية في سبيل دعوة ينشرونها أو فكرة يدعون إليها أو عقيدة أو سياسة جدية ينشرون بها ونحو ذلك ، وسرى في تاريخ الإعلام في صدر الإسلام أن الرسول عليه الصلة والسلام ، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كان من أنجح أسلوبهم في نشر الدعوة الإسلامية أسلوب (القدوة الحسنة) .

وفي ذلك يقول القرآن السكريم « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » وهذا ما فعله الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، ثم هذا ما فعله بقية أصحاب الرسول من أمثال

عبد الرحمن بن عوف وغيره من كانوا مثلاً أعلى في مجال القدوة الحسنة ، ولا يبالغ إذا قلنا أن تاريخ الرسول والخلفاء الراشدين من بعده و تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم كان ينحصر في هذا المعنى .

لقد أثبتت التاريخ أن الرسول كان مضرب المثل في معاملة المسلمين . وغير المسلمين .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم في صفة الرسول « وإنك لعلى خلق عظيم » ، كما أثبتت التاريخ أن كل واحد من صحابة الرسول كان مضرب المثل في القيم الجديدة التي دعا إليها الدين الجديد ، وفي تحقيق الأهداف التي رسماها الرسول .

أجل – فأبو بكر – وكان رجلاً مرموقاً في الجاهلية – حين دخل الإسلام – وهو أول من دخله من الرجال وهذا حلوه كثيرون من أصحاب رسول الله ، فدخلوا معه هذا الدين الجديد ، كان قدوة حسنة ، أبو بكر الصديق حين رأى ما عاناه العبيد من العذاب الشديد على أيدي سادتهم الذين لم يسمحوا لهم بدخول الإسلام اشترأهم بماليه الخاص ، ثم أعتقدم وتركتمهم أحراضاً في اعتناق الإسلام ، نقول : أبو بكر حين فعل هذا كله كان بلامبلا قدوة حسنة ،

و عمر بن الخطاب حين سمع بأن أخيه استجاب بطلب الدعوة محمد عليه الصلاة والسلام غصب لذلك وحمل سلاحه واقتصر عليهم بيتهما يريد أن يقتلها فوجدها تقرأ في صحفة في يدها بعض آيات الكتاب فأخذ الصحفة من يدها وقرأ ما فيها فتأثر قلبه ووضع السلاح من يده وذهب مسرعاً إلى الرسول – وكان يومئذ في دار الأرقام – ودق الباب بعنف فخرج رسول الله بنفسه وحاول أن يبعده عن الدار ، فأعلن عمر إسلامه وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فصاح الجميع ! الله أكبر ! الله أكبر ، نقول : عمر حين فعل هذا كله كان بلا ريب قدوة حسنة .

وعثمان بن عفان حين تبرع بكل ماله لتجهيز حملة أو غزوة من غزوات

الرسول ، فقال له الرسول الأعظم : وماذا أبقيت لأولادك يا عثمان ؟ قال له أبقيت لهم الله ورسوله ، نقول إن عثمان بن عفان حين فعل هذا كله كان بدون شئق قدوة حسنة .

وعلى بن أبي طالب حين نام في مكان الرسول ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة وخطرت بنفسه وروحه ودمه في تلك الليلة وممكن الرسول وصاحبها أبا بكر من الخروج في جنح الليل وجندود المشركين رابضون على باب المنزل ، نقول : إن على بن أبي طالب حين فعل كل هذا كان بلا ريب قدوة حسنة ، وقل مثل هذا في بقية صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونخص بالذكر منهم العشرة المبشرين بالجنة وهم : أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، وطلحة ، والزبير ، عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد بن معاذ ، وأبو عبيدة بن الجراح ، والذى لا شئق فيه أن النبي ﷺ بشرهم بالجنة حين رأى بنفسه وسمع بأذنه أن كل واحد منهم كان قدوة حسنة .

ويطول بنا القول لو أخذنا نذكر الأمثلة التي ضربها كل واحد من هؤلاء في مجال القدوة الحسنة وليس ذلك غاية لنا في هذا البحث ، لأن مجاله كتب التاريخ والسيرة وغيرها . المهم أن الرسول وأصحابه ينجزوا في ممارسة هذه الوسيلة من وسائل الإعلام والتأثير في نفوس الجماهير كان نجاحهم في الوسيلة لا يقل عن نجاحهم في الغزوات والبعثات وغيرها من الوسائل الإعلامية الأخرى ، وهكذا نجد أن الإسلام قام في حياة الرسول على درقة أبي بكر وعلى حزم عمر وعلى بذل عثمان وعلى فدائيه على بن أبي طالب ، إذ كل واحد من هؤلاء الأربعـة كان أمـة وحدـه في مجال القدوة الحـسنة وهي القدوة التي اقتدى بها بقية الصحابة أولاً . كما اقتدى بها المؤمنون الأوائل بعد ذلك ، وجميع هؤلاء كانوا قدوة حسنة في الجهد في سبيل الدين ، وذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

القدوة الحسنة وصاحب الدعوة

ولكن مما لا شك فيه أن المثل الأعلى في القدوة الحسنة إنما كان يتمثل في الرسول نفسه ﷺ فقد كان المثل الأعلى في الصبر ، ولذلك تكرر له الأمر من الله تعالى بالصبر وخاصة في العهد المكى قال تعالى : في سورة(ن) وهي السورة الثالثة في تاريخ النزول « فاصبر لحکم ربک » إلخ ٠

وقال تعالى في السورة الرابعة في تاريخ النزول وهي سورة المزمل « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً » ، والمدقق في السورة النبوية يرى أن النبي ﷺ التزم خطبة الصبر في نشر الدعوة وكان أكثر ما صبر عليه في الحقيقة أمران هما :

١ - أذى المشركين في مكة .

٢ - وال Herb الباردة بينه وبين المنافقين في المدينة .

أما أذى المشركين في مكة فقد ضاق به صدر الرسول عشر سنوات كاملاً ذلك لأنه كان شديداً في حرص على هدايهم . ونزل عليه قول القرآن الكريم « إأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » ونزل عليه قوله تعالى : « فاصبر كمَا صبر ألو العزم من الرسل » ، وقوله تعالى : « إنا لننصر رسالنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا » : و قوله تعالى : « ولقد كذبَت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أثاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبْتَغِ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتَأْتِيهِم بآية ، ولو شاء الله جمعهم على المدى فلا تكونن من الجاهلين »

إلى هذا الحد بلغ الغضب والحزن برسول الله ﷺ على إعراضهم عن دعوته ، وإلى هذا الحد شدد الله تعالى في لوم رسوله على هذا الغضب أو الحزن .

على أن الكفار سلكوا كل طريقة ممكنة في رد محمد عن دعوته ولم يبق أمامهم إلا أن جمعوا كبراءهم وعلى رأسهم أبو سفيان وذهبوا للقاء

عمه أبي طالب وقالوا له : يا أبو طالب إن ابن أخيك قد سب آهتنا ، وعاب علينا وسفه أحلامنا وضلال آياتنا فإما أن تكتفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، ولكن أبو طالب ردهم ردأجميلا وأفهمهم أن التهم التي يوجهونها لمحمد مبالغ فيها فإن محمدًا لم ينذر بالتهم لأن القرآن نفسه ينهى عن ذلك في قوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » فلما لم يصل المشركون إلى هدفهم ذهبوا مرة أخرى إلى أبي طالب وقالوا له : يا أبو طالب إن لك سنةً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد سألك أن تنصفنا من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإننا لا نصبر على شتم آياتنا وتسيفيه أحلامنا ، حتى تكتفه عنا أو ننذر له وإياك ، فكانت هذه العبارات بمثابة البلاغ النهائي والإإنذار بالحرب القومية أو الفتنة الأهلية التي لا يعلم مداها إلا الله .

فأرسل أبو طالب إلى النبي يقول له : أبق على نفسك وقومك يا ابن أخي ولا تحملني مالا طاقة لي به ، فيما كان من النبي إلا أن زادته الأزمة إيماناً بالله وإصراراً على موقفه من قريش ، واتجه من فوره إلى عمه أبي طالب يقول له (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه) .

فازداد العم تقديرًا لابن أخيه ، ووقف إلى جانبه في أحرج ساعات الخطر ، وقال للرسول (اذهب يا ابن أخي فقل ما أحبيت فوالله لن أسلملك لشيء أبداً) .

محمد المثل الأعلى في الصبر على الحرب الباردة بينه وبين المنافقين بالمدينة : على أن شر ما من النبي به في حياته شيئاً هما : النفاق والمنافقون من جهة وترويج الشائعات المضادة من قبل أولئك المنافقين من جهة ثانية ، وقد ضرب النبي أروع المثل في صبره على هاتين الجهتين ونصره الله في كلتا الجهتين ، وكان قدوة للمسلمين في هذين الموقفين .

وقد تعرض النبي لكل هذا الأذى وهو بالمدينة أي بعد هجرته إليها

من مكة ، وكان بالمدينة رجل أسلم على نفاق – هو عبد الله بن أبي بن سلول ، ويعرف في تاريخ الإسلام بكثير المافقين ، وكانت له منزلة كبيرة بين قومه حتى ليدخل إلى الناس أنه كان يريده أن يولي أميراً على جميع من بالمدينة ، ولذلك كان يغار كثيراً من الرسول ويحمل في قلبه حقداً دفينأً ضده : وأوضح ما ظهر حقده هذا على النبي ﷺ في حدثين رواهما التاريخ .

الأولى : حادثة الشائعة الخطيرة التي أشاعها (عبد الله بن أبي) ليفرق بها بين المهاجرين والأنصار في المدينة حتى لا يجد المهاجرون لهم مفرأً من الخروج بأنفسهم وأهلهم عنها – وتفصيل ذلك أنه حدث أن أجيراً لعمر ابن الخطاب اصطدم بخليف لقبيلة الخزرج فضر به أجير عمر ، فنادى خليف الخزرج : يامعشر الخزرج ، ونادي أجير عمر يا معشر الأنصار وكادت تكون فتنة بين الفريقين فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مبابال دعوة الجاهلية ! فأخبره القوم بما حدث . فقال ﷺ : دعواها فإنها كلمة خبيثة منته .. فغضب عبد الله بن أبي – وكان معه جماعة من قومه (أي من قبيلة الخزرج) وفيهم غلام يقال له زيد بن الأرقم ، ثم أخذ عبد الله ابن أبي ينطلق بكلمات فيها تعير للمهاجرين بأن الأنصار آووهـم ، ومنها قوله : (والله ما رأيت كـاليوم مذلة .. أو قد فعلوها) ؟

نافرونا وكاثرـونا في بلادنا والله ما أظـننا ورجال قريـش إلا كما قال الأقدمون في أمـلهم : (سـمـن كلـبك يـأـكـلـك) أما والله لـئـن رـجـعوا إـلى الـمـدـيـنـة ليـخـرـجـنـ الأـعـزـ مـنـهاـ الأـذـلـ (يـعـنـيـ بالـأـعـزـ نـفـسـهـ وـالـأـذـلـ النـبـيـ) ثمـ أـقـبـلـ علىـ منـ حـضـرـهـ منـ قـوـمـهـ وـقـالـ : هـذـاـ مـاـ فـعـلـتـ بـأـنـفـسـكـمـ ، أـحـلـتـمـوـهـ بـلـادـكـمـ ، وـقـاسـمـتـهـوـهـ أـمـوـالـكـمـ أـمـاـ وـالـلـهـ لـوـأـمـسـكـمـ عـنـهـمـ مـاـ بـأـيـدـيـهـمـ لـتـحـولـواـ إـلـىـ غـيرـ دـارـكـمـ ..

وسـرـتـ الشـائـعـةـ فـيـ أـجـوـاءـ الـمـدـيـنـةـ كـالـبـرقـ ، فـقـدـ ذـهـبـ الغـلامـ (زـيدـ بنـ الأـرقـمـ) يـبـلـغـ رـسـوـلـ اللهـ بـأـحـدـثـ وـمـاـ سـمـعـ فـتـغـيرـ وـجـهـ الرـسـوـلـ وـقـالـ : يـاغـلامـ

لعلك غضبت منه ؟ قال الغلام : لا . فقال الرسول : لعله أخطأ سمعك ؟ فأصر الغلام على أن نقله صحيح ، ثم زاد على ذلك : وإنني لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثي .

وكان عند الرسول عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله من عباد بن بشير فليقتل عبد الله بن أبي ، فقال الرسول : كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟

واتسعت الشائعة في المدينة ولم يكن للناس حديث إلا فيها ، فأمر الرسول أن يؤذن للمهاجرين بالرحيل عن المدينة ، وكانت ساعة لم يكن لرسول الله أن يرحل فيها لشدة الحر ، ولكنه ارتحل بالناس ليشغلهم عن الحديث في هذه الشائعة وبذلك يبعد ما كان يخافه من الحرج ، وهدأت النفوس بعض الشيء ، ثم لم يلبث أن نزلت عليه سورة المنافقين وفيها يقول الله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى يتضروا والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفهون » يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وإذا ذاك مشى عبد الله بن أبي إلى رسول الله وحلف له بالله أنه ما قال بهذا القول ولا تكلم به ، واعتذر الانصار لرسول الله واتهموا الغلام أنه لم يحفظ ما قال ابن أبي ، وقال بعضهم للنبي : فاانت يا رسول الله تخرب من المدينة إن شئت وهو الدليل وأنت العزيز . ثم قالوا له : يا رسول الله أرق به فلقد جئتنا وإن قومه لينظمون له الخرز ليتووجهوا مالكا وإنه ليرى أنك قد استabilت هذا الملك .

والثانية : من الحوادث التي حقد فيها كبير المنافقين (عبد الله بن أبي ابن سلول) على الرسول وقابلها الرسول يصبر عظيم ، حادثة مشهورة في حياة النبي تعرف بحادثة (الإفك) وقد وجد كبير المنافقين في هذه الحادثة فرصة طيبة لترويج شائعة طعن بها شرف السيدة (عائشة أم المؤمنين) وكانت ساعة

حرجة لم ير النبي ﷺ في حياته أشد منها ، لو لا أن الله تعالى نبى الرسول منها وأظهر له الحق فيها ، وذلك حيث قال تعالى في سورة النور : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ بِالْإِفْلَكَ عَصْبَيْتُمُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لَكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكَتَبَ مِنَ الْأَثْمِ وَالَّذِي تُولِي كُبُرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظُنِّ الْمُؤْمِنِونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْلَكٌ مِّنْنَا ، لَوْلَا جَاءُوكُمْ بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءِ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوكُمْ بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الظَّاجِنُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمْ يَكُمْ فِيهَا أَفْضَلُمُ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » إِذْ تَلَقُونَهُ بِالْأَسْنَاتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيْنَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قَاتَمَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سَبِيحَانَاكَ هَذَا هَتَّانٌ عَظِيمٌ » يَعْظِمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمَلَكِهِ أَبْدًا إِنْ كَشَّمْتُمْ مُؤْمِنِينَ » وَيَبْيَنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » :

هكذا كانت حادثة الإفلک وما دار حولها من الشائعات مأساة كبيرة تدق حياة الرسول ، ولكن الرسول صبر عليها ولم يسيء معاملة زوجه ، وانتظر حتى جاءه الوحي الذي برأها من هذه التهمة الشنيعة التي لا تتفق وبيت النبوة ، ولا تتفق وسمعة رجل كأبي بكر كان من أشرف الناس في الجاهلية فـ كيف يتأى عنده الشرف أو يتأى هو عن الشرف في الإسلام ـ

هكذا كانت الحرب بين النبي والمنافقين حرباً قائمة على الشائعات ولو نجحت واحدة منها في بلوغ الهدف منها لـ كانت خطراً على الدعوة وصاحب الدعوة ، وكانت كفيلة بهدم الإسلام في مهده وهدم الرسول في أول مجده ، ولكن الله حمه وحمى دعوته من جميع هذه المشرور والآفات والشرور .

هكذا كان الرسول مثلاً أعلى في القدوة الحسنة لجميع المسلمين . كان مثلاً أعلى في العصير وفي الحلم ، وهذا كلّه من حسن سياسته ﷺ ومن توفيق الله له في تأدية رسالته :

ثم هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يقتدون بالرسول في جميع

أقوالهم وأعدهم وحركاتهم وسكناتهم ، فكتب الله لهم النجاح في إقامة هذا الدين ثم صيانته وتبنيته بكل مافي وسعهم من عزم وإيمان وقوة ثم أتموا نشره بعد ذلك بطريقين هما القدوة الحسنة من جهة والسيف من جهة ثانية .

* * *

لقد قلنا غير مرة أن محمدًا عليه الصلاة والسلام ، نشر الدعوة وحارب من أجلها سلاح الأخلاق قبل سلاح الجندي والرماح ولو لا حسن الأخلاق لما حظى النبي عندهم — أي العرب — بكل هذا التقدير — حتى من أعدى أعدائه — وهو أبو سفيان — وكثيراً ما سمعنا عن بعض اليهود والنصارى أنهم دخلوا الإسلام مجرد اقتناعهم بسمو أخلاقه وحسن معاملته وجميل معاشرته وبلغوا في كل ذلك الدرجات العليا من درجات القدوة الحسنة .

إن القدوة الحسنة هي من أنجح الأساليب والوسائل للاتصال بالناس ، ومن ثم وجب على كل زعيم أو حاكم أو قائد أن يكون قدوة طيبة لغيره متى أراد لنفسه النجاح في الفكرة أو العمل الذي جاءه يدعوه له .

الفصل الرابع

الاتصال الشخصي والجماعي

وأثره في نشر الدين وجمع كلمة المسلمين

إن الذي لا شك فيه أن الاتصال الشخصي في ذاته أساساً للجميع العمليات الإعلامية من حيث هي ، ومن بينها العملية الإعلامية التي تعرف (بالعلاقات العامة) والعملية التي تعرف (بإعلان) ولكن الاتصال الشخصي أكثر ما يؤثر في الحقيقة في ميدانين خطيرين هما ميدان المذاعة وميدان الدعاية ، والقدرة على ممارسة الاتصال الذي من هذا النوع شرط في نجاح العمليات الإعلامية التي أشرنا إليها ، ذلك أنه يلعب دوراً خطيراً في الإعلام على جميع المستويات ، ومن الجدير بالذكر أن اتجاهات البحوث الحديثة تؤكد أهمية الاتصال الشخصي وتنسب إليه مقدرة عظيمة على التأثير في الجماهير أكثر بكثير من بقية وسائل الإعلام العامة^(١) .

والمحموم في هذا الاتصال هو مدى ثقة الجمهور في مصدر الإعلام ، لأن هذه الثقة هي الأساس الذي يبني عليه الجمهور تصديقه أو عدم تصديقه للرسالة الإعلامية . ويعلم الباحثون من أمثل لازرسفيفارد وكارترز وغيرهما سر تفوق الاتصال الشخصي في التأثير بأنه « إذا كان من السهل أن ينصرف الناس عن المواد الإعلامية التي لا تتفق مع آرائهم وموتهم فإنه ليس من السهل أن يتجنّبوا الحديث مع زميل أو قريب أو صديق لهم وخاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفاً ، كما يتضح النقاش المباشر مرونة أكبر في عرض وجهات النظر والتأثير في الناس »^(٢) .

وربما أنه من أجمل ذلك تعب الرسول تعبياً شديداً في ممارسة هذه

(١) د. إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير .

(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

الوسيلة من وسائل الإعلام مع قومه ومواطنيه في مكة — وغيرها من مدن الحجاز وذلك في العهد الأول من عهود رسالته وهو العهد المكى بالذات ، ذلك أن الرسالة التي جاء بها عليه السلام — لقيت نفوراً واعتراضًا كبيراً من جانب العرب في مكة ، وإن كانت تربطه بهؤلاء المكيين وشائج القربي لأنهم من قريش ومحمد من قريش ، ومن ثم لم يكن غريباً ما سمعناه عن الأذى الذي لقيه من بعض أعمامه وهو — أبو هب — وقد بالغ هذا الأخير هو وزوجته في إعنات الرسول حتى نزلت سورة من سور القرآن الكريم في ذمهمما ، وفيها يقول الله تعالى :

« تبت يدا أبي هب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلني ناراً ذات هب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسلد » .

وهذا يعني قولنا أن الرسالة الإعلامية لا تؤثر في الأفراد أو الجماعات مباشرة ولكن تؤثر فيهم من خلال قادة الرأي في المجتمع ، وإذا كانت الدعوة الجديدة لا تتفق مع آراء زعماء قريش ومواليهم فقد كان من الصعب أن تتأثر بها جموع مكة والطائف وغيرها من المدن في الحجاز ، ومع هذا وذاك فلم ينصرف الرسول في بعض الأحيان عن ممارسة الاتصال الشخصي بهؤلاء القادة والزعماء .

وتفق الرسول يمارس هذه الوسيلة الفعالة في أول الأمر مع العامة والقراء ، وقد رأى هؤلاء في العقيدة الجديدة تحريراً لأنفسهم من قيود وأغلال كبيرة ، ولم تكن لهم أموال ضخمة يخشون عليها ولا تجارة عظيمة يخافون كسرادها ولا زعامات كبيرة يضيقون بها .

وأخذ الرسول يعرض نفسه على القبائل العربية هنا وهناك ويحاول أن يناقش أفرادها سواء كانوا من الأغنياء أو القراء وذلك على التحول الذي سنشرحه هذا البحث عند الكلام عن مراحل الدعوة وأسباب نجاحها على يد الرسول .

ومهما يكن من شيء فإن أكثر ما استند الرسول على وسيلة الاتصال

الشخصى كان في المراحل الأولى من الدعوة وبنوع خاص في العهد المكى ، ومعنى ذلك باختصار شديد أن وسيلة الاتصال الشخصى كانت أولى الوسائل التي مارسها الرسول في نشر الدعوة .

لقاء الرسول برجال من الخزرج في البيعة الأولى

وما دمنا نتحدث عن طريقة الاتصال الشخصى المباشر على يد الرسول . فلا ينبغي لنا أن نغفل الحديث عن اتصاله صلى الله عليه وسلم برجال من الخزرج وذلك قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وكان هذا اللقاء عندما خرج الرسول في موسم العرب ليعرض نفسه على القبائل ، وبينما هو عند (العقبة) إذ لقي رهطًا من الخزرج ، وكان الخزرج في نزاع مستمر مع الأوس في داخل يثرب ، وكانتوا يخربون من حين آخر للبحث عن قبيلة من قبائل العرب تعينهم على الأوس ، ووصلوا في ذلك إلى العقبة ولقيهم النبي هناك فسألهم قائلا : من أنتم ؟ فقالوا من الخزرج ، قال : فمن موالي يهود ؟ قالوا نعم . قال : أفلاتجلسون أكلمسكم ؟ قالوا : بلى . وجلسوا معه صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليهم الإسلام وعندئذ تذكروا قول اليهود لهم إن نبياً قد حان وقت ظهوره ، وقد أظل زمانه وسيعقبونه ليقتلوه كما قتلت عاد وآرم ، فلما كلامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به فهو فلا يسبقكم إليه ، فأجابوه عليه الصلاوة والسلام فيما دعاهم إليه وصدقواه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إننا قد تركناه ومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك . وستنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم قدموا المدينة وذكروا أمر هذا النبي الجديد ودعوهم إلى الإيمان به - حتى إذا كان العام القادم آتى من الأنصاراثنا عشر رجلاً لفتوأ الرسول . (بالعقبة) وكانت البيعة الأولى للنبي عليه السلام ^(١) .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٧١ .

وعن ابن مسعود قال : وعندنا رسول الله ﷺ في أصل العقبة يوم الأضحى ونحن سبعون رجلا ، فأثنا رسول الله فقلنا ، يا رسول الله: سلنا لربك وسلنا لنفسك وسلنا لأصحابك وأخبرنا ما لنا من الشواب على الله تبارك وتعالى وعليك .

قال : أما الذي أسأله لربى فإن تؤمنوا به ولا تشركوا به شيئاً، وأما الذي أسأله لنفسي فإن تطليوني أهذكم سبيل الرشاد ، وأسألكم لي ولأصحابي أن تواسونا في ذات أيديكم وأن تمنعونا مما نعمتم منه أنفسكم ، فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة . فهددنا أيدينا فبایعناناه .

من أجل ذلك كان الاتصال المباشر أول خطوة من خطوات العمل الاعلامي الكبير الذي قام به الرسول . بل كان من أخطر هذه الصور الاعلامية على الإطلاق ، وقد التزم الرسول بهذه الوسيلة الخطرة منذ بدء الرسالة إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى .

* * *

سبق أن ذكرنا في الفصل الذي عنوانه (القرآن أكبر وسائل الإعلام) أمثلة من المساواة ، ومرة أخرى نؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان في ممارسته لهذه الوسيطة من وسائل الإعلام وهي وسيطة (الاتصال الشخصي) لا يفرق بين الأغنياء والفقراة ولا بين العبيد والساسة وقد حدث في مرة من المرات أن اجتمع النبي بسادة قريش يغريهم بدخول الإسلام وشرح لهم مزايا الدين الجديد ، ثم حدث في تلك اللحظة التي كان فيها النبي مشغولا بهذه المهمة أن دخل عليه رجل أعمى من عامة الناس هو عبد الله ابن أم مكتوم ولسكن الرسول أهمل هذا الرجل حتى يفرغ من هؤلاء القوم وفي هذا الموقف من موقف الرسول نزلت سورة من سورة القرآن الكريم يعاتب الله فيها الرسول عتاباً كبيراً على إهمال هذا الأعمى بحججة انصرافه إلى أولئك السادة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريلك لعله يذكر * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى فأنت له تصدى * وما عليك إلا يذكر * وأما من جاعل يسعى * وهو يخشى فأنت عنه تنهى) ... إلخ .

وهذا مثل آخر من أمثلة الاتصال الشخصي المباشر مارس فيه النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوسيلة الإعلامية الخطيرة لغرض آخر عدا نشر الدين وهو الحفاظة على الوحيدة بين الأنصار والمهاجرين ، وذلك كما يتضح فيما يلي من حديث ،

والحق فقد كان اعتقاد الرسول صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه الوسيطة من وسائل الإعلام – وهي وسيلة الاتصال الشخصي اعتقاداً كبيراً يدل على حسن سياساته وعلى عظيم حكمته في معالجة المواقف الحرجة التي كانت تمر به في حياته ، وكادت تفسد العلاقات الطيبة بينه وبين أصحابه وأنصاره ، ولذلك استطاع بسياسته وبمبادرةه بالاتصال الشخصي المباشر بيته وبين مصادر الفتنة في مثل تلك الساعات الحرجة أن يهدم كل ثورة وأن يمحو كل سخط وأن يذيب كل حقد ، وأن يعيد نفوس أصحابه أصنافاً مما كانت عليه قبل حدوث الفتنة ، وقد كانت طريقته في كل ذلك الصراحة الشامة ، والصدق الذي ليس بعده صدق ، والشجاعة التي لا تماطلها شجاعة ، وبذلك أعاد العلاقات الطيبة التي بينه وبين هؤلء الجاهير إلى أحسن مما كانت عليه من قبل ، ومارس فن الاتصال الشخصي بالطريقة التي لا يرقى إليها زعيم في أمة أو قائد في حركة وما ذلك إلا بتوفيق من الله تعالى وحسن توجيهه .

أعطي رسول الله من فيء هوازن ما أعطي في قريش وقبائل العرب ، ولم يعط من هذا فيء لأحد من الأنصار شيئاً ، فغضب الأنصار لذلك ، غضباً شديداً وفشت فيهم الشائعات المسيئة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض إن هذا هو العجب يعطي قريشاً ويحرمنا – وسيوفنا تقطر من دماء القرشيين فإن كان ما فعل النبي من أمر الله صبرنا وإن كان من أمر رسول الله عاذناه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا فيء ، فقال عليه الصلاة والسلام فأين أنت من ذلك . فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ، فقال عليه الصلاة والسلام : فاجتمع لي قومك في هذه القبة ، فلما اجتمع الأنصار أتاهم رسول الله فقال لهم : من كان من غير الأنصار

فليرجع إلى رحله ، ثم وقف النبي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ، وموجدة وجذورها على نف أنفسكم ، ألم تكنم ضالاً فهذاكم الله بي ؟ وعاللة فأغناكم الله بي ؟ وأعداء فألف بين قلوبكم . ثم قال يا معشر الأنصار ألا تجيئونني ؟ قالوا بماذا تجيئك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله الملة والفضل ، قال رسول الله : أما والله لو شئتم لقام فصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكتباً وصادقناك ، ومحذلولاً وطريداً فآتيناك ، وعائلاً فآسيناك .

فقال الأنصار : الملة لله ولرسوله . قال رسول الله مرة أخرى : ما حديث بلغتكم ؟ فسكتوا ، فأعاد مرة ثانية وقال : ما حديث بلغتكم ؟ فقال فقهاء الأنصار أما رؤساً لنا فلم يقولوا شيئاً ، وأما حديث السن منا فقالوا : يغفر الله تعالى لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجدتكم يا معشر الأنصار في شيءٍ قليلٍ من الدنيا تألفت به قوماً ليس لهم ويسلم غيرهم تبعاً لهم ، وكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يزول ؟ إني لأعطي الرجل - وغيره أحب إلى منه - خشية أن يكتبه الله في النار ، لا يقرضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشدة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت رجلاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، فبكم القوم حتى ابتلت لحاظهم وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسمها وحظاً . ثم انصرف رسول الله وتفرقوا :

وهذه طريقة صلوات الله علیه في معالجة الأمور ، وهي طريقة في إطفاء نار الفتنة ، وهي طريقة بنىت على الصدق والصراحة والرحمة والتقارب إلى الناس والتودد إليهم ومبادرتهم الاتصال الشخصي بهم ، هذه الطريقة في النهاية ينفوس أصحابه عن الماديات ، والعلو بها إلى مستوى الروحانيات ، وكان من نتيجة هذا الموقف المثالى في مواقف رسول الله أن رجع القوم من عنده أكثر صفاء في النفوس وطهارة في القلوب وتعلقاً بالرسول ، وحبّا

للمبادئ الإنسانية التي دعاهم لها ، وما أعلم أن زعماء الأرض
كان يستطيع أن يتصرف مثل هذه الفتنة على هذا النحو أو يذيب السخط
من نفوس قومه بمثل هذه الطريقة .

ضررنا المثل هنا في مجال الاتصال الشخصي المباشر بالرسول لأنه أضخم
شخصية في الوجود الإسلامي كله ولأن الاستشهاد به واقفه يعني عن
الاستشهاد بموقف أصحابه .

أما الاتصال الجماعي فأظهر ما يكون عادة في مجال الخطابة حين يجتمع
الخطيب بعدد كبير من الناس يوجه إليهم كلامه ، ومن أجل ذلك سيمتاز
هذا الكتاب موضوع (الخطب النبوية) في الباب الثاني وهو الباب الذي
سئلنا عنه في (الدعوة في عهد الرسول عليه وطرق نجاحها) :

الفصل الخامس القصص غير القرآن

رأينا فيما سبق أن القرآن الكريم اعتمد على وسيلة القصص في سبيل الدعوة والاتصال بالجماهير ، وسنرى الآن كيف أن المسلمين بعد انقطاع الوحي ووفاة الرسول مضوا في طريق القصص ، ولكن مع الفارق الشديد بين القصص القرآني والقصص غير القرآني ، فال الأول وهو القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والثاني غير القرآن كان يبني على الصدق حيناً وعلى الكذب أحياناً ، يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) ^(١) (كان أول من قص في مسجد رسول الله ﷺ (تميم الداري) ، استأذن عمر بن الخطاب أن يذكر الناس ، فأبى عليه ذلك ، حتى كان آخر ولادته فاذن له عمر أن يذكر الناس في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر من المسجد ، واستأذن تميم في ذلك عثمان بن عفان ، فقبل عثمان ذلك) .
وكان تميم هذا ناصريانياً من اليهود سنة تسع من الهجرة .

وأما صورة هذه القصص فهي أن يجلس القاص في المسجد ، ويقص على الحاضرين حكايات وأحاديث وأساطير عن الأمم الأخرى لايعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، والظاهر أن هذا القصص كان على نوعين :

قصص لل العامة ، وقصص لل خاصة .

فاما قصص العامة فهو الذي يجمع إليه نفوس أكثر الناس ، وهذا من القصص مكروه عند فقهاء المسلمين ، وأما قصص الخاصة فهو الذي اعتمد عليه أكثر الخلفاء الراشدين ، فلما ولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة الأموية ولـى رجلاً من قبله على القصص . فـكان إذا أنهى من صلاة الصبح

(١) ص ١٩٠ وما بعدها .

جاس هذا الرجل وأخذ يذكر الناس فيبدأ باسم الله والصلوة والسلام على رسوله ، ثم يدعو للخليفة وأهل بيته ويدعو لجنده وقواده ، ثم يدعو على المخالفين له من المسلمين ، كما يدعو على المشركين كافة^(١) .

وانتشر القصص ودخل عليه الكذب وذلك منذ خلافة علي بن أبي طالب حتى اضطرب على إلى طرد جميع المشتغلين بالقصص في المساجد واستثنى منهم (الحسن البصري) لتحررها الصدق في القول ، ولكن مالا شاك فيه أن القصص كان من أكبر أسس الدعاية في عهد الفتن الإسلامية ، وأولها: الفتنة الكبرى التي حدثت في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم علا شأن القصص شيئاً فشيئاً حتى أصبح عملاً من الأعمال الرسمية في الدول الإسلامية ، وأصبح القاصون أشبه بوزير الإعلام والدعاية في الوقت الحاضر مالم يكن أكبر منه ، وكان بعض القصاص في تلك العصور يجمعون بين وظيفتين في وقت واحد هما : وظيفة القضاء ووظيفة القصص أو بلاغة العصر الذي نعيش فيه بين وزير العدل ووزير الدعاية ، ثم روى فيما بعد أن يختص الرجل بإحدى هاتين الوظيفتين .

وكان أول من جمع بين القصص والقضاء في مصر الإسلامية هو سليمان ابن عبد التبّيجي (سنة ثمان وثلاثين للهجرة) .

مهما يكن من شيء فعن طريق القصص دخلت على المسلمين أساطير الديانات الأخرى اليهودية والنصرانية ، وكان ذلك سبباً من الأسباب التي كلفت رجال الحديث كثيراً من الجهد المضني في التحرى عن صدق الأحاديث النبوية إلى جانب الأسباب الأخرى التي جعلتهم يغبون من أجل هذه الغاية .

وبسبب ذلك أيضاً امتدت كتب التاريخ الإسلامي بكثير من الواقع الزائف والحوادث المختلفة ، وذلك منذ اعتمد المؤرخون المسلمون على مصادررين كبيرين هما (وهب بن منبه) (وكعب الأحبار) . أما وهب بن منبه فرجل

(١) خطط المقريري ج ٢ ص ٢٥٣ - المطبعة الأميرية .

يُمنى من أصل فارسي وكان من أهل الكتاب ^{وله معرفة واسعة بقصص الأنبياء وأخبارهم} ، وأما كعب الأحبار اليهودي من بين أيضًا وكان مصدرًا لتسرب أنباء اليهود إلى المسلمين وعن طريقه أيضًا دخل في تفسير القرآن الكريم ما يُعرف (بالإسرائيлик).

والخلاصة أن القصص أفاد المسلمين فائدة جزئية عن طريق الدعاية للخلفاء والملوك والسلطانين ، ولكن هذا القصص آخر بنواح ثلث وهي :

ناحية الحديث النبوي ، وناحية التاريخ الإسلامي ، وناحية الديانة الإسلامية نفسها عن طريق الإسرائيлик — هذا ما حصل في صدر الإسلام ولكن بتحول الخلافة الإسلامية إلى ملك حقيقي على يد معاوية أصبح القصص شأن كبير في تحفيز الجنود للقتال فضلاً عن الدعاية لخلافة جديدة أو مذهب جديد ونحو ذلك .

لقد كان القصص عنصرًا أساسياً في جيوش المسلمين ، وعليه اعتمد أولو الأمر في شد أزر الجنود في الفتوح الإسلامية والحروب الدينية ومن أشهرها الحروب الصليبية المعروفة في التاريخ .

* * *

وبعد — فقد كان بكل نبي من الأنبياء السابقين معجزة ، وكانت هذه المعجزة في ذاتها أقوى وسائل الدعاية لنجاح النبي في دعوته ^{إلى} التي بعث بها من قبل الله تعالى .

فكان موسى معجزته التي حدثنا بها القرآن الكريم وهي العصا ، وكانت ليعيسى معجزاته التي منها أنه يبرء الأكماء والأبرص بإذن الله ، ومنها أنه يحيي الموتى بإذن الله ، وهكذا ، أما محمد بن عبد الله فمعجزته القرآن ، ولم تحدث عن القرآن بحيث إنه معجزة لهذا المعنى ، وما زلنا نتحدث عن كتاب الله من هذه الناحية ، ذلك أننا محروم على أن نكتفى بالجانب العلمي من جوانب

الإعلام والاتصال بالجهاز في الإسلام ، وليس معنى ذلك أن العلم ينكر المعجزات أو أن العلماء كلهم في تاريخ العالم منكرون لها، ولكن يعنينا من الحديث عن المعجزة من الزاوية الإعلامية الخاصة أنتا سنتنق بكثير من الباحثين يأخذون علينا هذا السلوك ، ومن هنا تحدثنا عن القرآن في مجال الإعلام والاتصال بالجهاز ، وذلك بالطرق والأساليب التي يفهمها البشر في كل زمان ومكان ، وكفانا ذلك عن الحديث عن القرآن الكريم من حيث إنه المعجزة الكبرى الوحيدة أو الفريدة لرسول الله ﷺ :



الفصل السادس

مواسم الحجـاج

من أعظم وسائل الدعوة

أجمع الباحثون على أن الإسلام دين السلام والحبة ، ودين الاجتماع والوفاق والوحدة ، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنه الدين الذي أدرك قيمة الإعلام السليم وقيمة الاتصال بالناس على قاعدة مبنية من قواعد الألفة والصدق والإخلاص والأخوة .

وفي الشريعة الإسلامية كثیر من العبارات التي تدل دلالة واضحة على هذا المعنى ، فصلاة الجمعة تقام خمس مرات في اليوم والليلة ، وصلاة الجمعة تقام في كل أسبوع مرة ، وذلك على نطاق واسع وتجمع أكبر ، وفيها يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي لاصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذرروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثیراً علکم تفلحون » ، ثم هناك صلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى وفيهما تهليل وتكبر وذكر الله كثيراً يصدر من جميع المصابين على شكل نشيد جميل يترك أعظم الأثر في نفوس المسلمين ، ويعبر عن شكر جميع المسلمين لله تعالى على النعم التي أفضها عليهم والانتصار الذي خص به نبيهم ودينه حتى أظهره على الدين كله .

وأخيراً نأتي إلى التجمع الأكبر الضخم ، والمؤتمر الأعظم ونعني به يوم الحج الأكبر ، وفيه يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومحاربها مستجيين لنداء الله وهو جريرين بقلوبهم إلى الله متجردين في عبادة الله ، وذلك بالطريقة التي رسها لهم لا يحيطون عنها قيد شعرة .

لقد أخبرهم الله تعالى بقوله : (إن أول بيت وضع الناس الذي بمكة

مباركاً و هدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان
آمناً .

كما أعلمهم الله تعالى أنه كلف أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأن
يدعو الناس للحج والطواف بالکعبه فقال تعالى (وأذن في الناس بالحج
يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ،
ويذكروا اسم الله في أيام معلومات)

* * *

ونحن لانتحدث عن الحج من حيث هو ركن من أركان الإسلام ولا
من حيث هو نوع من الهجرة إلى الله والتجرد الكامل لعبادة الله، كما لا نتحدث
عن الحج من حيث حكمته البالغة في جمع كلمة المسلمين من شتى بقاع
العالم، ولا من حيث الغاية التي شرع من أجلها لاتباع هذا الدين، فكل هذه
البحوث ليست من قصتنا ولا هي هدف لنا وإنما هدفنا هو التحدث عن
الحج من حيث إنه من أكبر وسائل الدعوة الإسلامية حيث إنه مقرون
بكثير من المظاهر الإعلامية والأشكال الدعائية التي صحبته أداء هذه
الفرضية من أو لها إلى آخرها .

ربما كان أول شكل من هذه الأشكال الدعائية هذا النشيد الذي يردد
الحجيج وهم مقبلون على مكة ، ويرددونه في أثناء طوافهم بالکعبه وهو
النشيد الذي وضعي لهم رسول الله ﷺ وفيه يقول (لبيك اللهم لبيك لاشريك
لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك لاشريك لك لبيك ، وإن الخير كله في
يديك لبيك) .

مشهد رائع جميل من مشاهد الدين يثبت العقيدة في نفوس المسلمين
ويزرع الإيمان والسكنينة زرعاً آخر في قلوب المؤمنين ، والأناشيد الجماهيرية
في كل ثورة دينية أو سياسية أثرها الذي لا يحتاج منا إلى شرح .

من أجل ذلك جعل الله الحج ركناً من أركان الدين وفرض على كل
مستطيع أن يقوم به من المسلمين ، وذلك في قوله تعالى : (والله
على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) .

وقوله عليه السلام (أَهَا النَّاسُ قَدْ فَرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَمَنْ حَجَّ فَهُوَ مُسْتَطِعٌ) فَقَالَ رَجُلٌ
مِّنَ الْحَاضِرِينَ : أَكَلَ عَامَ يَارَسُولَ اللَّهِ ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ حَتَّى قَالَهَا الرَّجُلُ
ثَلَاثَ مَرَاتٍ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (لَوْ قُلْتَ نَعَمْ لَوْ جَبَتْ وَلَمْ يَسْتَطِعْ) .

وَلَكِنَّهُ كَفَى جَلِيلَةً أَيْضًا جَعَلَ اللَّهُ الْعُمْرَةَ مِثْلَ الْحَجَّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَتَمُوا
الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ اللَّهُ) .

وَهِيَ فَرِضٌ عَلَى الْمُسْلِمِ كَالْحَجَّ مَرَةً وَاحِدَةً فِي الْعُمْرَةِ ، وَلَكِنْ ذَلِكَ مُشَروَّطٌ
كَافِي الْحَجَّ بِالْقَدْرِ مَا لَا وَصْحَةَ وَهَا — أَيُّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ — مَفْرُوضَاتٌ عَلَى
كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ ، وَفِي الْمُحَدِّثِ قَالَتِ السَّيْدَةُ عَائِشَةُ (يَارَسُولَ اللَّهِ هُلْ
عَلَى النِّسَاءِ مِنْ جَهَادٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، عَلَيْهِنَّ جَهَادٌ لَا قَتْلٌ فِيهِ، الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ) (١) .

وَنَتْسَاعِلُ : مَا هِيَ هَذِهِ الْمَنَافِعُ الَّتِي يَشَهِّدُهَا النَّاسُ فِي الْحَجَّ بِجَانِبِ
الْعِبَادَةِ وَالْتَّجَرِدِ اللَّهُ تَعَالَى ؟ إِنَّمَا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ التَّجَمُّعَاتِ السَّلَمِيَّةِ فِي كُلِّ
زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَا تَخْلُو مِنَ الْفَوَائِدِ الَّتِي تَعُودُ بِالْخَيْرِ عَلَى الْإِنْسَانِ ، فَنَّ هَذِهِ
الْفَوَائِدُ التِّجَارَةُ وَتِبَادُلُ السَّلْعِ الْمَادِيَّةِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْفَوَائِدِ أَيْضًا إِلَاعَلَانُ وَتِبَادُلُ
السَّلْعِ الْإِخْبَارِيَّةِ وَالْمَوَادِ الرُّوحِيَّةِ ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ مُفْسِرِ الْقُرْآنِ مَهْمَّا عَظِيمٌ
شَأنُهُ أَنْ يَتَجَاهَلَ النَّاحِيَّةُ الْأُخْرَيُّ ، وَنَعْنَى بِهَا السَّلْعُ الْمَعْنَوِيَّةُ أَوِ الْإِلَاعَلَمِيَّةُ
فَهَا الْحَجَّ فِي جَانِبِهِ إِلَّا سُوقٌ كَبِيرٌ تَعْلُو عَلَى جَمِيعِ الْأَسْوَاقِ
الْمَشْهُورَةِ فِي الْأَمْمِ الْقَدِيمَةِ وَالْمُحَدِّثَةِ ، وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْوَاقُ فِي يَوْمٍ مِّنِ
الْأَيَّامِ مَقْصُورَةً عَلَى الْبَضَاعَةِ التِّجَارَيَّةِ دُونَ الْبَضَاعَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ إِلَّا إِذَا كَانَ
هَنَاكَ سُلْطَانٌ غَاشِمٌ يَحْوِلُ بِقُوَّتِهِ وَجْبَرُوَتِهِ دُونَ تِبَادُلِ السَّلْعِ الْمَعْنَوِيَّةِ .

وَدَعْنَا مَرَةً أُخْرَى نُوازنَ بَيْنَ (النَّادِي) (وَالْحَجَّ الْأَكْبَرِ) وَلَوْ أَنْ
الْقِيَاسُ هُنَا مَعَ الْفَوَارِقِ الْعَظِيمَةِ ، فَإِذَا كَانَ النَّادِي وَسِيلَةً مِنْ أَقْوَى وَسَائِلِ
الْإِلَاعَلَمِ فِي الْعَصُورِ الْقَدِيمَةِ وَالْمُحَدِّثَةِ ، فِي الْقَرِيرَةِ أَوِ الْحَقِّ .. أَوِ الْمَدِينَةِ فِي
الْدُولِ الصَّغِيرَةِ أَوِ السَّكِيرَةِ فَكَيْفَ بَنَادَ كَبِيرٌ لَيْسَ لَهُ نَظَرٌ فِي الْعَالَمِ كَلَّهُ ،
كَنَادِيِ الْحَجَّ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَفَاقِ الْأَرْضِ حَوْلَ مَكَانٍ وَاحِدٍ ،

هو الكعبة أو جبل (عرفات) ، وفي وقت واحد هو شهر ذى الحجة ، إن المسلمين في جميع أقطار الدنيا لو دبروا أمرهم و هيئوا نفوسهم ل مثل هذا الاجتماع الكبير أو المؤتمر العظيم لما استطاعوا تنظيم ذلك بخير من الحج .

في هذه البقاع المقدسة يجتمع المسلمون لا فرق بين كبير و صغير ولا بين أبيض وأسود ولا بين أحمر وأصفر ولا بين غنى و فقير ولا بين سيد و مسود ولا بين رجل و امرأة فيتعارفون ويتألفون ويزورن تلك البقعة التي شهدت مولد الرسول ، وكان فيها نزول القرآن الكريم وكان فيها جهاده عليه ضد المشركين والمنافقين ، ودارت فيها الحرب الباردة بينه وبين اليهود كما دارت فيها الحرب الساخنة بينه وبين الكافرين ، كما يشهدون تلك الأرض التي هاجر إليها الرسول وشهد فيها من النصر والتأييد ما أنعم به الله عليه وعلى دينه الحنيف ،

وانظر معى بعين الخيال مرة أخرى إلى بقية مظاهر الدعوة الإسلامية والأشكال الدعائية التي اقررت بهذه الفريضة الدينية وهى فريضة الحج . فن ذلك الطواف حول الكعبة سبع مرات طواف قديم أو إفاصحة طواف توديع ، وغير ذلك من ضروب الطواف الذى أمر بها الرسول .

ثم انظر معى إلى الصور التى اختارها النبي عليه لهذا الطواف . لقد أمر النبي أصحابه أن يتجردوا من ثيابهم المعهودة أو الذى تعودوا لبسها كل يوم ، وأن يرتدوا ثياباً أخرى غير مخيطة ، ويتآلف كل ثوب من لازاد يغطى النصف الأسفل من الرجل [ورداء يجعل وسطه تحت منكبه الأيمن ويجعل طرفيه على منكبه الأيسر ، وقد سميت هذه السنة من سنن الحج (بالاضطباب) ^(١) .

أتدرى ما هى الحكمة التى دعت الرسول إلى أن يأمر أصحابه بالتخاذل هذه الهيئة فى تغطية الجسم فى أثناء الطواف ؟

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٣٢ :

لقد كان الرسول يذهب إلى الحج وهو بالمدينة، فمحرص على الظهور هو وأصحابه على هذه الهيئة التي يغطى فيها أحد كتفيه ويكشف فيها عن الكتف الأخرى لكي يظهر للمشركين هو وأصحابه بمظاهر الأقواء المفتولى العضلات الذين يستطيعون مع قلتهم أن يقاوموا المشركين مع قوتهم ومتانة بدنياهم الجسدية .

إن الطرف إذن – لاخلو من معنى (المظاهرة) الكبرى التي قصد إليها الرسول قصداً ، وذلك بغية الإعلان عن الدين ، وبغية الظهور بمظاهر القوة البدنية إلى جانب القوة الروحية لل المسلمين وفي ذلك تخويف للمشركين في مكة وإرهاب لرعوس الكفر في تلك البلاد التي اضطررت النبي وأصحابه إلى الهجرة .

الحق – إن في كل شعيرة من شعائر الحج فضلاً عن معنى التجدد والعبادة كما قلنا – معنى من معانى الدعوة الإسلامية، وإشارة بلاغية إلى قوة هذه الدعوة .

ومن أهم هذه الإشارات البلاغية أو الدعائية – التلبية والطواف .

وفي وقفة عرفات – وذلك في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة – يجتمع المسلمون كذلك من كل أقطار الأرض في هذا الوادي القريب من مكة في وقت واحد وبقلب واحد وعيده واحد من أكبر أعياد المسلمين ، وينظمون لأنفسهم أو ينظم الله لهم مؤتمراً ثانياً كمؤتمرهم حول الكعبة، وفي هذا المؤتمر العظيم، يستطيع المسلمون – لو أرادوا – أن يتبادلوا الرأى فيما يعود على الأمة الإسلامية كلها بالخير ، ويندو عنها الشر وينصرهم على العدو، وإن أسلوب المؤتمرات هو السمة الأساسية للاتصال الشخصي في عالمنا الحاضر ، ولكن مؤتمر الحج مختلف عنها من حيث تجتمع له كل مقومات النجاح العقائدية والروحية والفكرية .

وشعيرة أخرى من شعائر الحج – هي رمي الحصى أو الجمرات – إذ يأخذ كل واحد منهم تسعاً وأربعين حصاناً من أرض يقال لها (المزدلفة)

فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى (مَنْ) وَيَبِيتُونَ فِي ثَلَاثِ الْجَهَةَ حَتَّى إِذَا أَشَرَقَ الصُّبَاحُ ذَهَبُوا بِجُمُوعِهِمْ إِلَى مَكَانٍ يَقَالُ لَهُ (الْعَقْبَةُ) وَهُنَاكَ يَأْخُذُونَ فِي رَمَى الْحَصَى أَوْ الْجَمَرَاتِ فَإِذَا انتَهَوْا مِنْ ذَلِكَ ذَبَحُوا ذَبَائِحَهُمْ وَأَطْعَمُوا الْفَقَرَاءَ .

أَلِيَسْتَ هَذِهِ الْأَعْيَادُ مِنَ الْأَمْرَوْرِ الَّتِي تَتَدَرَّجُ بِهَا الدُّعَائِيَّةُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ؟ وَمَاذَا يَفْعُلُ النَّاسُ فِي أَعْيَادِهِمْ مِنْذِ الْقَدْمَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا ؟ إِنَّهَا إِذْنٌ مَظَاهِرَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرَاتِ الَّتِي اقْتَرَنَتْ بِالْحَجَّ الْأَكْبَرِ ، وَلِنَهَا ذِرْيَةٌ مِنْ أَقْوَى ذِرَائِعِ الدُّعَوَةِ لِلْإِسْلَامِ وَالْأَتِصَارِ لِنَبِيِّ الْإِسْلَامِ وَالْأَتِهْفَالُ بِهِ عَلَى النِّحْوِ الَّذِي يَلْقَى الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ خَصْصُومِهِ وَأَعْدَائِهِ .

وَشَعْرَةُ أُخْرَى مِنْ شَعَائِرِ الْحَجَّ هِيَ سَعْيُ الْحَجِيجِ بَيْنَ الصَّفَّا وَالْمَرْوَةِ وَلِنَهَا مَظَاهِرَةٌ كَبِيرَةٌ لَا تَقْلِيلٌ فِي رَوْعَتِهَا عَمَّا سَبَقُهَا مِنَ الْمَظَاهِرَاتِ فِيهَا يَعْلُو الْهَتَافُ لِلْإِسْلَامِ ، وَنَبِيِّ الْإِسْلَامِ ، وَفِيهَا يَكْثُرُ الدُّعَاءُ إِلَى اللَّهِ بِالرَّحْمَةِ وَالغَفْرَانِ ، وَبِهَا يَزِدُّ الْمُسَامِمُونَ تَعْلِقاً بِالرَّسُولِ وَإِصْرَاراً عَلَى التَّسْكُنِ بِمِبَادِئِهِ الْعَالِيَّةِ .

وَقَبْلَ أَنْ يَغْادِرَ الْمُسَامِمُونَ مَكَةَ الْمُكَرَّمَةَ يَعُودُونَ إِلَى الطَّوَافِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ الْمَشْرُفَةِ طَوَافَ وَدَاعَ ، وَقَلْوَبُهُمْ تَفَيَّضُ بِالْإِيمَانِ وَقُوَّةِ الْاعْتِقَادِ بِهِذَا الَّذِي أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَوَاطِنِ الرُّفْعَةِ الْمَعْنُوَيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ .

فَأَيْنَ الزَّعِيمُ الْدِينِيُّ أَوِ السِّيَاسِيُّ أَوِ الْاجْتِمَاعِيُّ الَّذِي يَسْتَطِعُ تَنظِيمَ مُثْلِ هَذِهِ التَّجَمُّعَاتِ أَوِ الْمُؤْتَمِراتِ ؟ وَأَيْنَ الْفَرَصَةُ الَّتِي تَتَابَعُ لِلْاتِصَالِ بِالْجَاهِيرِ وَتَبَادُلُ الْأَفْكَارِ وَالآرَاءِ وَالْأَخْبَارِ وَالْمَعْلُومَاتِ مُثْلِ هَذِهِ الْفَرَصَةِ الَّتِي تَتَابَعُ لِلنَّاسِ فِي الْحَجَّ ؟

وَلَعِلَّ ذَلِكَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَوْلِهِ (لِيَشْهُدُوا مِنَافِعَهُمْ) كَمَا سَبَقَ القَوْلُ فِي ذَلِكَ ، فَلَيَتِ الْمُسَامِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَنْتَفِعُونَ بِهَذِهِ الْوَسِيْلَةِ الْإِلَاعَامِيَّةِ الْقَوْيَةِ ، لِنَهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا مِنْ موْسِمِ الْحَجَّ فِي كُلِّ عَامٍ مُؤْتَمِراً إِسْلَامِيًّا عَالَمِيًّا يَعْرُضُونَ فِيهَا آرَاءَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ وَمَشَكَلَاتِهِمْ وَقَضَائِيَّاهُمْ وَمِنْهَا قَضِيَّةٌ فَلَسْطِينٌ^(١)

(١) أَذْكُرُ أَنِّي أَدِبْتُ فِريْضَةَ الْحَجَّ عَامَ ١٩٦٨ وَأَدِبْتُ شَعَائِرَ الْحَجَّ مَا اسْتَطَعْتُ حَتَّى وَصَلَّتْ مَعَ الْحَجَّ إِلَى جَبَلِ عَرَفَاتٍ — وَكَانَ يَوْمًا عَظِيمًا شَرَّتْ فِيهِ بِسَعَادَةٍ رُوحِيَّةً لَمْ أُذْقِ مَثْلَهَا فِي حَيَاةِي ، —

ودعنا نختم هذا الفصل بهذه الآية الكريمة التي تعطينا أكبر دليل على أن (يوم الحج الأكبر) تميزاً - له عن الحج الأصغر وهو العمرة - أكبر إعلان للإسلام وال المسلمين ، وتحذيرًا في الوقت نفسه للمشركين والكافرين ، قال تعالى؛ (وَأَذْانَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحِجَّةِ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بِرَىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تَبْتَمِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَإِنْ تُولِيهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرَ مَعْجَزِي اللَّهِ ، وَبِشْرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِذَابِ أَلِيمٍ) .

== ولكن الذي أحزنني في ذلك اليوم وحزن في نفسي كثيراً أنني لم أجدهما كنت أنتظره وأتخيله في نفسي قبل ذلك : فقد كنت أنتظران أن أشهد أضخم مؤتمر إسلامي هناك يخطب فيه الخطباء في قضية فلسطين ، وهي القضية التي كانت تشغل بال المسلمين في ذلك الحين . وبعد قليل سمعت خطيباً واحداً أخذ يخطب المهاجرين في هذه القضية ولكنه لم يطل كما توقعت ولم يعقب عليه خطباء آخرون فلم يشجعني ذلك على أن أكون واحداً من أولئك المعقدين - برغم أنني كنت في غير كامل صحي في ذلك اليوم .

لقد كانت هذه الفرصة ثمينة يتحدث فيها زعماء المسلمين في أمور كثيرة من أهمها قضية اللاجئين ، ولكن ذلك لم يحدث فوجئت من عرفات في ذلك اليوم وأنا حزين وأريد أن أعن نفسي من الاستمرار في الحديث .

الفصل السابع العلاقات الإنسانية في صدر الإسلام

نسمع في العصر الذي نعيش فيه بمادة جديدة من مواد الإعلام هي مادة (العلاقات العامة) غير أن هذه المادة إنما تعتبر جزءاً من علم أوسع هو علم العلاقات الإنسانية، وينقسم هذا العلم إلى قسمين: العلاقات الداخلية أو الخاصة، وال العلاقات الخارجية أو العامة ، ولا غنى للمؤسسات الحكومية أو الأهلية عن القسمين معاً .

أما العلاقات العامة فهي علاقات المؤسسات بالجماهير من الخارج ، وأما العلاقات الخاصة فهي علاقات المؤسسة في الداخل .

فإذا طبقنا ذلك على الظروف التي أحاطت بالرسول والخلفاء الراشدين في صدر الإسلام وجدنا أن علاقتهم بال المسلمين من سكان المدينة تمثل العلاقات الداخلية ، وأما علاقتهم بغير المسلمين في داخل المدينة وخارجها فتمثل العلاقات العامة ، وقد جمع الرسول وجمع الخلفاء الراشدون من بعده بين هذين النوعين من العلاقات الإنسانية – ولكنهم كانوا قد بدأوا بالعلاقات الداخلية ثم وجهوا عنایتهم إلى العلاقات الخارجية .

ولعل أكبر شاهد على ما نقول أن رسول الله ﷺ بدأ رسالته بدعة أهله وعشيرته إلى الإسلام وذلك عملاً بقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) فبدأ بدعة زوجته السيدة خديجة وغلامها ياسر وسمية زوجة ياسر ، هذا في المرحلة السرية من مراحل الدعوة ، ثم بدأ المرحلة العلنية بدعة بنى هاشم كما سنشرح ذلك في موضعه .

والعجب أن النظريات الحديثة في العلاقات الإنسانية تقول إن هذه العلاقات ينبغي أن تبدأ من الداخل ثم تنتهي بالعلاقات العامة أو العلاقات من الخارج ، فانظر كيف اهتمى الرسول إلى ممارسة هذا النوع من أنواع

الإعلام — وهو العلاقات الإنسانية — بطريقة يقرها العلم الحديث ، ذلك أنه بدأ بزوجته وبنى قرابته ثم بأدبي الأصدقاء إلى نفسه ، وهو الصديق أبو بكر ومن في درجته ، ومضى في طريقه حتى بلغت الرسالة غايتها بعد ذلك .

ويشبه العلماء المحدثون ممارسة العلاقات الإنسانية على هذا النظام المتقدم أعني به البدء بالإعلام الداخلي والانتهاء بالإعلام الخارجي بالحجر يليق به في الماء ، فيحدث فيه حركة شديدة ، وإذا بدوائر أو حلقات من الأمواج تتكون حول الحجر ، وتتسع شيئاً فشيئاً ، وهذه الدوائر أو الحلقات إنما تتكون من الداخل أولاً وتسع في اتجاهها إلى الخارج شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى بعد ذلك . بناء على هذه القاعدة الحديثة من قواعد العلاقات الإنسانية ، يمكن التأكد بأن الإعلام الداخلي يجب أن يكون سابقاً على الإعلام الخارجي ، بل إن الإعلام الخارجي إنما هو انعكاس لابد منه للإعلام الداخلي ، ومن ثم كان من الخطأ التي ترتكبها بعض الدول في وقتنا هذا أن تسلك في الإعلام خطوة عكسية ، فلاتصيّب هدفاً إعلامياً ذا بال به .

ثم إن العلاقات الإنسانية لا تنشأ إلا في جو ثقاف وحضاري يومن بقيمة الإنسان من حيث هو إنسان له كرامته وله حقوقه على الآخرين ، وعليه واجبات نحوهم ، وقد توفرت هذه المعانى في المجتمع الإسلامي وهو المجتمع الذى خلقه وتولى بناءه الرسول الأمين عليه السلام ، ومن الخطأ كل الخطأ أن يزعم المؤرخون أن هذه المعانى لم توجـد إلا بقيام الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، وفي القرآن آيات كثيرة تتفق على ذلك منها على سبيل المثال : « ولقد كرمـنا بـنـي آدم . . . » وفي الحديث قول الرسول عليه السلام : (الناس جمـيعـاً سـوـاسـيـةـ كـأسـنـانـ المشـطـ) .

فضلاً عن هذا وذاك فإن لفظ (الإنسان) أو ابن (آدم) كثير الورود في القرآن الكريم بمعنى الكراهة والاحترام ، ويوصي به سيداً للطبيعة التي سخرـها له الله تعالى وفضـلهـ على أي مخلوق سواه ، ويضاف إلى ذلك

ما سبق أن قلناه من أن الإسلام حض على الشورى وأمر المسلمين بها ، بل أمر النبي نفسه باتباعه مع أنه المثل الأعلى للإنسان وأنه أرجح عقلاً وأكثر على وأعظم منزلة من جميع الذين عاصروه واتبعوه في دعوته ، وفي مثل هذه الأحوال من الديمقراطية يتيه الرأي العام وتتهدى العلاقات الإنسانية وتظهر على أحسن وجه .

وهكذا وفر الإسلام بتعاليمه جوا من الإخاء والمساواة جعل من العلاقات الإنسانية نباتاً صالحاً للتربيـة الإسلامية فأصبحت هذه العلاقات الإنسانية سمة من سمات المجتمع في صدر الإسلام ، أعني في عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين من بعده .

ثم حدث بعد ذلك أن انعكسـت هذه العلاقات الإنسانية في داخل المجتمع الإسلامي الصـيق في المدينة على الجهات البعـيدة عنها ، وعلى الدول الكـبيرة الخـيطة بشـبه الجزـيرـة العـربـية ، كما ظـهر ذلك في الـوفـادات أو التـمـثـيل الدـبلـومـاسـي بـلغـة العـصـر الـحـدـيث ، وهو التـشـيل الـذـي تـحـقـق بـشكل مـلـمـوس فـي بـعـاثـات النـبـي ﷺ إـلـى الـأـمـرـاء وـالـمـلـوـك الـجـاـوـرـين .

وـسـتـتـحدـث عنـ ذـاك بـوضـوح فـي الفـصـل الـذـي عنـوانـه : (الدـعـوة فـي عـهـد الرـسـول وـأـسـالـيـب نـجـاحـها) .

وـعـلـى ذـاك فـنـحن لاـ بـالـغـ إذاـ قـلـناـ أـنـ الإـعـلامـ الـإـسـلـامـيـ هوـ الـذـي وـضـعـ النـوـاـةـ الـأـوـلـىـ لـفـنـ الـعـلـاقـاتـ الـإـنـسـانـيـ بشـقـيهـ : الـعـلـاقـاتـ الـدـاخـلـيـةـ وـالـعـلـاقـاتـ الـخـارـجـيـةـ ، كـماـ أـنـهـ وـضـعـ الـأـسـاسـ الـأـوـلـىـ لـفـنـ الدـبـلـوـمـاسـيـةـ وـالـعـاـمـلـ الـإـنـسـانـيـ الـمـتـحـضـرـ مـعـ الـآـخـرـينـ .

وـالـحـقـيقـةـ أـنـ عـبـرـيـةـ الـدـيـنـ الـإـسـلـامـيـ عـبـرـيـةـ إـعـلـامـيـةـ فـي جـوـهـرـهـ كـماـ أـشـرـنـاـ كـمـذـكـرـ إـلـىـ أـنـهـ لـمـ تـكـنـ سـحـرـاًـ كـماـ كـانـ الـأـمـرـ فـيـ الـمـوـسـوـيـةـ فـيـ عـصـرـ فـرـعـونـ مـصـرـ الـمـعـرـوـفـ بـاسـمـ «ـمـنـفـاتـاحـ»ـ وـلـمـ تـكـنـ الـمـعـجزـةـ طـبـاًـ كـماـ كـانـ الـأـمـرـ فـيـ الـمـسـيـحـيـةـ أـيـامـ الـرـوـمـاـنـ .

ثـمـ إـنـ الرـسـولـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ فـطـنـ كـمـذـكـرـ إـلـىـ أـهمـيـةـ الشـرـحـ

والتفسير باعتباره جزءاً من الإعلام ، وكان يبعث بالوفود من القراء والفقهاء لتفسير الدين وشرح القرآن الكريم ، كما يفعل خبراء الإعلام من المعلقين والممثلين في العصر الحديث .

وأختصار نجد أن هذه الوسيلة من وسائل الإعلام كانت من أبرز صور النشاط الإعلامي الذي مارسه الرسول ومارسه الحفاء الراشدون وعليها أن نقيم الأدلة على صدق هذه القصصية ، وذلك من حياة الرسول وأصحابه على النحو التالي :

١ - فن ذلك أن الرسول كان يحسن استقبال الوفود العربية التي تفد إليه في المدينة وترغب في اعتماد الإسلام على يديه .

٢ - ومن ذلك أيضاً أن الرسول حاول أن يوجد نوعاً من التأني بين المهاجرين والأنصار منذ هاجر وهو وصاحبه أبو بكر من مكة وتبعده أصحابه من المكين في ذلك .

٣ - ومن ذلك أن الرسول حاول أن يوجد نوعاً من العلاقات السياسية بينه وبين اليهود المقيمين معه في المدينة ، وذلك بقصد التعايش السلمي معهم كما نقول في لغة العصر الحاضر .

٤ - ومن ذلك ما أشرنا إليه منذ حين - من أن الرسول نجح في إيجاد العلاقات الدبلوماسية بينه وبين أمراء العرب ، ثم بينه وبين ملوك الحبشة وملوك الروم وكسرى وعزيز مصر وغيرهم من الملوك المعروفين في زمانه ، وكل هذه الجهود التي بذلها الرسول تعتبر في نظر الباحث الحديث صوراً من العلاقات الإنسانية .

٥ - ثم من ذلك طريقة المصادرة ، والمعروف أن النبي ﷺ كان له زوجات كثيرة ، ولكن ذلك لم يكن دليلاً على ميله لأشهواط - ولو كان من طريق الحال - ولكن ذلك كان نوعاً من أنواع العلاقات الإنسانية كما سنشرح ذلك فيما بعد .

والواقع أن كل فكرة جديدة أو عقيدة جديدة لا نستطيع أن نجد لها

غنى عن فن العلاقات الإنسانية ، وهذا كلام ينطبق على كل نظام جديد . أو كل حكومة جديدة أو كل فرقة من الفرق السياسية أو الاجتماعية أو الدينية . تظهر في المجتمع .

ولذا كانت العلاقات الإنسانية بشقيها يمكن مزاولتها في العصر الحديث عن طريق الصحف والإذاعة . ونحو ذلك فإن العصوب القديمة كانت تزاولها بالطرق التي تيسر لها إذ ذاك كالخطابة ، والشعر ، والندوات والزيارات الرسمية . ومنها الزيارات التي كان يقوم بها عمر بن الخطاب إلى الأقاليم الإسلامية من حين لآخر رغبة منه في الوقوف على أخبار الرعية من جهة ، وتوطيداً للعلاقات الإنسانية بين المسلمين وولاتهم في هذه الأقاليم من جهة ثانية .

ونقطة أخرى لا بد من توضيحيها في مجال العلاقات الإنسانية بمفهومها في العصر الذي نعيش فيه : فهناك المؤسسات الحكومية أو الأهلية . وهناك المنظمات أو الجمعيات التي تهدف إلى الأرباح المالية من طريق التسويق . والتسويق وحده قبل أي شيء ، ومن الأمثلة على هذه المنظمات ما تراه من الشركات التجارية أو المنشآت الصناعية ، وكل هذه الشركات أو المنشآت في العصر الحاضر إنما تحتاج إلى قوتين في وقت معاً ، هما قوة الإدارة من جانب ، وقوة العلاقات العامة من جانب آخر .

غير أن هناك منظمات ومؤسسات ليست بحاجة إلى الربح المالى ومن الأمثلة عليها الجامعات والمستشفيات والجمعيات الخيرية كالمبرات ونحو ذلك ، ومن غير المعقول أن يكون بهذه المنظمات هدف إلى الكسب المادى ، أو بعبارة أخرى ليس لها هدف التسويق ، فالجامعة عملها نشر العلم ، والمستشفى لعلاج المرضى ، والمبرة أو الجمعية الخيرية لمساعدة الفقراء ، وهكذا .

والمنظمات الفكرية والفرق المذهبية لا بد أن تكون من النوع الأخير ، ليس لها هدف التسويق وإنما هدفها الوحيد هو ترويج المذهب الجديد أو (م ٧ - الإعلام في صدر الإسلام) .

العقيدة الجديدة ونحو ذلك ، ومن هذا القبيل تلك الدعوة التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي الدعوة إلى الإسلام ، ومن أجل ذلك مارس الرسول فن العلاقات الإنسانية بالطرق التي أشرنا إليها ، وكان يعتبر بالأنبياء الذين سبقوه إلى مثل هذه الدعوة ، فلا يطلب من العرب أجراً على الجهد الذي يبذله في سبيل الدعوة ، بل كان يقول لهم ما قاله الأنبياء من قبله : (قل ما أسلكم عليه من أجرا فهو لكم ، إن أجرا لا على الله ، وهو على كل شيء شهيد) .

* * *

بقي أن نستشهد ببعض الأمثلة على هذه العلاقات الإنسانية التي زاولها الرسول عليه السلام وقام بها بعض الخلفاء من بعد ، وسنكتفي بالأمثلة الآتية :

أولاً : طريقة القراء أو الفقهاء الذين يبعث بهم الرسول إلى القبائل العربية التي اعتنقت الإسلام ، وكان على أولئك الفقهاء أن يقوموا بأعمال كثيرة منها :

شرح تعاليم الدين الجديد ، وتفسير بعض آيات القرآن وبيان الحديث الشريف ، ومنها تقوية الروابط بين أفراد هذه القبائل من ناحية والنبي وصحابه وبقية المسلمين من ناحية ثانية ، وإذا كان المدف الأول من العلاقات العامة في كل زمان ومكان هو إيجاد هذه الروابط الإنسانية السليمة في المجتمع وضمان التفاهم الصحيح بين طرفين هما : الطرف الذي يمثل مصدر الرسالة أو المرسل (بكسر السين) والطرف الذي يمثل المستقبل (بكسر الباء) نقول إذا كان هذا هو الهدف الأول والأخير من العلاقات العامة ، فقد ثبّح مبعوثو الرسول في أداء هذه المهمة كل النجاح ، وواجهوا في سبيل هذه الغاية حق الجهد ، وقد وطّنوا أنفسهم على التعرض لكل الأخطار في سبيل ذلك .

والحق لقد كانت هذه المهمة الجليلة محفوظة بالأخطمار العظيمة . فقد كان بعض الحوننة غلاط الأكباد من العرب يستدعون الفقهاء بقصد التفقه في

الدين فإذا خلوا بهم قتلوا هم غدرآً ووحشية وانتقاماً من الإسلام ، حدث حادث كهذا في مكان. يقال له (بئر معونة) وذلك في صفر من السنة الرابعة للهجرة (١) وتعرف هذه الواقعة بسرية القراء « وكانوا سبعين قارفاً يؤلفون هذه السرية » .

فقد قدم أبو براء — سيد قبائل بنى عامر — إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه هدايا ، وطلب من النبي أن يبعث معه بعض رجال من الصحابة إلى أهل نجد فخاف النبي على أصحابه أن يغدر بهم أهل نجد ورفض الهدايا ، كارضى أن يبعث برجاله ، ولكن أبا براء أجازهم وضمن سلامتهم ، فبعث النبي معه سبعين رجلاً من خيار المسلمين ، فلما وصلوا إلى بئر معونة وجدوا أنفسهم محاصرين بجيش كبير ، وضررت أعناق الرجال الأبرار الذين كانوا يحملون رسالة السماء ولم يفر منهم لا كعب بن زير وعمرو بن أمية ، فبلغ النبي خبرهم فوجد لهم أشد الوجد وحزن عليهم أعمق الحزن وقال: هذا عمل أبي براء ، فقد كنت لهذا أكارهاً متخفقاً ، فبلغ أبا براء ما قاله النبي عليه السلام فات عقب ذلك أسفًا على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيلي .

ووقدت مأساة كهذا في الرجيع وهو اسم ماء هذيل بين مكة وعسفان (١) غير أن وقوع هاتين الحادثتين المؤلمتين اللتين تركتا في النبي عليه السلام أعمق الأسى والحزن لم يمنع النبي من المضي في خطته هذه ، وإرسال القراء إلى القرى العربية للقيام بإلقاء المسلمين مبادئ الدين ، وإلقاء المشركين أنهم لن يزعزوا عقائد المسلمين عن طريق الغدر والخيانة التي يمكثها هذا الدين ولا يقرها ولا يعتمد عليها ، ويحمل محلها وسيطة من وسائل الاتصال بالناس سعيًا وراء نشر الدين وغرس الفضائل الحقيقية التي يغرسها في نفوس المسلمين ، وهي طريقة العلاقات الإنسانية هذا

ثانيةً : وتعنى بها المصادرات التي عقدتها الرسول مع بعض الصحابة من جانب ، وبعض القبائل العربية من جانب آخر .

(١) بئر معونة : مكان ببلاد قبيلة هذيل بين مكة وعسفان .

فقد أصهر النبي إلى بكر وعمر وإلى عثمان ، كما أصهر النبي إلى بعض القبائل العربية ، ليس ذلك لرغبة في اللذة أو الرغبة في المال أو الجاه أو السلطان أو غير ذلك من الأغراض التي تدفع الناس إلى الزواج ، ولكن التقوية الروابط بينه عليهما السلام وبين جميع هؤلاء ،

وصحيغ أن الناس في عصرنا هذا قد لا ينظرون إلى المصاورة بمثل هذه النظرة ، ولكن يرون الملوك والرؤساء في جميع عصور التاريخ يعتقدون بهذه الزيجات لتقوية العلاقات الودية بين دولتين من الدول ، أو بلدين من البلاد ، ويرون بأعينهم أن هذه الطريقة أكبر الأثر في الوصول إلى هذه النتائج ، وفي حياة الرسول عليهما السلام شواهد كثيرة على صدق ما نقول ، ونكتفي منها بشاهد واحد يغنى عن بقية الشواهد الأخرى ، ويتبين ذلك في غزوة بنى المصطلق :

وقدت هذه الغزوة في السنة الخامسة للهجرة . وبنو المصطلق فرع من قروع خزاعة ، وهي قبيلة مرتيبة مع النبي برباط تحالف وثيق ، كان سيدهم الحارث من بنى ضرار ، وكان يجمع الجيوش لقتال المسلمين ؛ بوكان ذلك في الأعم الأغلب من تحريض قريش . فسمع النبي بذلك واستوثق من صحته ، فأسرع إلى الخروج من المدينة ليأخذ جيوش الحارث على غرة ، افتر الحارث بجيشه ولكن سكان المكان الذي يعيش فيه الحارث - باسمه المربيع ، ويبعد تسعة أيام من المدينة أبووا على أنفسهم إلا أن يحاربوا المسلمين ، فانهزموا ووقع في أيدي المسلمين منهم سهاته أسير ، كان من بينهم جويرية بنت الحارث ، فدفع النبي فديتها فطلبت منه الزواج بها فتزوجها . فلما شاع خبر زواجهها من الرسول عليهما السلام أطلق المسلمون من أهلهم من الأسرى إكراماً لمصاورة النبي إلى بنى المصطلق :

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « لقد أعتق بزواج الرسول من جويرية أهل مائة بيت من بيوت بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة أعظم على قومها بركة من هذه المرأة » .

ثالثاً : وكما كان الرسول ﷺ نموذجاً أعلى للعلاقات الإنسانية —
كما رأينا — فكذلك كان صاحبته من بعده ،

ولعل حاكماً من الحكام لا يرام منه أن يبلغ في البر بمخالفته في الدين
مبلغاً أكرم ولا يرقى مما وصل إليه عمر ، فقد أجرى الصدقة على فقراء اليهود
والنصارى ، ومن ذلك كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : أنه أجرى
الصدقة على شيخ يهودي مكفوف البصر ، وقال في ذلك : ما أنصفناه أن
أكلنا شببنته^(١) ثم نخذه عند الهرم .

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من النعيمين والمعوزين . ففر في
أرض دمشق بقوم مجذدين (أي مصابين بمرض الجذام) من النصارى فأمر
بإعطائهم من الصدقات ، وأن يحرى عليهم القوت ، وله - رضي الله عنه -
عن هذا الباب نوادر وأخبار لا يتسع لذكرها هذا الكتاب .

ألا ما أعظم العلاقات الإنسانية وما أقوى سرها وما أبيل مقصدها في
مجال الإعلام والاتصال بالناس ! وصدق من قال : إن شرف الوسيلة من
شرف الغاية التي تهدف إليها .

؟

(١) أكلنا شببنته : بمعنى انتفعنا به أو انتعمت الدولة به في شبابه حتى هزم :

الباب الثاني

الدعوة في عهد الرسول وأساليب نجاحها

٠ يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله
بإذنه وسراجاً منيراً ٠ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ٠
ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاتهم وتوكل على الله وكفى
بالله وكيلاً ٠

(صدق الله العظيم)

نیویورک

الدعاة والإعلام والدعائية في الإسلام

ما لا ريب فيه أن الإسلام كان ثورة كبيرة اعتمدت في نجاحها على طرقين لثالث هما . وها :

الكلمة من جهة ، والسيف من جهة ثانية ، وسننظر في هذا البحث إلى غزوات النبي ﷺ على أنها كانت هي الأخرى ضرباً من ضروب الدعوة للنشر الإسلام ، وقد ثبت من التاريخ أن هذه الغزوات التي قام بها الرسول ﷺ لم تكن لها غاية وراء ذلك .

أجل -- انتشرت دعوة الإسلام بالوسائل المعروفة في ذلك الوقت ، ولكن كان القدماء منذ ظهور الرسول لا يعرفون هذا المصطلح الحديث: مصطلح الإعلام والاتصال بأنواعه الثلاثة: الشخصي والجماعي والجماهيري . واستخدمو ما كانه المصطلح المعروف عندهم وهو مصطلح الدعوة ، والدعوة إلى شيء هي التزغيف في هذا الشيء . أو بمعنى آخر الدعاية له . ونحن لأنفسنا إلى الدين إذا قلنا أن العمل الذي قام به الرسول السكريم من أجل هذا الدين هو دعاية طيبة له ما دامت الدعاية في ذاتها لها معنىان على الأقل : الدعاية الطيبة أو البيضاء . والدعاية الخبيثة أو السوداء ، ونحن نعلم علم اليقين أن الرسول كان مسؤولاً أمام ربـه عن عمل واحد فقط هو الإعلام أو التبليغ ، قال تعالى : « إن عليك إلا البلاغ » وقال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهـى من يشاء » وانـلاصـة أـنـنا مع الـقدـماءـ في إـطـلاقـ اسمـ (الـدـعـوـةـ) عـلـىـ الـجـهـودـ الـتـيـ بـلـنـظـاـ الرـسـوـلـ ، وـلـسـنـاـ نـمـيلـ إـلـىـ تـسـميـةـ هـذـهـ الـجـهـودـ الـنـبوـيـةـ بـغـيرـ هـذـاـ الـاسـمـ وـهـوـ (الـدـعـوـةـ) بـمـعـنـىـ الـاتـصـالـ وـالـدـعاـيـةـ لـهـذـاـ الـدـيـنـ . حتى ، يـعـرـفـهـ النـاسـ :

وقد مارس الرسول طائفة من طرق الدعوة والاتصال بالناس في سبيل نشر الدين ، ويشرح هذا البحث كيف نجح الرسول في كل ذلك بجهاجاً منقطع النظير ، وكيف أن الله تعالى زوده بجميع الأخلاق التي لا بد منها للداعي إلى هذا الدين الجديد ، وربما كان من أولى الصفات التي يحتاج إليها الداعية المثالى صفة (الصدق في القول) وصفة (الصبر على العمل) . ونحن نعلم جيداً أن الجهد الذى بذلها الدعاة ورجال الإعلام والاتصال بالجماهير لا تكمل بالنجاح ما لم تعتمد على قاعدة الصدق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؛ ولذلك كانت هذه الصفة من أولى صفات الرسل والأئمأة كما حدثنا القرآن الكريم .

وكان عليه مثلاً أعلى في هذه الصفة بنوع خاص ، ومن أجل هذا صدقه العرب حين جاءهم برسالة السماء ؛ بل من أجل ذلك لم يكن عبثاً ولا من قبيل الصدف أن وجدنا محمدًا عليه الصلاة والسلام في بداية المرحلة العلنية من مراحل الدعوة الإسلامية يقف بين أهله وعشيرته ويبدأ الحديث معهم بقوله لهم :

هل سمعتموني يوماً أقول كذباً ؟ قالوا : لا ، إننا لم نعرف عنك غير الصدق ، ثم سأ لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً يسفح هذا الجبل ، أكنتم تصلكونني ؟ قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم ، ثم أدلّ لهم بالرسالة التي بعثه الله بها على الفور .

معنى ذلك في نظر رجل الإعلام أن الاتصال بالناس لا يقوم إلا على الثقة التامة بين مصادر الرسالة من جهة ، والجمهور الذي يتلقى الرسالة من جهة ثانية .

ومعنى ذلك أيضاً أن الإعلام بمعناه السليم هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات الصحيحة والحقائق الثابتة التي تساعد الناس على تكوين رأي صائب في واقعه من الواقع ، أو مشكلة من المشكلات ، فإذا خلت هذه العملية الإعلامية من الصدق لم تصبح إعلاماً بمعنى الصحيح ،

بل هي نوع آخر ، كأن تكون تصريحلاً للمجتمع ، أو مؤامرة سوداء ضد هذا المجتمع ونحو ذلك ، وقد برئت الدعوة الإسلامية من مثل هذه الصفات ، ولذا كتب لها النجاح التام ، ذلك أنَّ مُحَمَّداً كان كما قلنا — مثلاً أعلى في الصدق إلى الحد الذي جعل العرب يصدقونه في كلامه ، ولو جاء بخبر النساء .

والذى نريد أن نخلص إليه من هذا الحديث الذى سقناه إلى الآن هو أن ما قام به الرسول من الجهد لنشر الإسلام كان (إعلاماً) صرفاً بلغة العصر الحاضر ، (دعوة) صادقة بلغة المسلمين فى العصور التى سبقتنا ، وحسبنا أن نعرف أنه كان من أهم الوسائل الإعلامية التى أتيحت للرسول إذ ذاك وسيلة (القرآن الكريم) والقرآن الكريم (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه تنزيل من حكيم حميد) ، ثم في عهد الخلفاء الراشدين انقطع الوحي ، وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى فانقطع بذلك مصدر ثان من مصادر الإعلام والاتصال بالناس على أحسن صور هذا الاتصال ، وهذا المصدر الأخير هو الرسول نفسه ، ولكن القرآن الكريم والحديث بقيا بعد وفاة النبي نبراساً لجميع المسلمين منذ عصر الخلفاء الراشدين يعتمدون عليهما في هداية المسلمين وجذبهم إلى المثل الأعلى .

ثم أضيف إلى هاتين الوسائلتين من وسائل الإعلام وهما القرآن والسنة وسائل أخرى مارسها الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم من الملوك والسلطانين قد شرح البحث أمثلة منها ، غير أنها سترى بوضوح أن تلك العصور التي أتت بعد الرسول لم تعد قادرة على الاعتماد على الإعلام وجده من ضروب الاتصال بالناس — ولكنها احتاجت إلى الاعتماد على (الدعائية) . معنى ذلك أنَّ الخلافة في الإسلام لم تجد لها غنى عن هذه الوسيلة التي يحتاج إليها كل نظام جديد من أنظمة الحكم في أي زمان ومكان ، ومن ثم كان الفرق عظيماً بين (الدعوة) في عهد الرسول (والدعائية) في عهد الخلفاء

والملوك والسلطانين ، غير أن الاعتماد على الدعاية وحدها لم يظهر بوضوح كما ظهرت منذ نشوء الدولة الأموية ثم العباسية ثم الفاطمية ، أو بمعنى آخر منذ تحولت الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض كما يقول المؤرخون السابقون :

والذى لاشك فيه أن الدعاية قوة سياسية كبيرة فى وسعها أن تقيم دولاً وأن تهدم أخرى ، وفي وسعها أن تنشر مذهبًا وأن تقتل آخر ، ومن ثم كانت الدعاية هي الدعامة التي قامت عليها جميع الدول الإسلامية منذ أن انتهى العهد بدولة الخلفاء الراشدين ، وكان من أقوى العوامل التي جعلت للدعاية كل هذه القوة والأهمية انقسام المسلمين إلى فرق دينية وحرص كل واحدة منها على أن تظهر على جميع الفرق الأخرى ، فلقد كانت الدولة الأموية عثمانية الهوى تكره علياً وأولاده وأتباعه كل الكراهة ثم جاءت الدولة العباسية فكانت تتظاهر بالتشيع لآل البيت أول الأمر حتى إذا نجحت في الوصول إلى غايتها التخذلت من (الاعتزاز) مذهبًا لها، ودعت له وحاربت جميع المذاهب المختلفة ، ثم في عهد الفاطميين كان المذهب الشيعي هو المذهب الذي اعتنقته الدولة ، ثم جاء صلاح الدين فأعاد الناس إلى المذهب السنى وهكذا ٠٠٠

والنتيجة التي نخرج بها من هذا الحديث هي أن الفرق عظم بين الدعوة والإعلام ، والدعاية . فالدعوة هي الجهد الذي يبذلها أصحاب الأفكار الجديدة أو العقائد الجديدة أو المذاهب الجديدة ومن أعظم الأمثلة عليها الدعوة التي أتى الرسول لنشرها وهي دعوة الإسلام ، والإعلام هو الجهد الذي يبذلها الناس لتأييد هذه الأفكار أو العقائد أو المذاهب ٠٠ ومن ذلك جميع الجهد الذي يبذلها الخلفاء الراشدون – وكثيرهم من صحابة النبي وحواريه – في تثبيت هذا الدين الجديد وذلك بعد أن فرغ الرسول من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة والقيام بالدعوة على أحسن وجه . والدعاية هي الأسلوب الذي يروج لفكرة أو عقيدة أو مذهب أو يدحض كل ذلك عن طريق التأثير

في عواطف الفرد أو الجماعة واستهواها بقدر المستطاع ، ومن ذلك ما فعلته
المخلافة الأموية وما تلاها من الحكومات الإسلامية على اختلافها إلى اليوم .
ولقد قامت كل من الدعوة والإعلام والدعائية على فن الاتصال بالغير ،
وهو أنواع ثلاثة — الاتصال الشخصي والاتصال الجماعي والاتصال
الياجبيهير . والعصور القديمة هي التي عرفت النوعين الأولين الشخصي .
والجماعي . والعصور التي نعيش فيها هي التي انفردت بالاتصال بالمجاهير ،
وذلك منذ اختراع الوسائل الحديثة للإعلام مثل الصحف والراديو
والتلفزيون وهي الأجهزة التي تستطيع الاتصال بالمجاهير التي تعد
بالملايين .

معنى ذلك باختصار أن الاتصال في الإسلام مر بهذه الأطوار الثلاثة :

الأول : طور الدعوة الإسلامية ، وهو خاص بحياة النبي ﷺ وبه
سميت جميع الجهود التي بذلها في سبيل هذا الدين المجديد .
الثاني : طور الإعلام وبه سميت معظم الجهود التي بذلها الخلفاء
الراشدون وهم الذين كانت حياتهم في جملتها صورة من حياة الرسول ،
أو على الأقل حرصوا كل الحرص أن تكون حياتهم كذلك .
الثالث ، طور الدعائية — وعليه قامت المخلافة الإسلامية والمالك
والإمارات في الإسلام منذ معاوية بن أبي سفيان رئيس المخلافة الأموية إلى
يومنا هذا .

أجل — كان الطور الأول من أطوار الاتصال في الإسلام هو طور
الدعوة ١٠ ونري بأن نستشهد على ذلك بالقرآن الكريم نفسه — فنفح إذا تبعنا
القرآن نفسه من حيث تاريخ النزول وجدنا أن أول سورة نزلت على
الرسول هي سورة (اقرأ) وهي السورة التي أعلمنته صلوات الله وسلامه
عليه بالرسالة ، وبأنه مبعوث من قبل الله تعالى لنشر دعوة جديدة وهي
الدعوة إلى الإسلام .

* ثم تلتها في النزول سورة المدثر وفيها يقول الله تعالى ، « يا أيها المدثر »

قُمْ فَأَنذِرْهُ وَرَبُّكَ فَكِبِرْهُ وَثِيَابُكَ فَطَهَرْهُ وَالرِّجْزُ فَاهْجُرْهُ وَلَا تَمْنَنْ تَسْتَكْثِرْهُ
وَرَبُّكَ فَاصْبِرْهُ .

ولَا بَأْسَ مِنَ الْوَقْوَفِ قَلِيلًا أَمَامَ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ لِأَنَّ فِيهَا إِشَارَةً
إِلَى تَكَلِيفِ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولِهِ مُحَمَّدًا بِنَسْرَ الدُّعَوَةِ وَفِيهَا إِشَارَةً أَيْضًا إِلَى الْأَسْلَحَةِ
الَّتِي لَا بُدَّ لَهُ صَلِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنْ يَتَسَلَّحَ بِهَا فِي الْقِيَامِ بِهَذَا الْعَمَلِ .

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُمْ فَأَنذِرْ) أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بِأَنْ يَنذِرَ النَّاسَ
بِعَنِ الْقِيَامِ بِإِعْلَامِهِمْ وَتَنْبِيَهِمْ إِلَى الدُّعَوَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْذَارَ فِي
الْلُّغَةِ هُوَ الْإِعْلَامُ وَالْتَّنْبِيَهُ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الْإِرْهَابُ وَالتَّخْوِيفُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ فِي أُولَى خَطُوطِهِ مِنْ خَطُوطَهِ لَيْسَ بِمُحَاجَةٍ
إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْأَخِيرِ ، وَالرَّسُولُ نَفْسُهُ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَفْتَنَعْ رِسَالَتَهُ عَلَى
هَذَا النَّحوِ .

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَرَبُّكَ فَكِبِرْ) أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ أَنْ يَكْبُرْ
رَبَّهُ وَيَعْظِمْهُ وَيَقْدِسْهُ ، فَهَذِهِ هِيَ الْعِقِيدَةُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي بَعَثَ بِهَا رَسُولُهُ .

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَثِيَابُكَ فَطَهَرْ) أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَقْرُمْ
بِتَطْهِيرِ نَفْسِهِ مِنْ جَمِيعِ الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي وَأَنْ يَحْرُرَهَا مِنْ كُلِّ دُنْسٍ ، وَالْعَرَبُ
تَقُولُ فَلَانْ طَاهِرُ الشُّوْبَ ، أَوْ الدَّلِيلُ كَنَاءَةٌ عَنْ أَنَّهُ شَرِيفٌ طَاهِرٌ النَّفْسُ وَذَلِكَ
أَنَّهُ لَا يَلْازِمُ الْإِنْسَانَ فِي جَمِيعِ أَطْوَارِ حَيَاتِهِ مَلَازِمَةٌ تَامَّةٌ شَيْءٌ مُمْلِئٌ ثِيَابَهُ ،
فَكَائِنًا عَنْوَانَ لِذَاتِهِ .

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَالرِّجْزُ فَاهْجُرْ) وَنَرِى أَنَّ الرِّجْزَ فِي الْلُّغَةِ هُوَ الْعَذَابُ
وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْبَعْدُ عَنِ الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي تُسَبِّبُ لِلْإِنْسَانِ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، فَهُنَّ فِي الدُّنْيَا تَهْلِكَتُ الْجَسْمَ ، وَتَبَدَّلَتِ الْقُوَّةُ وَالْعَافِيَةُ وَتَهَدَّدَ كِيَانُ
الْإِنْسَانِ وَتَوَهَّنَتِ الْقُوَّى ، وَفِي الْآخِرَةِ تُعرَضُ الْمَرْءُ لِعَذَابِ جَهَنَّمِ .

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَا تَمْنَنْ تَسْتَكْثِرْ) أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ الْأَمِينِ
(أَلَا يَضُعُفُ) لِأَنَّهُ إِذَا أَظْهَرَ الْفَضْلَ الْمُضْعُفَ أَمَامَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ أَخْذَ يَسْتَكْثِرُ
أَعْبَاءَهَا وَيُسْتَطِيلُ طَرِيقَهَا وَيَظْنُنُ نَفْسَهُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَيْهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ :

ثم في قوله تعالى لرسوله (ولربك فاصبر) أمر آخر من الله تبارك وتعالى لرسوله أن يصبر على أعباء الرسالة ويوطن نفسه على تحمل هذه الأعباء ولا سبيل له غير ذلك .

يقول الأستاذ عبد الوهاب حمودة تعليقاً على هذه السورة الكريمة ما معناه :

إن نجاح أي دعوة من الدعوات إنما يكون بطريق الاتصال المباشر بشرط أن يتسلح الداعي بأسلحة ثلاثة :

الأول : سلاح العقل الذي يهدى صاحبه إلى الدعوة الجديدة أو العقيدة الصحيحة وهي هنا في سورة المدثر عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام .

والثاني : سلاح النفس يعني تحريرها من الأخلاق السيئة والعادات البدنية التي كان عليها العرب في الجاهلية وقت ظهور الدعوة .

والثالث : سلاح البدن وذلك بمحاباته من الآثام التي تهلك الأجسام وتهدم كيانها وتوهن من قوتها فلا يستطيع صاحبها أن يقوم برسالة أو ينشر دعوة ،

ويضاف إلى ذلك أن السورة الكريمة أشارت إلى سلاح رابع له أهميته وخطره في هذا الحال ، وهذا السلاح الرابع والأخير هو سلاح الصبر وبدونه لا يستطيع النبي أن يؤدي رسالته ولا يقوى زعيم من الزعماء على أن ينفذ خططه .

وننظر بعد ذلك نظرة إجمالية في الآيات القرآنية التي تحمل معنى (الدعوة) فنجد بعض هذه الآيات نزلت بمكة المكرمة حيث كان النبي ﷺ يجاهد المشركين في ظلام ويلقي منهم من ألوان العنت والتعذيب ما تمتليء به كتب السيرة ، ومن هذه الآيات قول الله تبارك وتعالى ،
« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادهم بما هي أحسن » .

وقوله : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لئن شئت منه مریب * فلملنك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

والأيات المكية كلها تدعوا إلى نشر العقيدة الجديدة بالطرق السلمية ، أما الآيات المدينة فقد نزلت على الرسول الأعظم بالمدينة المنورة بعد أن أصبح في ذروة القوة ولهجتها مغيرة للهجة الآيات التي نزلت عليه في مكة المكرمة ومنها :

« وقل للذين أتوا الكتاب والأميين أسلتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (سورة آل عمران آية ٢٠) : وقوله تعالى : « لکل أمة جعلنا منسّكاً هم ناسكونه ، فلا ينزع عنك فی الأمر ، وادع إلى ربک إنك لعلى هدى مستقيم » وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » (سورة الحج ٦٧ - ٦٨) .

وقد أتى الأستاذ أرنولد بمعظم الآيات السابقة ثم قال : (١) ينبغي ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في آثار الحارب المسلم – ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه وحمل القرآن الكريم في اليد الأخرى ، وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الهدية التي قام بها الدعاة الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض . . وقد جاء بها القرآن الكريم مشدداً في الحضن على هذه الطرق السلمية كما يدل على ذلك قوله تعالى :

« واصبر على ما يقرون واهجرهم هجرأ جميلاً وذرني والمكذبين أولى النعمة وأمهلهم قليلاً » (سورة المزمل آية ١٠ - ١١) .

وقوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون » (سورة الجاثية آية ١٤) .

(١) توomas أرنولد – الدعوة إلى الإسلام – ترجمة إبراهيم زعبي المجيد عابدين، وسامعيل النحراري ص ٢٨ .

وقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ أُشْرِكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آباؤُنَا ، وَلَا حَرَمَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » (سورة النحل آية ٣٥) .

وقوله تعالى : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوكُمْ وَقُولُوكُمْ وَآتَيْنَا بِالَّذِي أُنْزَلَ إِلَيْنَا وَأُنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (سورة العنكبوت آية ٤٦) .

وقوله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمِنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (سورة يومنس آية ٩٩) .

كل هذه الآيات المتقدمة في الحض على الطرق السلمية نزلت على الرسول ﷺ ، وبالمدينة المنورة نزلت عليه آيات في هذا المعنى ومنها قوله تعالى :

« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تُولُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حَمَلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تُهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » (سورة النور آية ٥٤) .

على أن الدعوة التي بعث بها محمد - وهي دعوته للإسلام لم يقصد بها العرب وحدهم دون غيرهم ، بل كانت دعوة للناس كافة ، لا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم من الأمم .

فانظر إلى قوله تعالى في وصف القرآن الكريم :

« إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرُ الْعَالَمِينَ » . (سورة ص ، الآية ٨٧)

وقوله تبارك وتعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » .

وقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافِةً لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » . (سورة سبأ الآية ٢٨)

وقوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » . (سورة الأعراف الآية ١٥٨)

الفصل الأول المرحلة السرية

تقول دائرة المعارف البريطانية في مادة (قرآن) « جاء محمد بدعوة جديدة هي دعوة الإسلام ، وكان هذا الرسول أوفى الأنبياء والشخصيات الدينية حظاً من النجاح . فقد أنجز في عشرين عاماً من حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين اليهود والنصارى رغم السلطة الزمنية التي كانت تساند هؤلاء ، ورغم أنه كان أمام الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والقمار ومعاقرة الخمور ، وأضطهاد الضعفاء ، والحروب الكثيرة بين القبائل العربية ومئات الشرور الأخرى » .

هذا ما جاء في دائرة المعارف البريطانية نقلناه بنصه ؛ ونضيف إلى ذلك أن هذا النجاح الكبير الذي صادفه الرسول لم يتم إلا بتوفيق من الله تعالى وبوسائط إعلامية كثيرة مارسها الرسول ، وكانت من رسم القرآن الكريم ووحيه وتحكيمه في أكثر الأحيان كما اتضح لنا ذلك في الباب الأول من أبواب هذا الكتاب ، وكما سيتضح لنا كذلك في فصول الباب الثاني ؛ وتحدثنا كتب السيرة أن هذه الدعوة سارت في أربع مراحل بنوع

خاص وهي :

١ - مرحلة الدعوة السرية .

٢ - مرحلة الدعوة العلنية .

٣ - مرحلة الاضطهاد الديني في مكة المكرمة .

٤ - مرحلة الهجرة .

٥ - مرحلة الاستقرار بالمدينة .

(٨٠ - الإعلام في صدر الإسلام)

وبدأ النبي حياته بالمدينة بسياسة رشيدة لا نعلم لها نظيرا في أي عصر من عصور التاريخ البشري ، وقد بنيت هذه السياسة على أمرين :

الأول : حركة المؤاخاة بين المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، والأنصار الذين هم السكان الأصليون بالمدينة المنورة والذين استقبلوا النبي أروع استقبال كما سيأتي ذكر ذلك .

والثاني : حركة التعايش السلمي بين المسلمين واليهود المقيمين بالمدينة ، وفي المدينة وبعد الاستقرار الذي أتى عقب الهجرة بدأت الغزوات أو الحروب التي دارت بين الرسول وأهل مكة ، ومن أهمها غزوة بدر ، وغزوة أحد وغزوة الأحزاب (أو الخندق) وفتح مكة وغزوة حنين ، وهي غزوات كان لا بد منها للمحافظة على الإسلام نفسه ، فلولاها لاستطاع المشركون في مكة أن يثدوا الإسلام في مهده .

غير أن الحديث عن هذه المراحل التي مرت بها الدعوة إنما يهم المؤرخين وكتاب السيرة بنوع خاص ، أما نحن فسننظر إلى هذه السيرة الحمدية من الزاوية الإعلامية ، أو بعبارة أخرى ننظر في وسائل الاتصال أو الإعلام التي مارسها الرسول في كل مرحلة من هذه المراحل ، وذلك بهدف واحد هو نشر الدعوة الإسلامية .

المراحل السرية :

لم يؤذن لرسول الله أن يجهر بدعوه في هذه المرحلة القصيرة وفيها لم يكن عمل القرآن إلا إعلام الرسول نفسه بأنه مكلف من قبل الله تعالى بأداء رسالة من الله ، وذلك منذ نزل عليه عليه السلام قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم » .
ومنذ ذلك الوقت علم محمد أنه مكلف بالرسالة .

ووصفت لنا كتب السيرة حالة النعور والاضطراب التي كان يشعر بها الرسول منذ نزول هذه السورة ، وتحكي لنا كتب السيرة أيضاً كيف

وَرَجَعَ إِلَى زَوْجِهِ خَدِيجَةَ وَهُوَ يَقُولُ لَهَا : « زَمْلَوْنِي دَثْرُونِي » لَهَا وَبِقِيَّ عَلَى هَذِهِ
الحَالِ حَتَّى أَفَاقَ مِنْ نُومِهِ وَرَجَعَ إِلَى حَالَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ .

ثُمَّ نَزَّلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

« يَا إِيمَانِهَا الْمَدْشِرُ » قَمْ فَأَنْدَرُ « وَرَبِّكَ فَكِيرُ » وَثِيَابُكَ فَطَهْرُ « وَالرَّجُزُ
فَاهْجَرُ » وَلَا تَمْنَنْ تَسْتَكْثِرُ « وَلَرَبِّكَ فَاصْبِرُ » .

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنْ شَرَحَنَا هَذِهِ السُّورَةَ فِي فَصْلٍ مِنْ فَصُولِ الْبَابِ الْأَوَّلِ
بِعِنْوَانِ « الاتِّصَالُ الْمُبَاشِرُ » مِنْ وَسَائِطِ الإِعْلَامِ الَّتِي مَارَسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَإِذْ ذَاكَ عَلِمَ الرَّسُولُ أَنَّهُ مَكْلُوفٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِإِعْلَامِ النَّاسِ بِهَذِهِ
الرِّسَالَةِ وَتَنْبِيهِمْ إِلَيْهَا ، وَكَانَ مِنَ الْأَمْرُوْنَ الْطَّبِيعِيَّةِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الإِعْلَامُ فِي
أُولَئِكَ الْأَمْرِ عَلَى نَطَاقِ ضَيْقٍ – أَعْنَى نَطَاقِ الْأُسْرَةِ وَنَطَاقِ الْأَصْدِقَاءِ الْخَلِصَاءِ –
وَلِنَذْكُرْ وَجَدْنَا أَنَّ أُولَئِكَ مِنْ آمِنِ بِهَذِهِ الدُّعَوَةِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ مِنَ النِّسَاءِ ، وَعَلَى
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الصَّابِيَّانِ ، وَأَبْوَ بَكْرٍ مِنَ الرِّجَالِ .
وَمِنْهُمَا يُكَنُّ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ السُّرِّيَّةِ
وَسَيِّلَتَانَ مِنْ وَسَائِلِ الاتِّصَالِ أَوِ الإِعْلَامِ وَهُمَا :

١ - وَسِيلَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

٢ - وَسِيلَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْأُولَئِينَ .

أَمَّا وَسِيلَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَقَدْ تَحْدَثَنَا عَنْهَا ، وَأَمَّا وَسِيلَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْأُولَئِينَ
فِيهِمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

« وَالسَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقْرَبُونَ » وَهُمْ دُعَاءُ الْإِسْلَامِ الْحَقِيقِيُّونَ
فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ السُّرِّيَّةِ مِنْ مَرَاحِلِ الدُّعَوَةِ ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمُ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ
زَوْجُهُ الرَّسُولِ وَأَبْوَ بَكْرٍ الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ وَعَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ ابْنِ عَمِ الرَّسُولِ
وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةِ عَتْيَقَةٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِ هُؤُلَاءِ رِجَالٍ كَثِيرِينَ ،
مِنْهُمْ عُمَانَ بْنَ عَفَانَ ، وَالزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَامِ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفَ ،
وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ ، وَطَلْحَةَ بْنَ عَبِيدِ اللَّهِ ، وَبَلَالَ الْحَبْشَى ، وَيَاسِرَ
(غَلامُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةِ) وَزَوْجَةِ يَاسِرِ وَاسْمُهَا شَمِيمَةٌ .

ثم كان من السابقين الأولين ، عبد الله بن مسعود وابن أبي الأرقام الخزومي ، وكانت دار هذا الأخير - وهو ابن أبي الأرقام - مركزاً للنشاط السري الذي كان يبذله الرسول من أجل الدعوة وذلك خلال سنوات أربع منذبعثة النبي ، حتى ليتمكن أن يقال أنه في السنوات الثلاث الأولى من هذه الفترة بلغ عدد الدين دخلوا الإسلام أربعين رجلاً وامرأة .

وفي السنة السادسة دخل الإسلام حمزة عم النبي وأخوه في الرضاع وعمر بن الخطاب وبه قوى ساعد المسلمين كما اعترف بذلك الرسول ، وقد بذل الجميع أقصى الجهد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية بهذه الطريقة السرية وكانت وسليتهم في كل ذلك (القدوة الحسنة) التي سبق أن قلنا أنها كانت من أقوى وسائل الإعلام في الإسلام ، وضررنا عليها المثل بأبي بكر الذي دخل معه في الإسلام هؤلاء الدين ذكرناهم عندما أشرنا إلى عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ... الخ .

فقد أسلموا جميعاً على يد أبي بكر الصديق ، وكانوا جميعاً من السادة المعروفيين في الجاهلية .

أما العبيد فقد اشتري أبو بكر عدداً كبيراً منهم بالأثمان الباهظة التي طلبها سادتهم ثم اعتقهم جميعاً بعد ذلك ، ودعاهم إلى دخول الإسلام فدخلوا طائعين مطمئنين .

كل ذلك وأهل مكة من كفار قريش لا يحسون بحركات الرسول أو على الأقل - لايعبأون بها ولا يقدرون نتائجها ، وبالفعل لو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الأمر على قريش ، ولما التفت عبدة الأصنام إلى هذا الخطر الداهم الذي يمكن وراء هذه الدعوة السرية مهما كان عدد الرجال المشغلين بها ؛ ومهما كانت أقدار هؤلاء الرجال المنتسبين إليها هـ

لقد كان من وراء كل رجل من أولئك الرجال الذين بادروا إلى قبول

الدعوة قصة عجيبة من القصص التي عنيت بها كتب السيرة ، ولكن البحث في الدعوة الإسلامية من الزاوية الإعلامية لا يعطينا الفرصة لإبراد هذه القصص الواقعية التي تقرن بكل شخصية من هذه الشخصيات الإسلامية القوية التي كانت من الشجاعة والجرأة بحيث تركت ما كان يعبد آباءها من الأصنام واستهانت بهذا التراث الضخم من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والميسر ، ومئات الشرور الأخرى كما جاء في دائرة المعارف البريطانية .



الفصل الثاني المرحلة العلمية

بقيت دعوة الإسلام تسرى في النفوس بقوة القرآن وشخصية الرسول ، وكل ذلك في نطاق سرى حتى نزلت على الرسول سورة من السور المكية وفيها قوله تعالى :

« وأنذر عشيرتك الأقربين * وانخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (١) .

وإذ ذاك علم الرسول أن الله تعالى يأمره بتوسيع رقعة الدعوة بعض الشيء ، في في هذه الآية الكريمة أمر من الله تعالى بأن يخرج الرسول من نطاق الدعوة السرية إلى نطاق الدعوة العلمية .

وينظر رجل الإعلام في هذه المرحلة فيجد أنه قد أضيفت إلى الوسائلتين السابقتين من وسائل الإعلام في المرحلة السرية - وهما وسيلة القرآن ووسيلة المؤمنين الأولين - وسائلان آخرين وهما :

١ - وسيلة الخطبة النبوية .

٢ - وسيلة الاتصال المباشر بجماهير الناس ، وذلك بأن يعرض عليهم نفسه على القبائل العربية ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الثورة .

وبالوسيلة الأولى من وسائل الإعلام في المرحلة العلمية وهي وسيلة الخطبة النبوية التي النبي عليهم أطلق البيان الأول لهذه الثورة - فقد صعد رسول الله عليهم يوماً جبل (الصفا) ونادى بأعلى صوته : يا معاشر قريش - قالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه يسألونه ماذا يريد ؟ فقال الرسول الأعظم : هل سمعتموني ذات يوم أقول كلباً ؟ فأجاب الحاضرون بصوت واحد :

(١) سورة الشعراء الآياتان ٢١٤ ، ٢١٥ .

لا... لم نعرف منك غير الصدق ؟ ثم سألهم الرسول : أرأيتم لو أخبرتكم
أن خيلا بسفع هذا الجبل - أكنتم تصدقونني ؟ فقال الجميع : نعم ،
أنت عندنا غير متهם ، وما جربنا عليك كذباً قط .

هنا استجمعت الرسول الصادق الأمين كل قوته وقال لهم :
فإنما لكم نذير بين يدي عذاب شديد ، ثم صاح بأعلى صوته وقال :
يا بنى عبد المطلب يا بنى عبد مناف يا بنى زهرة
يا بنى تميم يا بنى مخزوم يا بنى أسد
إن الله قد أمرني أن أنذر عشري الأقربيين ، وإن لا ملك لكم من
الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيحة ، إلا أن تقولوا « لا إله إلا الله » .
ثم أكمل بيانه هذا بأن دعاهم إلى نبذ الوثنية ، واجتناب الفواحش
والإيمان بوحدانية الله وانتهاج سبيل الخير .

وذلك هو البيان الأول - كما قلنا للثورة الجديدة - بلغة العصر الذي
نعيش فيه ٦

فيماها من دعوة خطيرة اهتزت لها أرجاء مكة ، وأشعل بها الرسول
أول شعلة أضياعات ظلمات الجاهلية ، ولكنها بعثت الحقد والغيبة والكمد
والغيرة في نفوس القرشيين - وخاصة الزعماء منهم - وكالمهم أقرباء الرسول
وعشيرته ، وكان أكثرهم حقداً عليه عمه (أبو هب) وزوجته .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت الخطبة النبوية من أقوى أسباب الدعوة
الإسلامية ، وما لا شك فيه أن هذه الخطبة الأولى أو البيان الأول للثورة قد
تبعته خطب كثيرة دعت إليها الظروف الجديدة - كما دعا إليها وقع البيان
الأول على نفوس القرشيين ، وقد أخذ هؤلاء يسأل بعضهم بعضاً عن
هذه الدعوة الجديدة وعن الأسباب التي حملت محمدآ للجهر بها من دونهم
وعن الغاية التي يهدف إليها من وراء ذلك ؟ فهل يهدف إلى نوع من
السيطرة عليهم في مكة المكرمة ثم فيها حوالها من المدن الأخرى ؟

أم هل يريد أن يستكثر من الأنصار والاتباع لغرض آخر من الأغراض الدنيوية التي يعرفونها في حياتهم؟

ما لاشك فيه أن الناس انقسموا في أمره قسمين فنهم من استنكرنداءه وأيقن في نفسه أنه سيرجع عن هذا النداء في أقرب الأوقات وهم الأكثريه ، ومنهم من أحسن لبيانه وقعًا جميلاً في أعماق نفسه ولكنه خشى أن يجاهر في قوله بهذا الشعور .

ولذلك تبعت خطب النبي في هذه المرحلة ، وتتابع نزول الوحي الذي رسم له سبيلاً وخطتها ، ومن ذلك قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وهكذا رسمت هذه الآية الكريمة للرسول العظيم طرق الدعوة العلنية وهي في مكة المكرمة ، وهي طريق الحكمة أو استخدام العقل في أكمل صوره ، وطريق الموعظة الحسنة أو إبداء النصح بإخلاص وصدق ، وفي شيء كثير من إظهار الحب والودة .

وطرق الجدل بالتي هي أحسن أو التحدث إلى القوم بالحسنى ، وذلك في يسر وهدوء وبتقديم البراهين والأدلة . وقد سار الرسول في دعوته على هذا النهج ، واسهالاً إليه قلوب العرب حتى استجاب له الكثيرون منهم .

عرض الرسول نفسه على القبائل العربية

أما الذريعة الأخرى من ذرائع الإعلام في هذه المرحلة العلنية فهي ذريعة الاتصال الشخصي المباشر بالعرب المقصودين بهذه الدعوة ، وبعبارة أخرى ، هي عرض الرسول نفسه على القبائل العربية .

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الوسيلة من وسائل الإعلام في صدر الإسلام وذلك في الباب الأول ، ولاشك أنها كانت من أحطر الذرائع الإعلامية في عصر تفشت فيه الأممية ، وانعدمت فيه وسائل الإعلام بالمعنى الذي نفهمه في المصور الحديثة .

ومما لا شك فيه أن الاتصال المباشر بالناس كان ميسوراً في ذاته إبان العصور القدمة كلها ، وذلك لقلة الناس من حيث العدد وإن قلت طرق المواصلات التي كان في استطاعتها أن تساعده على هذا الاتصال الشخصي ؟

لم يكن في مكة مطبعة تخرج كتاباً ولا صحيفه ولا مدحياً ينشر أخباراً أو بيانات ، لكن كان في مكة رواة ينقلون الأشعار والأخبار من مكان إلى كل مكان ، وكان بها منادون لا يكادون يبرحون الأسواق العامة . وبالرغم من جميع هذه الصعوبات المادية ، فقد وجدنا الرسول يشق على نفسه كثيراً في ممارسة هذه النزريه التي لا بد منها من ذرائع الإعلان والاتصال بالناس ، فكان يذهب إليهم في أماكنهم ، وكان يلتقي ببعضهم في موسم الحج ، ولذلك لقى الرسول من هذه النزريه الأخيرة من ذرائع الإعلام ، وهي ذريعة الاتصال الشخصي ، كل عن特 وإذاء ومشقة وذلك إلى الدرجة التي هي فوق طاقة البشر .

فكـر الرسـول ذات يـوم فـي الذهـاب بـنفسـه . كـما سـبق أـن ذـكرـنا ذـلـكـ . إـلى ثـقـيف بـالـطـائـف ، وـذـلـكـ لـيـعـرضـ نـفـسـهـ عـلـيـهـمـ فـاـكـانـ مـنـ آـلـ ثـقـيفـ إـلـأـنـ أـسـاعـواـ اـسـتـقـبـالـهـ وـعـامـلـوـهـ أـشـوـأـ مـعـاـمـلـةـ ، وـبـالـغـواـ فـيـ ذـلـكـ أـفـصـيـ درـجـاتـ الـمـبـالـغـةـ ؟

وـإـلـىـ ذـلـكـ الـوقـتـ كـانـ يـقـفـ وـرـاءـ النـبـيـ يـسانـدـهـ زـوـجـتـهـ خـدـيـجـةـ وـعـمـهـ أـبـوـ طـالـبـ ، وـكـانـ الـعـرـبـ يـخـشـونـ هـاـتـيـنـ الشـخـصـيـتـيـنـ الـكـبـيرـيـتـيـنـ وـيـعـمـلـونـ هـاـ حـسـابـاـ كـبـيرـاـ . فـلـيـاـ مـاـتـاـ هـاـنـ مـحـمـدـ عـلـىـ الـعـرـبـ ، وـظـهـرـ ذـلـكـ فـيـ حـادـثـ الطـائـفـ الـذـيـ مـرـ ذـكـرـهـ وـمـعـ ذـلـكـ فـيـ ظـفـرـ النـبـيـ فـيـ رـبـهـ وـفـيـ نـفـسـهـ لـمـ تـهـنـ وـلـمـ تـتـرـزعـ .

خرـجـ النـبـيـ إـلـىـ الطـائـفـ لـعـلـهـ يـجـدـ فـيهـ مـسـاحـةـ لـدـعـوتـهـ وـيـنـصـرـهـ عـلـىـ قـوـمـهـ وـعـشـرـتـهـ ، وـلـمـ يـكـنـ يـصـحـبـهـ فـيـ رـحـلـتـهـ إـلـىـ الطـائـفـ أـحـدـ مـنـ أـصـحـابـهـ ، وـالـطـائـفـ مـدـيـنـةـ صـغـيرـةـ حـصـيـنـةـ عـلـىـ بـعـدـ سـبـعـينـ مـيـلـاـ مـنـ مـكـةـ تـسـكـنـهاـ قـبـيـلةـ ثـقـيفـ .

وـلـمـ يـنـهـيـ رـسـولـ اللـهـ مـبـلـلـتـهـ إـلـىـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ قـصـدـ إـلـىـ نـفـرـ مـنـ ثـقـيفـ ، هـمـ يـوـمـثـلـ سـادـةـ هـذـهـ الـقـبـيـلـةـ فـعـرضـ عـلـيـهـمـ الـإـسـلـامـ . وـلـكـنـ خـابـ فـأـلهـ .

فقد أغاروه جميعاً أذناً صماء ، وأقام بينهم عشرة أيام يخطب الناس ويتلوا عليهم رسالته ولا من مجيب .

وكان مما احتاج به أهل ثقيف على الرسول أن قالوا له : أعجزت عن أن تقنع قومك برسالتك فجئت إلينا لتقنعننا بها ؟

ولما وصلت الأزمة بيته وبينهم إلى هذه الدرجة طلبو منه أن يغادر الطائف ، وما كاد الرسول يهرب بمعادرة المدينة حتى وجد أن أشرافها وسادتها قد أغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيرون به وقد اصطفوا على جانبي الطريق على مسافات طويلة في داخل المدينة فلما مر من بينهم جعلوا يرشقونه بالحجارة حتى أصابت الحجارة رجله وعقبيه وسال منه الدم ، وكان كلما اشتد نزيف دمه وأعياه التعب جلس يستريح بعض الشيء ، ولكنهم لم يتركوه بل كانوا يأمونه بمتابعة السير .

إذ ذاك اتجه الرسول إلى بستان لعتبة بن ربيعة ، وجلس في ظل شجرة وتحركت نفس عتبة شفقة عليه فبعث غلامه فقطف له شيئاً من عنبر ، فلما وضع النبي يده فيه قال : باسم الله ثم أكل . فنظر الغلام دهشاً ثم قال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فسأله الرسول عن بلده ودينه ، فلما علم أنه نصراني من (نيتوى) قال له : أمن قبيلة الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فسأله الغلام : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال محمد : ذاك أخني كاننبياً وأنانبي ، فأكب الغلام على محمد يقبل رأسه ، ويديه وأسلم .

ثم مضى النبي في رحلته والصبية والغلمان يتبعونه بالحجارة حتى وصل إلى شجرة يستظل بظلها ، وهناك اتجه إلى ربه قائلاً :

اللهم إليك أشكوك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الرحيمين ، أنت رب المستضعفين ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتوجهني ؟ أم إلى عدو ملائكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحمل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ؛

بـهـذـهـ النـفـسـ الصـافـيـةـ الطـيـبـةـ وـبـهـذـاـ الصـبـرـ الـجـمـيلـ وـالـخـلـقـ الـكـرـيمـ قـابـلـ
الـرـسـوـلـ قـسـوـةـ الـبـشـرـ وـلـمـ يـبـأـسـ قـطـ مـنـ رـحـمـةـ اللهـ ،ـ وـلـاـ مـنـ نـصـرـهـ وـتـأـيـدـهـ ؛ـ

وـهـذـاـ مـيـثـاـلـ وـاحـدـ فـقـطـ عـلـىـ مـاـ كـانـ يـلـقـاهـ الرـسـوـلـ مـنـ عـنـتـ القـبـائـلـ الـتـىـ
عـرـضـ نـفـسـهـ عـلـيـهـ ،ـ أـوـ الـتـىـ كـانـ يـمـارـسـ مـعـهـاـ وـسـيـلـةـ مـنـ الـوـسـائـلـ الـإـعـلـامـيـةـ الـتـىـ
هـىـ مـنـ حـقـ كـلـ إـنـسـانـ فـيـ الـوـجـودـ مـنـ يـوـمـ خـلـقـ آـدـمـ لـىـ الـيـوـمـ -ـ وـهـىـ
وـسـيـلـةـ الـاتـصـالـ الـمـبـاـشـرـ .ـ

عـلـىـ أـنـ هـذـاـ وـذـاكـ يـؤـدـىـ بـنـاـ إـلـىـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـمـرـحـاـةـ التـالـيـةـ مـنـ مـرـاحـلـ
الـدـعـوـةـ وـنـعـنـىـ بـهـاـ مـرـحـلـةـ الـاضـطـهـادـ الـدـينـيـ .ـ



الفصل الثالث

مرحلة الاضطهاد الديني

لا تعرف العظمة النفسية إلا في أوقات المحن ، ولا يتحقق الكمال
الخلقي بشيء قدر ما يتحقق بالأزمات والمتابع ،

وقد مرت بالرسول مرحلة الاضطهاد الديني بمكة المكرمة ليبلوه الله
في هذه العظمة النفسية والكمال الخلقي ، ومن هنا كانت هذه المرحلة أعنف
المراحل التي مرت في حياته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ولكنه قابل هذه المرحلة العنيفة بالصبر
وإن كان لشدة حرصه على إيمان القوم يظهر كل الحزن للمعاملة التي
عاملوه بها ، والأقوال الجارحة التي وجهوها إليه ، وفي ذلك يقول
القرآن الكريم :

« ولقد نعمت أنك يضيق صدرك بما يقولون » ويقول تعالى : « ولا تخزن
عليهم ولا تلك في ضيق مما يمكرون » .

وقوله تعالى : « ولا يحزننك قويهم ، إن العزة لله جميماً » .

أجل كان محمد يكافح بأسلحة كثيرة من أولها وأقواها (سلاح الإيمان)
وإن أشد ما يحتاج إليه الداعية هو (الإيمان) بالدعوة التي جاء بها وحرص
شديد على نجاحها وانتشارها ، ولم نسمع في التاريخ بداع يعززه الإيمان بدعوه
والحرص على الغيرة على هذه الدعوة .

* * *

عجبت قريش من أن بعض العرب استجابوا لحمد وخرجوا بذلك على
إجماع أهل مكة وخذلوا بذلك هيبة القرشيين وتركوا ما كان يعبد آباءهم
وأجدادهم وآلت قريش على نفسها منذ ذلك الوقت على أن تعطى كل مافى
وسعها للقضاء على هذه الدعوة في مهادها ، وهكذا قضت سنة الله بأن
يكون حملة المدحية الإنسانية معرضين دائمًا لأقصى ألوان العذاب :

وذلك تصديقاً لقوله تعالى :

« أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنُوا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ». .

وكانت قريش تمارس هذا الاضطهاد والتعذيب مع النبي نفسه حينما وقع أتباعه من القراء والمساكين. حيناً آخر ، وفي ذات يوم كان الرسول ساجداً عند الكعبة فألقى أبو جهل على رقبته أحشاء ناقة مذبوحة، وتبع أبو جهل في هذه الأعمال القبيحة غيره من أهل مكة. فكانوا يلقون في طريق النبي بالقاذورات والأشواك ، وبالغ بعضهم في إيهام النبي حتى حاولوا أن يخنقوه برداة حتى يموت ، وكاد بالفعل أن يموت لو لا أن أدركه أبو بكر الصديق .

أما أتباع الرسول من العبيد فقد عرضهم القرشيون لأقصى أنواع الإهانة والتعذيب ، ومن أولئك العبيد عبد اسمه (بلال) أمره مولاه فاستلقي على الرمل المتقذد تحت الشمس الحارقة في الصحراء ثم وضعت قطع ثقيلة من الحجارة على صدره وتبقي على هذه الحال حتى أصبح مغشياً عليه وهو لا يقول إلا كلمة « أحد ، أحد » ولا يزيد عليها .

وبنفس هذه الطريقة بل بأقسى منها تولى القرشيون تعذيب عبد آخر من العبيد واسمها « ياسر » فقد شدت رجلاه إلى بعيرين ، ثم سيق البعران في اتجاهين متضادين ، ومع هذا وذلك فلم يفلح المكثيون في رد هؤلاء المسلمين المستضعفين عن هذا الدين الجديدي، بل زادوا عليه ثباتاً وبه إيماناً واستسلاماً ، وإذ ذاك لم يجد القرشيون بدأً من التفكير في طريقة أخرى ليس هناك ما هو أشد منها وأنكى— وهذه الطريقة هي (مقاطعة) النبي وأصحابه. وكتبوا بذلك صحيفة وأعلنوا فيها إجاعتهم على المقاطعة وفيها — أي في هذه الصحيفة التي علقوها على أستار الكعبة أنهم لا يبيعون للمسلمين ولا يتباعون منهم شيئاً ، وأنهم لا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ، وأنهم يحرمونهم من وصول الأطعمة إليهم . فاما تعليقهم هذه الصحيفة المشبوهة على أستار الكعبة فـ كان الغرض منه أن تكتسب صفة القدسية .

ومع ذلك فحتى هذه الطريقة الوحشية في المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية لم تفلح في زعزعة المسلمين عن دينهم ، وتركهم لرسولهم في هذه الفترة الحرجة من فترات حياته .

إذ ذاك فكانت قريش في العذول عن هذه المقاطعة وذهبت تنزع الصحفة من الكعبه ، فإذا بها قد أكلتها الأرض ولم يبق من ألفاظها إلا لفظ باسمك اللهم ،

في تلك المرحلة العصبية من مراحل الدعوة الإسلامية لم يكن في وسع النبي وال المسلمين أن يسلكوا في سبيل دعوتهم وسيلة من وسائل الإعلام المعروفة غير (الوسائل السلبية) .

وذلك أنها يجب أن ننظر إلى مواقف المسلمين الراة في الثبات على دينهم وعقيدتهم ، وهي العقيدة التي تغلغلت في أعماق قلوبهم إلى الحد الذي أیأس منهم السκفار والمرشكون .

وبهذه الطريقة السلبية التي ثبت عليها النبي وال المسلمين المضطهدون استطاع هؤلاء أن يكونوا أشبه شيء بناقوس كبير يهدى السκفار والمرشكون ويوقف ضمير الإنسانية في كل مكان ، ويشعر المكيين بأنهم أجرموا في حق المسلمين المستضعفين وبأنهم مما قسو عليهم فلن يتركوا دينهم ولن يخذلوا نبيهم ، ولن يفرطوا في عقيدتهم ، وفي هذا درس لهم وإعلام كبير بالرسالة التي نزلت على رجل منهم ، وإعلان عظيم عن هذه الرسالة التي أتى بها .

وهكذا خلت مرحلة اضطهاد الدين من أكثر الوسائل الإيجابية فيما خلا القرآن والحديث ، ولكنها لم تخلي من الوسائل السلبية التي أثبتت الزمن أنها لا تقل مطلقاً عن الوسائل الإيجابية من حيث القوة .

و قريب من هذه الوسائل السلبية في العصر الحديث إضراب رعيم مني أو طائفة من العمال والنساء عن الطعام حتى يحدثوا بهذا الإضراب تنبيها قوياً لمصادر السلطة كالحكومة وغيرها – وذلك حتى تستجيب هذه المصادر للمطالب التي وقع الإضراب عن الطعام بسببها .

وماذا فعل الزعيم سعد زغلول في الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ حين نفاه الإنجليز أكثر من مرة في جزيرة سيشل أو في مالطة ؟ ثم ماذا فعل الزعيم غاندي بعد ذلك حين قاوم إنجلترا القوية بجيوشها وأساطيلها بالأسلحة السلبية ؟

إن التاريخ حافل بالأمثلة التي تدل على هذه الطرق السلبية من طرق الإعلام ؟

وعلى مقدارها على القيام بوظائفها الإعلامية بنفس القدرة التي للطرق الإيجابية بل ربما زادت عنها :

* * *

غير أن الرسول نفسه كان في مرحلة الاضطهاد الذي من مراحل الدعوة مستمراً في نفس الطريق التي كان يسلكها في المرحلة السابقة ، ومنها ، أى من هذه الطرق ، طريقة الاتصال الشخصي والجماعي المباشرة وأكثر ما كان ذلك في موسم الحج من كل سنة .

وقد عرفنا في الباب الأول من أبواب الكتاب كيف أنه بطريق الحج اكتسب الإسلام شعبية أخذت تكبر مع الأيام شيئاً فشيئاً ، فقد كان الناس يتحدثون في الحج بما يجرى للرسول وأصحابه ويتسامون بأخلاقه ، وبما امتازوا به من الصبر والثبات على دينهم وما تحملوه في سبيل الحافظة على عقidiتهم ، وكانت هذه الأحاديث التي يهتمون بها تثير في أعماق نفوسهم إعجاباً عميقاً وتقديرآ عظياً للرسول وأصحابه .

وفي السنة العاشرة للبعثة النبوية التي الرسول في موسم الحج بعد من أهل يثرب من قبيلة المزرج وعرض عليهم الإسلام فأسلم منهم ستة ، أغراهم بذلك أنهم مجاورون للمهود في يثرب (الاسم القديم للمدينة) وقد حدّthem اليهود عن ظهور دين جديد مذكور عندهم في التوراة ونبي جديد ذكر عندهم أيضاً؛ فلما رجع السنة إلى يثرب أشعلواها حماسة لهذا الدين الجديد ولاؤها حدثنا عن هذا الرسول الجديد ، وهو الرسول الذي بشرت به التوراة والإنجيل ، وكان هذا كله لإرهاصاً لحركة العظيمة التي قام بها المسلمون بعد ذلك ، وهي حركة المجزرة .

الفصل الرابع مرحلة الهجرة

بالغ المكثيون في اضطهاد الرسول وأتباعه كما رأينا ، فلم يجد الرسول وأصحابه بدأ من التفكير في الهجرة ، وكانت هذه الهجرة في ذاتها على مراحلتين :

الأولى : هجرة بعض الصحابة إلى الحبشة .

والثانية : هجرة الرسول نفسه ومعه أبو بكر إلى المدينة المنورة .

الهجرة إلى الحبشة

أشار الرسول على بعض أتباعه بالهجرة إلى بلاد الحبشة قائلا لهم : إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق فاذهبا إليها حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

واستعد أول فوج من أتباع الرسول إلى الهجرة إلى تلك البلاد ، وكان هذا الفوج يتكون من أحد عشر رجلا ، منهم أربعة اصطحبوا زوجاتهم معهم ، ومن هؤلاء الأربعه عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول و كان ذلك في رجب من السنة الخامسة للدعوة ، وكان جعفر بن أبي طالب أحد الدين هاجروا إلى هناك ، وله خطبة رائعة خطبها بين يدي النجاشي رد فيها على الدعاية الحبيبية التي قام بها المكثيون لإقناع النجاشي ببطلان الدعوة الإسلامية ، فقد بعثت قريش بنفر منها إلى النجاشي لهذا الغرض ، وأنحدروا معهم الهدايا الكثيرة التي تقربوا بها إلى رجال الدين لكي يستخدموا نفوذهم إلى الملك ويقنعوا به رد المهاجرين إلى مكة قائلين للملك إن هذا الدين الجدید يتعارض على حد سواء مع الوثنية ومع النصرانية في وقت معاً .

فما كان من النجاشي إلا إن دعا المسلمين المهاجرين إلى الرد على هـ
التهم التي نسبت إليهم ،
ل المستمع الآن إلى حجج المخابين :

أرسل القرشيون وفدهم إلى النجاشي - و منهم عبد الله بن أبي ربعة
و عمرو بن العاص - فقال هذا الأخير للنجاشي :

إنه قد بعثنا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا
في دينك و جاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك
فيهم أشراف قومهم من آباءهم وأعمامهم وعشائرهم لتردوهم عليهم فهم
أعلى بهم عينا (يريد أنهم أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشي كلام عمرو بن العاص رأى من الحكمة ألا يسلم إليهم
المهاجرين حتى يسمع كلامهم وحججه ، فأرسل إلى هؤلاء المهاجرين
واستدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم :

ما لهذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تتخلوا في ديني ولادين أحد
من هذه الملائكة؟

فانتدب المهاجرن جعفر بن أبي طالب ليتحدث عنهم فقال :

«أيها الملك - كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي
الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، وأكل القوى منا الضعيف .
وكنا على ذلك حتى بعث الله علينا رسولاً منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته
وعفافه ، فدعانا إلى الله لتوحده ونبعده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأبااؤنا
من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ،
وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحaram والمدعاء ، ونهاينا عن
الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحسنات ، وأمرنا أن
نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وحرم ما حرم علينا ، وأحل ما أحل لنا ، فعدنا
عليها قومنا ، فعذبونا وفتونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن
نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهروا وظلمونا وضيقوا علينا ،
(م ٩ - الإعلام في صدر الإسلام)

وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واحتزناك على من سواك ،
ورغبنا في جوارك ، ورجونا لأن نظلم عندك . ثم تلا عليه بعض آيات من
القرآن الكريم ، فتأثير النجاشي بهذا الحديث تأثيراً عميقاً ، ثم قال للوفد
الذى حضر من مكة :

« إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة — انطلقا
والله لا أسلمهم إليكم أبداً . . . »

ضاقت صدور المشركين بـمحمد ، وبلغ بهم الضيق غاية ليست وراءها
غاية ، وأجمع رأيهم على أن يطلقوا آخر سهم من سهام جعبتهم ، فاجتمع
بزعمائهم في (دار الندوة) قريباً من الكعبة ، وكان من بينهم أبو سفيان
وأبو جهل وأبو هلب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وخالد بن الوليد
والحكم بن أبي العاص وغيرهم من سادة قريش ، وأخذوا يتشارون في
الأمر ، فقال أحدهم : أما آن لنا أن نتخلص من محمد ؟ لقد كنا نعمل
حساباً لعمه أبي طالب وقد مات ، وكنا نعمل حساباً لزوجته
خديجة ولقومها ، وقد ماتت ، ومن هنا بدأت المقررات الكثيرة
لتخلص من محمد .

فاما أحدهم فيقترح أن يقيموا محمداً بسلاسل وأغلال ، ويحبسوه حتى
يموت ، وأما الثاني فيقترح أن يبني محمد من الأرض فتستريح منه قريش على
الأقل ، وأما الثالث فيقترح قتله بالسيف ، ويناقش القوم كل هذه المقترفات
فلا يقتنع العقلاة منهم بوحدة منها .

وأخيراً يجمعون الرأي على أن ينتدب من كل قبيلة من القبائل واحداً يمثلها ثم يشترك جميع الممثلين لهذه القبائل في جريمة القتل، وبذلك يتفرق دم محمد بين القبائل العربية، ويسترخون منه.

وقف عقبة بن أبي معيط مثلاً لبني عبد شمس ، ووقف النضر بن

الحارث مثلاً لبى عبد الدار ، ووقف أمية بن خلف نائباً عن جمجم ، ووقف أبو هلب نائباً عن بنى هاشم ، وحضر القوم الليلة التي يقفون فيها لتنفيذ هذه الخطة وذهبوا إلى دار النبي وأحاطوا بها من كل جانب ، ولكن الله أحبط هذه المؤامرة كما هو معروف في سيرة النبي ﷺ ، وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

«إِذْ يُكَرِّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُخْرِجُوكُمْ وَيُكَرِّبُونَ وَيُكَرِّبُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» (١).

وفي تلك الليلة أمر الله تعالى الرسول الكريم بالخروج من بيته ، فخرج ومعه رجل واحد من أصحابه هو أبو بكر ، وخرج الرجال من مكة ووصلوا سيرهما إلى الغار ، ثم مضيا في طريقهما حتى اقتربا من المدينة .

واستقبل أهل المدينة الرسول وصاحبه استقبلاً حسناً ، وبالغوا في الاحتفاء بهما ، وبذلك نجا الرسول من كيد قريش ، ونزل قوله تعالى :

«إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ الْئَنْدَنْ ، إِذْ هُمْ فِي الْغَارِ ، إِذَا يَقُولُ لِصَاحْبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيهِ بِحِنْوَدٍ لَمْ تَرُوهَا ، وَجَعَلَ كَلْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلْمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلَيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» .

ومنذ اللحظة الأولى من استقرار الرسول بالمدينة قام بحركة من أروع ما عرفه التاريخ البشري ، وهي حركة التأكّي بين المهاجرين والأنصار ، فقد كان المهاجرون قبل مجدهم إلى المدينة يحيون في مكة في رغد من العيش ، ولكنهم اضطروا بعد ذلك إلى التخلّي عن ثرواتهم ومتلكاتهم ، وأثروا الفرار بدينهم إلى المدينة ، ولذلك عقد الرسول بينهم وبين الأنصار من أهل المدينة الأصلين نوعاً من الأنحصار التي قلنا إن التاريخ لم يعرف لها نظيراً قبل ذلك ولم يعرف لها شبيهاً ، وإلى يومنا هذا ، فقد آوى كل واحد

(١) أى ليقيلوكم بالأغلال والسلسل

من الأنصار أخاً له من المهاجرين ، وشاطره ماله وقاسميه بيته ومتاعه ، حتى أن ممتلكات الأنصارى كانت إذا ما توفاه الله لا يرثها أخوه من أبيه ، بل يرثها أخوه المهاجر ، وبقى القوم على ذلك حتى حظر القرآن هذا النوع من الإرث ، وأوصى بأن ينتقل الميراث بالطريق الطبيعي إلى ذوى الأرحام قال تعالى :

(والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء علیم) .

وكان الأنصار أصحاب زراعة والمهاجرون أصحاب تجارة ، فحين عرض أنصارى على أخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف أن يأخذ نصف ممتلكاته شكر عبد الرحمن لأخيه الأنصارى ذلك وسأله أن يدلله على سوق المدينة ، وفي السوق سعى عبد الرحمن في اكتساب الرزق عن طريق التجارة ، وما هي إلا فترة يسيرة حتى أثرى ثراء عظيماً ، وعلى نحو مماثل انصرف سائر المهاجرين إلى هذا الميدان الذي يتافق وطبيعتهم التجارية .

ومن المهاجرين والأنصار في المدينة انبعثت عصبة المبشرين بهذا الدين وجماعة المعلمين الدينيين الذين حملوا مشعل الديانة الإسلامية إلى شتى أنحاء الجزيرة العربية ونجحوا في أداء مهمتهم نجاحاً منقطع النظير .

والحق أن الهجرة في ذاتها كانت وسيلة من أبلغ وسائل الإعلام في الإسلام ، ذلك أن مجرد خروج المسلمين من بلاد كانوا فيه منذ النشأة خلق تساؤلاً كبيراً في المجتمع الذي فيه تزييف وتشويه لأخبار هذا الدين الجلديد بوذلك بفعل المشركين — وهو مجتمع مكة ،

وقد جعلت هذه الهجرة أهل مكة برغم هذا التزييف والتشويه يشعرون في داخل نفوسهم بأنه ما لم يكن هؤلاء المهاجرون على حق لما تركوا أمورهم وأهلיהם وممتلكاتهم ووطنيهم الذي نشروا فيه ، فلا بد إذن أن يكون الذي دعاهم إلى هذه التضحيات الجسيمة هو الحق والحق وحده . ثم إن هجرة المهاجرين خلفت فراغاً مادياً كبيراً في مكة ولفت هذا الفراغ الكبير أنظار

المكيين للتغيرات التي حدثت في مجتمعهم ، ومن أهمها بطبيعة الحال ظهور هذا الدين الجديد . . ذلك ما حدث في مكة ، أما ماحدث في المدينة فأعظم وأعجوب . فإن وجود عناصر مكية جديدة في المدينة لا بد أنه قد استرعى انتباه جميع من فيها ، وفي ذلك إعلان كبير من هؤلاء المهاجرين عن هذا الدين ، ثم جاءت حركة التأكّي بين الأنصار والمهاجرين دليلاً مادياً على نجاح هذه الوسيلة الإعلامية الكبيرة — وهي الهجرة من مكة إلى المدينة .

ومن الجدير بالتنويه أن الله تعالى صور الهجرة نفسها في الآية الكريمة التي ذكرها «إلا تنصروه فقد نصره الله» ، إلخ بأنها النصiar للنبي عليهما السلام الأعزل من السلاح والعتاد على الكفار المزودين بالسلاح والعتاد ، وذلك في وقت كان فيه النبي في أخرج ساعة من ساعات حياته ، وخاصة حين وجد نفسه هو وصاحبه محبوسين في الغار ، والمشركون بخيالهم ورجلهم على باب هذا الغار ، بينهم وبين أن يقتلوهما أن يدخلوا هذا الباب .

الحق — لقد كانت الهجرة التي قام بها الرسول وأتباعه ثورة على الفساد في جميع أشكاله ، ثورة على الطغيان في الحكم والإجحاف بالحقوق. ثورة على العبودية وتحكم الأقوياء في الضعفاء ، ثورة على فجور الجاهلية ، وحياتها المبنية على الشر ، ثورة على العصبية القبلية في نهاية الأمر ، فلا وثنية ، ولا إباحية ، ولا كسروية أو قيسارية ، ولكن حب وإخاء ومساواة وعدل وحرية وأخلاق إسلامية ، وسمو بالنفس البشرية إلى أعلى الدرجات .

وباختصار شديد.. لقد كانت الهجرة في ذاتها حركة إعلامية كبيرة قل أن يكون لها نظير في التاريخ ، وحسبها ذلك لتكون في الوقت نفسه ذريعة من أكبر ذرائع الإعلام في نشأة الإسلام ، وعلى يد صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه .

الفصل الخامس

مرحلة الاستقرار بالمدينة

استقر الرسول بالمدينة ، وبها بدأ – صلى الله عليه وسلم – صفحة جديدة من صفحاته المجيدة سوف لأنظر فيها على أنها صفحة من كتاب التاريخ ، أو كتاب في الدين ، أو كتاب في الأدب ، أو كتاب في الأخلاق ، أو كتاب في فن الحرب . فقد قال كل واحد من رجال التاريخ والدين والأدب والأخلاق وال الحرب كلمته في هذه الصفحة وبقيت الكلمة رجل الإعلام والدعابة والاتصال بالناس ، وهو ما نحاول أن نتعرض له بإيجاز في هذا الفصل .

والحقيقة التي لا ينبغي إنكارها بحال من الأحوال أنه بقدر ما ضاقت سائل الإعلامية الإيجابية للإعلام في فترة الاضطهاد الديني – أو في العهد الملكي المتأخر – اتسعت أمام الرسول مجالات الإعلام بالطرق الإيجابية الجديدة ، ويمكن أن نشير من هذه الطرق إلى ما يلى :

- ١ – طريقة الأذان لإقامة الصلاة .
- ٢ – إقامة العلاقات الودية بين الرسول واليهود في داخل المدينة يقصد التعامل السلمي بينهم وبين المسلمين .
- ٣ – إقامة العلاقات الودية كذلك بين الرسول والقبائل العربية المجاورة للمدينة وذلك تأميناً للمسلمين في داخل المدينة ، وتمهيداً لدخول الإسلام في هذه القبائل .
- ٤ – اتخاذ الاحتياطيات الإعلامية التي لا بد منها في ظروف الحرب ، كالأرصاد والعيون التي تأقى الرسول بأخبار العدو .
- ٥ – بعثات الرسول إلى الملوك والأمراء ليدعوهم إلى اعتناق الإسلام وهي حركة إعلامية لا توازنها في مجال الإعلام إلا حركة الهجرة .

٦ — استقبال الرسول للوفود العربية التي وفدت عليه بالمدينة لكي تسلم على يديه وكان النبي يبعث مع كل وفد من هذه الوفود بالقراء والمعلمين الذين يفقهونهم في الدين ويفسرون لهم بعض آيات القرآن الكريم .

٧ — التهامس بين الناس في أخبار الرسول وأخبار هذا الدين الجديد وأوضاع ما كان ذلك في حادث الهجرة وفي فرات الصلح بين المسلمين والمشركين كما كان الأمر في صلح (الحدبية) ، وسنشرح ذلك فيما بعد .

٨ — غزوات النبي باعتبارها إعلاناً كبيراً عن الإسلام . فقد أمسك النبي بالقرآن في إحدى يديه ، وأمسك بالسيف — كما أمره القرآن الكريم — في يده الأخرى .

٩ — سرايا النبي وبعوته الحرية إلى تخوم الروم تأميناً لحدود المسلمين بالمدينة من جهة ، وإنذاراً لأعداء الإسلام من العرب وغيرهم بقوة هذا الدين الجديد وهيبته حتى لا يفكروا في الإغارة على حدوده .

وهذا كله فضلاً عن الخطاب النبوية التي سنخصصها بفصل من فصول هذا الباب ، وفضلاً عن حركة (الإخاء) التي بدأ بها النبي ﷺ حياته بمقره الجديد وهو المدينة المنورة ، وقد تحدثنا عنها .

* * *

وقد سبق لنا في الباب الأول من أبواب هذا الكتاب أن شرحنا ما عرفه الإسلام من وسائل الاتصال بالناس ، وأنينا ببعض المعلومات التي تعين على فهم ما يتيق من هذه الوسائل .

وقفنا عند القرآن الكريم بوصفه أكبر هذه الوسائل على الإطلاق ، وكذلك منذ بداية الرسالة الحمدية إلى نهايتها .

وقفنا عند الأحاديث النبوية بوصفها قوة دعائية وإعلامية ليس هناك أعظم منها في حياة الرسول ﷺ وحياة الخلفاء الراشدين ، وحياة العصور الإسلامية التي تلتها لي يومنا هذا ، والسبب في ذلك أن أكبر صفة من صفات الرسول هي قدرته على التأثير في الغير ، وقد كانت هذه الصفة تشكل أكبر خطر واجهه المشركون في مكة .

ولهذا السبب الأخير عرضنا (للاتصال الشخصي والجماعي) بوصفه من أنجح وسائل الإعلام في عهد الرسول ، وإليه يرجع الفضل الكبير .
إقناع العرب بدخول هذا الدين .

ووقفنا كذلك عند (القدوة الحسنة) بوصفها من أنجح طرق التربية والإعلام ، وهي الطريقة التي أحسنها الرسول والصحاباة وأكتبوا بها عدداً كبيراً من الأوصياء قوى بهم الإسلام وانتشر في ربوع شبه الجزيرة .

وتحدثنا بإيجاز عن القصص غير القرآني وما كان له من عظيم الأثر في رفع الروح المعنوية عند المسلمين ولذلك سمح به عمر بن الخطاب على شيء من الخدر والتلخوف ثم أذن عثمان بن عفان بدون شعور بالخذر أو التلخوف ثم أصبحت مادة لاغنى عنها تجميع الحلفاء والأمراء في الإسلام بعد ذلك .

وبقي أن نتحدث في الفصول التالية من فصول الباب الثاني عن هذه المجالات الجديدة التي مارسها الرسول في حقل الإعلام ، وهي المجالات العشرة المتقدمة ، وليس معنى ذلك أن الإعلام في عهد الرسول حصر نفسه في هذه المجالات ، واحتفظ لنفسه بالمجالات السابقة التي مارسها الرسول قبل عهد الاستقرار ، ولكن معناه أن هذه المجالات العشرة – مضافاً إليها مجال الخطاب والأحاديث والقدوة الحسنة وغيرها – ليست إلا أمثلة من النشاط الإعلامي على يد الرسول في عهد الاستقرار .

الأذان وإقامة صلاة الجمعة

كان المسلمون خلال إقامتهم بمكة يجدون صعوبة كبيرة في إقامة الصلاة على شكل جماعة ، فلما نمت المиграة إلى المدينة أصبحوا أحجاراً في إقامة صلاة الجماعة ، وجلس الرسول وأصحابه يدرسون مختلف المسائل التي يستطيعون بها إعلام المسلمين بمواعيد الصلاة ، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة ، وذلك عدا صلاة الجمعة وصلاة العيددين .

وفي الليلة السابقة لاجتماع النبي وأصحابه كان عمر بن الخطاب يرى فيما يرى النائم أن رجلاً يردد قوله بصوت مرتفع : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، إلى آخر صيغة الأذان المعروفة ، وكان صحابي آخر قدرأ هذه الرؤيا ، فلم يسمع الرسول ﷺ إلا الرضا بهذه الطريقة التي يعلن بها عن إقامة الصلاة ليقوم بها المسلمين فرادى أو جماعات .

وعلى هذه الصورة أذن (بلال) للصلاة من يوم الجمعة بالمدينة المنورة .

وهكذا أصبح الأذان وإقامة الصلاة أكبر إعلان للإسلام ، وإذا كان في الإعلان في ذاته قائماً قبل كل شيء على (التكرار) فما بالك ^{إيهذا} الإعلان الإسلامي ، وهو يذكر الناس بهذا الدين خمس مرات في اليوم والليلة ، وفي كل مرة منها يسمع المسلمون ويسمع غيرهم هذا النداء العظيم :

الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة . حتى على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر ، لا إله إلا الله . إنه إعلان كبير للإسلام لفت أنظار الناس جميعاً في المدينة ، ومنها انتشر في بقية أجزاء شبه الجزيرة .

لقد قلنا فيها سبق أنه كان من وسائل الإعلام القديمة وسيلة (المندى) وبالإسلام أضيفت إليها وسيلة من نوعها هي وسيلة (المؤذن) . وهو الذي ينادي على الناس لإقامة الصلاة في مواعيدها . ولذا كانت هذه الوسيلة الأخيرة من خير ما وفق إليه محمد وأصحابه في الإعلان عن الإسلام ، والإعلام بأن الصلاة ركن من أركانه .

٣

إقامة العلاقات الودية مع اليهود

وقد سبق لنا أن ربطنا هذا النوع من العلاقات بما يسميه رجل الإعلام في العصر الذي نعيش فيه (بالعلاقات العامة) لأن الغاية من هذين النوعين واحدة ، وهي التعريف بشيء جديد يحرص رجل العلاقات أن يثبته في ذهن الطرف الآخر .

وننظر في سيرة الرسول ﷺ — فنجد أنه قد مارس هذا النوع من أنواع الإعلام وبذلك فيه أكبر جهد ممكن .
نظر الرسول فإذا (المدينة) التي استقر بها تسكنها ثلاث عشرة يهودية كبيرة وهي :

١ - بنو النضير .

٢ - بنو قريطة .

٣ - بنو قينقاع .

وأما بقية سكان المدينة فكانت تتألف من قبيلتين هما :

١ - قبيلة الأوس .

٢ - قبيلة الخزرج .

وكانت الكثرة من هاتين القبيلتين قد دخلت في الإسلام .
نظر الرسول في هذا السكيني العربي الذي تألفت منه المدينة ، وفي الأجزاء التي يتالف منها هذا السكيني ، وإذ ذاك فكر أول ما فكر في عقد (ميثاق) بين المسلمين واليهود وعرضه عليهم ، وكان هذا الميثاق يتالف من البنود الآتية :

- ١ - أن يتعايشع المسلمون واليهود في داخل المدينة وكأنهم أمة واحدة وهذا معبر عنه في العصر الحديث بكلمة (التعايش السلمي) .
- ٢ - أن يلزم كل من الفريقين دينه وألا يتدخل في دين الآخر .

٣ - يجب على كل من الفريقين في حالة نشوب الحرب مع فريق ثالث أن يبادر لنصرة الآخر ، ولكن بشرط أن يكون الفريق المعتمد عليه مظلوماً وأن يكون الفريق المعتمد هو الضال .

٤ - في حالة الهجوم على المدينة نفسها يجب على الفريقين أن يتعاونا في الدفاع عنها معًا .

٥ - على الفريقين أن يتشاروا في الصلح إذا رغبا فيه .

٦ - ينظر الفريقان إلى المدينة على أنها بلد حرام لا يدخل فيه سفك الدماء .

٧ - في حالة النزاع بين الفريقين يكون الرسول هو الحكم الأخير .

إن العمل على إنشاء مثل هذه العلاقات الودية يعتبر عملاً سياسياً وأجتماعياً وإعلامياً في وقت واحد . وهو في نظرنا عمل إعلامي من الترجة الأولى ذلك أنه يهدف إلى التعايش المسلم على أحسن وجه ، وبه ينظر التاريخ إلى الرسول على أنه رجل ممتاز في جميع هذه الميادين التي أشرنا إليها .

ولو صدق نية اليهود تجاه (الميثاق) ولو درسوه دراسة بريئة من الحقد والهوى لأراحو أنفسهم وأراحو المسلمين منهم من عناء وعبث كبيرين ولعلموا علم اليقين أن هذا الدين الجديد دين سلام وفاق ، وليس دين خصام وشقاق ، وأن التعايش المسلم في ذاته من أسمى غايات هذا الدين ومن أوجب واجباته ، ولكن التاريخ أثبت أن اليهود بيتوا منذ اللحظة الأولى لتصوّص هذا الميثاق سوء النية واشتراكوا جميعاً في إشعال نار الفتنة ، وشكلوا في المدينة خطراً داخلياً لا يمكن النجاة منه إلا بأمر واحد فقط هو القضاء عليهم واستئصالهم وإطفاء هذه الفتنة ، وذلك ما وجد الرسول نفسه مضطراً إلى سلوكه معهم ، كما سيتضح ذلك فيما بعد :

٣

العلاقات الودية

مع القبائل المجاورة

نظر الرسول وأصحابه كذلك فإذا هم محاطون بأعداء من كل جانب :
(أما من الداخل) فهناك عدوان خطيران هما اليهود من جانب ،
و(عبد الله بن أبي) رأس المذاقين بالمدينة من جانب آخر .

(وأما من الخارج) فهناك قريش من جهة ، وهناك القبائل المجاور
للمدينة من جهة ثانية ، وبذلك أصبح الرسول مهدداً بخطرين عظيمين هما :
المجوم عليه من خارج ، وخيانة اليهود له من الداخل ، وكلا الخطرين وشيك
الوقوع في كل لحظة .

وهذه الظروف هي التي دعت الرسول إلى إقامة علاقات ودية مع القبائل
العربيّة المجاورة للمدينة على نحو ما أقام هذه العلاقات بينه وبين يهود المدينة ،
ولذلك أخذ الرسول عهوداً ومواثيق على بعض هذه القبائل المجاورة ، من
ذلك العهد الذي أخذه على (بني حمزة) ، وقد نص هذا العهد على أن
أرواحهم وممتلكاتهم ستكون في أمان تام ، وإذا هاجمهم عدو سارع المسلمون
لنصرتهم حتى يرجع العدو أدراجه .

ومرة أخرى نقول إنه عمل سياسي وإعلامي في وقت معاً ، فبدون هذه
العهود ما كانت العرب لتعرف شيئاً له قيمة بالإعلامية عن الرسول ولا عن
الدين ، ولا عن الغاية التي من أجلها ظهر هذا الرسول بهذا الدين ، فهو لم
يظهر في العرب ليصفّح دماءهم ويشتت رجالهم ويحدث التشقّق بين أعضاء
العشيرة الواحدة كما زعمت قريش ، وكما قالت بذلك الدعاية السعيدة التي نشرها
القرشيون حول الرسول ولكن الله بعثه لغایات كرمه ، وأهداف سلمية
وإصلاح لهذه الدنيا بعد أن فسّدت واستحال صلاحها إلا عن هذا الطريق .

الاحتياطات الإعلامية وال الحرب

أمر الرسول من قبيل ربه بالحرب ، ولذلك حمل الرسول وأصحابه القرآن في يد السيف في يد ، وفي أثناء الحروب تعرض الرسول لطاقة كثيرة من المحن امتحنه الله بها ، وال ساعات الحرجة والمواقف الممتازة التي اعرف التاريخ قدرها بها ، وقد كان من أخطر الأعداء الذين حاربوه صلى الله عليه وسلم عدواً كبيراً هما اليهود من جانب وقريش من جانب آخر :

أما اليهود فقد كان الرسول قادرًا عليهم ، يقطأ كل اليقظة لأدنى حركة من حركاتهم ، متفطنًا لمؤامراتهم وتدابيرهم ، أما قريش فكانت هي الداهية الدهباء والعقبة الكادعة والمشكلة التي كادت تستعصي عن الحل ، لأنها كانت مصراً على اقتلاع جذور الإسلام بكل الطرق التي تملكتها ، وزادت إصراراً على ذلك منذ نجح الرسول عليه في الهجرة من مكة إلى المدينة ،

من أجل ذلك كان لا بد من وقوع الحرب بينها وبين الرسول : قريش تقوم دائمًا بالهجوم ، والرسول يقوم دائمًا بالدفاع ، ونزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » . وقوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . وعلى هذه القاعدة القرآنية – وهي قاعدة الدفاع وعدم الاعتداء – دخل الرسول ضد قريش ، واتخذ لنفسه بعض الاحتياطات الإعلامية منها :

أولاً – حاول بطرق غير استفزازية أن يفهم قريشاً ويعلمها بهذه الحقيقة وهي أن المسلمين لا غنى لهم عن الحج ، وأن تجارة قريش تصبح في خطر كبير إذا حاولت قريش أن تصادرهم عن أداء هذه الفريضة . ثانياً – تنظيم سرايا استعلامية تأتيه بمعلومات عن تحركات العدو . ومنها – على سبيل المثال – سرية بقيادة عبد الله بن جحش ، وقد دفع الرسول إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيرته ، ثم يمضى

لَا أَمْرُ الرَّسُولِ بِهِ ، وَلَا يَسْتَكْرُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا ، فَلِمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ
الْكِتَابَ — كَمَا أَمْرَهُ الرَّسُولُ — وَجَدَهُ يَقُولُ : إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَلَتَمْضِ
حَتَّى تَنْزَلَ (نَخْلَةً) فَتَرْضَدَ بِهَا قَرِيشًا ، وَتَعْلَمَ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِ مَا
مَعْنَى هَذَا أَنْ مَهْمَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ كَانَتْ مُجْرِدًا إِجْرَاءً وَقَائِيًّا ،
وَإِعْلَانِي خَشْيَةً أَنْ يَأْخُذَ الْعُدُوُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حِينَ غَرَّةٍ ۝

غَيْرُ أَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ مَا كَادَ يَصْلِي إِلَى (نَخْلَةً) حَتَّى خَالَفَ أَمْرَ
الرَّسُولِ وَهَجَّمَ عَلَى عِبَرِ لَقْرِيشٍ فِي طَرِيقِ عُودَتِهِمْ مِنَ الشَّامِ وَقُتِلَ أَوْ أُخْدِلَ
مِنْهُمْ ، وَيُعَتَّبُرُ هَذَا الْحَادِثُ — بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا فِيهِ مِنَ الْخَالِفَةِ لِأَمْرِ النَّبِيِّ —
مِنَ الْحَوَادِثِ الْعَادِيَةِ بَيْنَ الْعَرَبِ ، لَوْلَا أَنْ قَرِيشًا كَانَتْ تَظْمَأً إِلَى الدَّمْ
وَتَنَاهَفَ عَلَى الْحَرْبِ ، وَتَنَاهَزَ أَنْفَهُ الْأَسْبَابِ لِنشُوبِ الْعَرَبِ ، فَكَانَ ذَلِكَ
مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي مَهَدَتْ (لَغْرُوَةَ بَدْرَ) ۝

ثَالِثًا — اعْتِمَادُ الرَّسُولِ عَلَى حَمْلَةِ الْأَخْبَارِ وَهُمُ الَّذِينَ نَسَمِّيهِمْ فِي الْعَصْرِ
الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ (مَنْدُوبِي الْأَخْبَارِ) أَوْ (الْمَرَاسِلِينَ الْحَرَبِيِّينَ) ۝

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١) فِي الْكَلَامِ عَنْ غَرْوَةِ الْخَنْدَقِ (أَنْ بَعْضَ
الصَّحَّاحَةِ قَالَ : رَأَيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ «أَوِ الْخَنْدَقِ» وَقَدْ
أَخْذَنَا رِيحًا شَدِيدًا وَقَرْأَةً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبْرِ
الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَّنَتْنَا وَلَمْ يَجُبْ مَنَا أَحَدٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا
رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبْرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَّنَتْنَا وَلَمْ يَجُبْ
مَنَا أَحَدٌ . ثُمَّ قَالَ يَلْتَهِمُ : قَمْ يَا حَذِيفَةَ فَأَتَنَا بِخَبْرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذَعْرُهُمْ
عَلَىٰ ۝ (٢) ۝

قَالَ حَذِيفَةَ : فَلَمْ أَجِدْ بَدَأً إِذْ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ بِاسْمِ أَنْ قَوْمٍ ، فَلِمَّا
وَلِيَتْ مِنْ عَنْدِ رَسُولِ اللَّهِ شِعْرَتْ كَأْنَمَا أَمْشَى فِي حَمَامٍ . (يُرِيدُ أَنْ يَقُولُ

(١) الْبَزَرَ، ١٢ فِي السَّكَلَامِ عَنْ غَرْوَةِ الْخَنْدَقِ :

(٢) يَمْسِي وَلَا تُسْبِبُ لَهُمْ ذَعْرًا فَيَجْمُوا عَلَى بَلْ حَسَاوِلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِأَخْبَارِهِمْ دُونَ أَنْ
تَقْشِعُهُمْ بِشَيْءٍ ۝

أنه لم يشعر ببرد تلك الليلة كما كان يشعر به قبل خروجه من عند رسول الله بل عافاه الله من ذلك برزقه طاعته للنبي ، ومضي في طريقه حتى أتيتهم ، فرأيت أبو سفيان يصلى ظهره بالثار ، (وذلك من شدة البرد) ، فوضعت سهماً في كبد القوس وأردت أن أرميه به : فتذكرت قول رسول الله ولا تذرهم على ، ولو رميته لأصبهته ، ورجعت وأنا أمشي في مثل الحمام ، فلما أتيت رسول الله أخبرته بخبر القوم وفرغت وقررت (أى عاد إلى الشعور بشدة البر) فأليسني رسول الله من فضل عبادته التي كان يصلى بها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت » ٦

رابعاً - وأخرى من الوسائل التي حمد لها الرسول في مواجهة قريش في أثناء حربه معها وسيلة (الدعائية) أو خداع العدو :

ورد في كتاب (صورة من حياة الرسول) (١) قوله : وكان ما صنع الله لرسول الله وللمؤمنين أن أتى (نعم بن مسعود الأشعجي) إلى النبي عليه السلام فاتلا له :

« يارسول الله إني قد أسلمت . ولم يعلم قومي بإسلامي ، فرنى بمائشتي » . فقال رسول الله عليه السلام : « إنما أنت رجل واحد من غطفان ، فلو خربت فخذل ما استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فاخترج فإن الحرب خدعة » .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريطة (وهم عشائر اليهود في المدينة كما ذكرنا) ، وكان نعيم ينادهم في الجاهلية فقال لهم :

« يابني قريطة - لقد عرفتم ودى لياكم وخاصة ما بيبي وبيبنكم » . قالوا : « قل فلست عندنا بمهم » .

قال لهم : إن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهر تموهم عليه ، فإن رأوا نزرة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل (يريد النبي) ، ولا طاقة فيكم

(بابنی قریظة) ، به ، فلا تقاتلوا مع القوم (يريد مع قريش) حتى
تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم .

ثم خرج نعيم بن مسعود حتى أتى قريشاً فقال لهم :

« لقد عرفتم ودي لكم معاشر قريش وفراتي محمداً، وقد بلغنى أمر أرى
من الحق أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتتموا على ». .

قالوا : نفعل ذلك .

قال : تعلمون أن معاشر يهود قد ندموا على ما كان من خذلانهم محمداً ،
أرسلوا إليه ، إنما قد ندمنا على ما فعلنا .. إلخ ..

ثم أتى غطفان وقال مثل ذلك .

فلا كانت ليلة السبت - وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله
وللمؤمنين - أرسل أبو سفيان إلى بني قرية في المدينة (عكرمة بن أبي
جهيل في نفر من قريش وغطفان) يقول لهم: إنما لستنا بدار مقام ، فقد هلك
الحف والحاور ، فاستعدوا صبيحة غد للقتال حتى نتاجز محمداً » .

فأرسل إليهم بنو قرية بالمدية يقولون : « إن اليوم سبت ، وهو
لا نعمل فيه شيئاً ، وقد علمتم ما قيل فيمن تعذر منها في السبت . ومع
ذلك فلا تقبل الحكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ،
فإنما نخشى إن ضرستكم الحرب وأشتد عليكم القتال أن تنشروا إلى بلادكم ،
وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه » .

فلم يرجع الرسل بذلك قالوا :

« صدق والله نعيم بن مسعود » وردوا إليهم يقولون : « والله لانعطيكم
هذا أبداً . فاخرجوا معنا إن شئتم ، وإلا فلا عهد بيننا وبينكم ». .

فقال بنو قرية :

« صدق والله نعيم بن مسعود ». .
ونخذل الله بيدهم وانختلفت كلمتهم .

ترى معنى أيها القارئ لهذا النص الأخير كيف أن رسول الله ﷺ
حمد إلى الدعاية التي لابد منها في وقت الحروب ، وهي الدعاية التي
تهدف إلى إحداث التفرقة بين صفوف الأعداء ، وهي المقصود بقوله ﷺ
لنعم بن مسعود « فيدخل علينا ما استطعنا » أي أحدث بينهم تخذيلاً وشعوراً
بالهزيمة حتى لا يثق بعضهم في بعض . وبذلك يتفرقون وتضعف قواهم
وينصرنا الله عليهم . وهذا ما فعله نعيم بن مسعود حين مشى بين قريش
وغطفان ويهدى المدينة المتميزة إلى قبيلة بنى قريظة ، وكان بين هذه القبائل
الثلاث تحالف قوى ضد النبي . وقد تنبأ النبي إلى تمزيق هذا الحلف بالدعاية
الحربية ونجح في بلوغ هذه الغاية بتوفيق من الله تعالى وبذكاء نعيم
بن مسعود .

جاء في كتاب (تيسير الوصول في أحاديث الرسول) تأليف الشيباني
ما نصه :

« عن أمياء بنت زيد رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ
الكذب كله على ابن آدم حرام إلا في ثلاثة خصال : رجل كذب في
الحرب فإن الحرب خدعة » آخر جه الترمذى وأخرجه مسلم في إحدى
رواياته .

ثم إن من معانى الحديث النبوى : « خدل علينا ما استطعنا » معنى يؤمن
به نوافع الحرب في العصور الحديثة ، وهذا المعنى الأخير هو وجوب نشر
روح المزيمة في معسكرات العدو ، والنظر إلى هذا العمل على أنه من أدوات
النصر على هذا العدو .

يقول التاريخ : إن الإنجليز في الحرب العالمية الأولى كانوا يسخرون
الصحافة لحرب من هذا النوع ، وكان الصحفى الإنجليزى نوثكليف هو
المنظم المحقيق لهذه الدعاية وكان أسلوب هذا الصحفي يقوم على نشر
روح المزيمة في داخل ألمانيا معتمداً في ذلك على القاعدة التى تقول :

(إن روس المزعة إنما تبدأ أولاً في الجهة الداخلية للعدو . (١))

* * *

1

ألم نقل في التمهيد لهذا الباب أن الجهد الذي بذلها الرسول في سبيل نشر
الله الدين لا يصح أن يطلق عليها غير اسم واحد فقط هو (الدعوة) ؟ وأما
الدعایة فهي الاسم الذي أطلق على جميع الجهد الذي بذلها المخلفاء المسلمين
ممن لا ينتمي إلى الله تعالى فهل يصح أن يطلق على الله الدين اسم (الدعوة) ؟

— قلنا ذلك : ونحن مصرون على ما قلناه .

أما هذه الواقعة التي وقعت للرسول مع نعيم بن مسعود فإياها لا تهدم
هذا الحكم الذي حكمنا به على جهود الرسول ، و تغير الاسم الذى أطلقناه
على هذه الجهود ، وهو (الدعوة) : وذلك لأسباب منها :

أولاً : إن هذه الواقعة فريدة من نوعها في حياة الرسول ، ولم يقع من نوعها الشيء الكثير ،

ثانياً : إن هذه الحيلة استخدمت في ظروف الحرب ، وال الحرب في كل مكان وزمان إنما تقوم على الحيلة والماكينة والمكر والخداع ، وما ينبغي أن تخلو حياة الرسول من كل ذلك عند الضرورة وإلا استهان به الأعداء وتغافلوا - صلى الله عليه وسلم - وأكلواه لفحة ساعنة .

ثالثاً : إن الرسول واحد أئمّة أعداء كثيرون وأنه أقل من أحدهم
عديداً وعدة فلا بد له أن يحيى نفسه بكل الوسائل الممكنة ، ومنها
وسيلة المكيدة :

(١) عبد الطيف حمزة ، كتاب : الإعلام والدعـاة ، الطبعة الأولى ص ١٦١ .

٥

بعثات الرسول إلى الأمراء والملوك

حدثتنا كتب السيرة أن الرسول عاد من صلح (الحدبية) فدعى المسلمين إلى اجتماع عام أو وضع لهم فيه أن الإسلام جاء رحمة للناس كافة، وأن العرب ليسوا هم المقصودين وحدهم بهذا الدين، وأن الوقت قد حان لحمل الرسالة الإسلامية إلى جهات أخرى في داخل بلاد العرب وفي خارجها، وأنه يجب البدء بالملوك والأمراء المحاورين لهم ومنهم يومئذ: قيصر الروم، وكسرى فارس، ونجاشي الحبشة، والمقوقس، وعزيز مصر، وأمير البحرين وصاحب دمشق، وأمراء اليمن، وهذا كله فضلاً عن أمراء العرب الذين لم يدخلوا بعد في هذا الدين، ومنهم الأمير شرحبيل وغيره.

واستقر رأي النبي ﷺ على أن يبعث إلى كل واحد من هؤلاء بوفد من قبله ﷺ ومع الوفد رسالة خاصة يدعوه فيها إلى عبادة الله وحده وإلى الإيمان الذي جاء به محمد.

وقيل إنه للأسف الشديد لم يحفظ التاريخ بكل هذه الرسائل النبوية، وذلك فيما يُعدّ الرسالة التي وصلت إلى المقوقس، والرسالة التي وصلت إلى هرقل ورسائل أخرى قليلة، فقد ذكر التاريخ أن المقوقس أحسن استقبال الوفد الذي سحمل إليه الرسالة وأنه حفظ هذه الرسالة نفسها في صندوق ثمين وبعث مع الوفد الذي عاد إلى الرسول بجملة من الهدايا ومنها بغلة وجاريتان، تزوج الرسول بواحدة منها. وهي مارية القبطية، وأهدى الأخرى - واسمها شيرين - إلى شاعره حسان بن ثابت.

وأما الرسالة نفسها فقد جاء فيها .

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» من محمد عبد الله رسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من أتبع الهداي أما بعد، فإني أدعوك بدعائية الإسلام ،

أسلم تسلّم ، يُؤتِكَ اللَّهُ أجرَكَ مرتين ، فَإِنْ تَوْلِيتَ فَعْلِيكَ لَمْ الْقَبْطُ « يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نَشْرُكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَخَذَّ بَعْضُنَا بَعْضًا أَوْ بَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوْلُوا فَقُولُوا أَتَهْدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ » :

وبعث الكتاب مع حاطب بن أبي بلترة فتوجه إلى مصر فوجد المقوس بالإسكندرية فذهب إليه فوجده في مجلس مشرف على البحر، فركب سفينته إليه، وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه، فلما رأه أمر باحضاره بين يديه، فلما سمع به إليه ووقف بين يديه، ونظر في الكتاب فقضه وقرأه، وقال حاطب: ما منعك أن يدعوك على من خالقه، فقال له حاطب: وما منع عيسى أن يدعوك على من خالقه أن يسلط عليهم؟ فاستعاد منه الكلام مرتين، ثم سكت فقال له حاطب: إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه رب الأعلى فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولي، فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بذلك، قال: إن لانا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله وهو الإسلام الكافى به الله فدع مساواه، إن هذا النبي « ضلى الله عليه وسلم » دعا الناس فكان أشدهم عليه قريشاً وأعداهم له يهوداً وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشرارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائكم أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل بي أدرك قوماً فهم من أمته، فالحق عليهم أن يتبعوه، وأنتم من أدرك هذا النبي، ولستنا ننفك عن دينك، ولكننا نأمرك به، فقال المقوس، إنني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمز هود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالمساحر الضال ولا الجاهل الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة: بلخرج راج الخبر والإخبار بالمنجوى وسانظر. وأخذ كتاب النبي صلوات الله عليه فيجعله في حقي عاج ودفعه بخارية له، ثم دعا كتاباً له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَهُمْ بَنْ عَبْدُ اللَّهِ مِنْ الْمَوْقُوسِ عَظِيمُ الْقَبْطِ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ (أَمَا بَعْدُ) فَقَدْ
قَرَأْتُ كِتَابَكُمْ وَفَهَمْتُ مَا ذَكَرْتُ فِيهِ، وَمَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنْ
نَبِيًّا قَدْ بَقَى، وَكَنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الشَّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكُمْ وَبَعْثَتُ
إِلَيْكُمْ بَحَارِيتَيْنِ لَهَا مَكَانٌ مِنَ الْقَبْطِ عَظِيمٌ . . . وَكَسْوَةٌ، وَأَهْدِيَتُ إِلَيْكُمْ بَغْلَةً
لِرَكْبَاهَا وَالسَّلَامُ (١) .

وَلَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا، وَلَمْ يَسْلَمْ .

مَنْدُوبُ الرَّسُولِ إِلَى الْمُلُوكِ وَالْأُمَّارِ :

بَعْثَ الرَّسُولِ ﷺ رَسْلًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَتَبَ مَعَهُمْ كِتَابًا إِلَى الْمُلُوكِ
يَدْعُوُهُمْ فِيهَا إِلَى الإِسْلَامِ :

- ١ - فَبَعَثَ دِحْيَةَ بْنَ خَلِيفَةِ الْكَلْبِيِّ إِلَى قِيَصَرَ مَلِكِ الرُّومِ .
- ٢ - وَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَذَافِهِ السَّهْمِيِّ إِلَى كَسْرَى مَلِكِ فَارَسِ .
- ٣ - وَبَعَثَ عُمَرَ بْنَ أَمِيَّةَ الصَّمَرِيِّ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْجُهَشَةِ .
- ٤ - وَبَعَثَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمَوْقُوسِ مَلِكِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ .
- ٥ - وَبَعَثَ عُمَرَ بْنَ الْعَاصِنِ السَّهْمِيِّ إِلَى سَيِّفَرْ وَعَبْدِ أَبِي الْحَلَنْدِيِّ
مَلِكَيِّ عَمَانِ :
- ٦ - وَبَعَثَ سَلِيْطَ بْنَ عُمَرَ إِلَى (ثَمَامَةَ بْنَ آثَالَ وَهُوازَةَ بْنَ عَلَى) عَلَى
الْخَنْفِيْنِ مَلِكِيِّيَّةِ الْيَامَةِ .
- ٧ - وَبَعَثَ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْمَنْدَرَ بْنَ سَاوِيِّ الْعَبْدِيِّ مَلِكِ
الْبَحْرَيْنِ .
- ٨ - وَبَعَثَ شِجَاعَ بْنَ وَهْبِ الْأَسْدِيِّ إِلَى الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرِ الْغَسَانِيِّ -
مَلِكِ تَخْوِيمِ الشَّامِ (٢) .

* * *

(١) المُنتَخَبُ مِنَ السَّنَةِ ، بِيَمِلَدِ طِ ٢ ، الْقَاهِرَةُ سَنَةُ ١٩٥٢ صِ ٢٦٩ وَمَا بَعْدُهَا .

(٢) مِيرَةُ النَّبِيِّ لَابْنِ هَشَامِ جِ ٤ صِ ٢٧٨ مَطْبَعَةُ حِجَارَى بِالْقَاهِرَةِ سَنَةُ ١٩٣٨ تَحْقِيقُ
شَفِيعِ الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ .

قام الرسول بهذه الحركة الإعلامية الواسعة النطاق ، وأوفد البعثات إلى جميع الجهات بعد أن نزلت الآية الكريمة : « قل يأهـلـ السـكـتابـ تعالـوا إـلـىـ كـلـمـةـ سـوـاـغـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـكـمـ أـلـاـ نـعـبـدـ إـلـاـ اللـهـ وـلـاـ نـشـرـكـ بـهـ شـيـئـاـ ، وـلـاـ يـتـخـذـ بـعـضـنـاـ بـعـضـاـ أـرـبـابـاـ مـنـ دـوـنـ اللـهـ فـإـنـ تـوـلـواـ فـقـوـلـواـ اـشـهـدـوـاـ بـأـنـاـ مـسـلـمـوـنـ » .
يقول مولانا محمد على ، تعليقاً على حركة البعثات النبوية (١) :

إن الظروف التي أحاطت بتوجيهه هذه الرسائل النبوية للملوك والأمراء لتستحق شيئاً من التأمل والاعتبار ، فلو أن الرسول وجه هذه الرسائل بعد إخضاع بلاد العرب برمتها لنفوذه ، إذن لكأن في إمكان الباحث أن يعتبرها عملاً أو حـيـاـ بـهـ الطـمـوحـ إـلـىـ التـوـسـعـ فـيـ الـمـالـكـ ، فقد كان المسلمين إلى ذلك الحين أضعف من أن يشقوا طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان المشاركون لا يزالون هم أصحاب السلطة الحقيقية حتى لقد فرضوا شروط الصلح (يريد صاحب الحديثة) على النبي عليه السلام .

فصحـيـحـ إـذـنـ أـنـ الرـسـوـلـ لـمـ يـكـنـ يـهـدـفـ مـنـ وـرـاءـ هـذـهـ حـرـكـةـ إـلـيـاـمـيـةـ إـلـىـ التـوـسـعـ فـيـ النـفـوـذـ أـوـ إـلـىـ جـاهـ أـوـ سـلـطـانـ أـوـ نـحـوـ ذـلـكـ ، إنـماـ كـانـ الرـسـوـلـ يـحـرـصـ مـنـ خـلـالـ هـذـهـ حـرـكـةـ أـنـ يـفـهـمـ الـمـسـلـمـوـنـ أـنـ إـلـاسـلـامـ يـقـصـدـ بـهـ الـعـرـبـ وـحـدـهـ ، وـلـكـنـ يـقـصـدـ بـهـ النـاسـ كـافـةـ .

ولـناـ تعـلـيقـ آخـرـ مـنـ النـاحـيـةـ إـلـيـاـمـيـةـ عـدـاـ تعـلـيقـ مـوـلـانـاـ مـحـمـدـ عـلـىـ النـىـ أـورـدـنـاـهـ آـلـآنـ عـلـىـ حـرـكـاتـ الـبـعـثـاتـ النـبـوـيـةـ ، وـنـلـاخـصـ تعـلـيقـنـاـ فـيـهـ يـلـيـ :
نـفـهـمـ مـنـ دـوـائـرـ الـمـعـارـفـ إـلـيـجـيـزـيـةـ وـأـمـرـيـكـيـةـ أـنـ الدـبـلـوـمـاـسـيـةـ ذـاتـهاـ فـنـ حـضـرـىـ بـحـثـ .ـ بـعـنـىـ أـنـهـ لـمـ يـعـرـفـ إـلـاـ فـيـ الـعـصـورـ الـحـدـيـثـةـ .ـ وـفـيـ الـعـصـرـ الـذـىـ نـعـيـشـ فـيـهـ بـنـوـعـ خـاصـ .

وـلـعـلـ أـقـصـىـ مـاـذـهـبـ إـلـيـهـ الـمـؤـرـخـونـ الـمـدـحـوـنـ هـوـ أـنـ الدـبـلـوـمـاـسـيـةـ لـمـ تـعـرـفـهـاـ الـبـشـرـيـةـ قـبـلـ الـقـرـنـ الثـالـثـ عـشـرـ المـيـلـادـيـ ، وـهـمـ يـقـولـونـ إـنـ هـذـاـ الفـنـ إـنـماـ بـدـأـ فـيـ (ـالـفـاتـيـكـانـ)ـ عـلـىـ يـدـ أـحـدـ الـبـابـوـاتـ مـنـذـ أـخـذـ الـبـابـاـ يـبـعـثـ بـالـوـفـودـ إـلـىـ

(١) مـوـلـانـاـ مـحـمـدـ هـلـ : حـيـاةـ مـحـمـدـ وـرـسـالـتـهـ .ـ الـتـرـجـمـةـ الـعـرـبـيـةـ اـنـيـرـ الـبـلـيـكـيـ صـ ١٩٧ـ - ١٩٨ـ

الملوك والأمراء لأغراض دينية وأخرى سياسية^(١)

ولكن نظرة واحدة إلى الحركة التي قام بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل ذلك بتسعة قرون من الزمان يدلنا على أن هذا الرسول هو أول من مارس هذا الفن الذي يقولون عنه إنه حضري بحت – ونعني به فن الدبلوماسية ، وليس أدل على ذلك من أنه قام بتنظيم حركةبعثات إلى الملوك والأمراء ، فنهم من رحب بهذه الدعوة كما فعل المقوقس بنوع خاص ، ومنهم من رفض هذه الدعوة ، وأساء الرد على صاحب الرسالة ، كما فعل كسرى .

وهكذا أثبتت التاريخ أن محمدًا أول من زاول (الاتصال الشخصي المباشر) من وسائل الإعلام القدمة والحديثة – وذلك عن طريق الوفادة وطريق الرسالة ، وما لاشك فيه أن العرب في الإسلام كانوا أقدر على ممارسة هذه الوسيلة من وسائل الإعلام منهم في الجاهلية لا لشيء إلا لاختلاف القيم التي كانت تحكمهم في الجاهلية . ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه التفصية عند الكلام عن القرآن السكريم باعتباره أكبر الوسائل الإعلامية في صدر الإسلام ، وقد رأينا أن القيم التي كانت تحكم المجتمع العربي في الجاهلية كانت مبنية في أكثرها على العنف والشر ، بينما كانت القيم التي حكمت العرب في الإسلام تبني على التقوى والإيمان ، وفي ظل هذه القيم الأخيرة نجح الفن الذي مارسه الرسول عليه السلام وهو فن (الدبلوماسية) .

* * *

٦

استقبال الرسول للوفود

ما لاشك فيه أن حركة الاستقبالات – كحركةبعثات – تعتبر نوعاً من (العلاقات العامة) ، ولكننا حرصنا على أن نخص كلاً من هاتين

(١) راجع كتاب (أوضاع عل الدبلوماسية) للأستاذ أحمد عبد الحميد .

الحركاتين بكلمة مستقبلة بذاتها ، وذلك لأهميتها في تاريخ الدعوة الإسلامية ، ولأنها من أكبر مظاهر النشاط الإعلامي لرسول الله ﷺ ، وبدون ذلك تكون قد قصرنا في التنوية بهذا النشاط .

في أواخر السنة التاسعة للهجرة ، وطول السنة العاشرة تدفقت على المدينة وفود تمثل مختلف القبائل والعشائر المعروفة في شبه جزيرة العرب ولذلك سمي العام العاشر للهجرة (عام الوفود) ، وإليك أسماء بعض هذه الوفود على سبيل المثال .

١ - وفد ثقيف .

٢ - وفد بنى تميم .

٣ - وفد تغلب .

٤ - وفد نجران من الوفود النصرانية أيضاً .

وكان عداد الوفود سبعين رجلاً ، وزعياهم عبد المسيح وعبد الحارث :

٥ - وفد بحيلة من القبائل اليمنية التي كانت تملك هيكل اسمه (الخلصة) وكان في اليمن يعتبر بمحابة (المسکعية) في مكة ، وقد هدم المسلمين هذا الهيكل بأمر من النبي ﷺ .

٦ - وفود أخرى من اليمن وعمان والميامدة والبحرين (وأميرها إذ ذاك هو المنذر) .

٧ - وفد وائل بن حمجر الكندي والأشعث بن قيس ، وهما زعيمان حضر موت جاعوا في أعداد كبيرة ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية ، فلما سألهم الرسول : هل تحبون أن تعتنقوا الإسلام؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، فقال لهم : اخلعوا هذه الملابس الحريرية ، ففعلوا ولبسوا غيرها .

وقد قيل إنه في عام الوفود هذا نزلت سورة النصر وفيها يقول الله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفُتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا » .

وقيل كذلك إن هذه السورة نزلت في حجة الوداع ، وكانت آخر ما نزل من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ .

ولتكنى أميل إلى الرأى الأول ، لأن هذه السورة إنما تشير إلى حادث الوفود ، وتعتبر حركتهم نصراً من الله وفتحاً .

وهكذا عم الإسلام جميع أرجاء الجزيرة العربية باستثناء بعض الجماليات القليلة لليهود والنصارى .

* * *

ومع كل وفد من الوفود السابقة كان الرسول يبعث بواحد من أصحابيه لكي يصححهم في عودتهم إلى القبائل التي آتوا منها ؛ وهذا ما سميناه في الباب الأول من أبواب الكتاب (بحركة « القراء ») المتفقين في الدين الذين صحبو هذه الوفود لكي يعلموا القبائل التي آتوا منها ويفقهوهم في الدين ويحييوا لهم إلى كل ما يسألونه من الأسئلة في موضوعات هذا الدين وأركانه وفرائضه ونحو ذلك ، ولكي يفسروا لهم بعض آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وبذلك يزداد أفراد هذه القبائل العربية علمًا بالدين وعلماً بأوضاعه وأحكامه ، ومن ثم كان العمل الذي قام به القراء عملاً دينياً وإعلامياً في وقت معاً .

وقد نجحت هذه التجربة الإعلامية أول ما نجحت على يد المعلم الأول لهذه الأمة ونعني به محمدًا ﷺ ، وذلك عندما التي في موسم الحج بئانية عشر رجلاً من الخزرج - وعرض عليهم الإسلام ، فأسلموا ، فبعث معهم بأحد الصحابة ، وهو هنا (مصعب بن عمير) ليهدىهم ويرشد هم ويعلّمهم القرآن الكريم والسنّة التبويّة ، فذهب معهم مصعب بهذه الغاية ، وكان ذلك في السنة العاشرة للبعثة ، والرسول يومئذ لم يزل موجوداً بمكة ، ولم يؤذن له بالهجرة منها إلى المدينة .

وكانت الوفود إذا أقبلت على الرسول أقبل معها خطباؤها وشعراؤها فتكلموا وتناشدوا ، وكان خطباء المسلمين وشعراؤهم يردون على خطباء

الوفود وشعرائهم ، وقد شهد التاريخ بأن خطباء المسلمين المستقبليين لهذه الوفود كانوا أبلغ في كل مرة من خطباء الوفود ، ولا غرابة في ذلك فقد كان خطباء المسلمين المخاورين للرسول والصحابة إنما يستمدون معانיהם من القرآن الكريم ومن السنة ومن معاشرة الرسول نفسه ومعاشر الصحابة محمد ، كما كان خطباء المسلمين ممتهنين بالعواطف الدينية الجياشة ، والمشاعر الإسلامية النبيلة بالقدر الذي يكفي للوصول بخطبهم إلى درجة كبيرة من درجات البلاغة والتأثير في نفوس العرب .

وهذا الذي قيل في الخطباء المسلمين قيل مثله في شعرائهم ، وإن كان الخطباء — كما سبق أن أوضحتنا ذلك — أبلغ في صدر الإسلام من الشعراء للاسباب التي سبق أن أشرنا إليها في موضعها من هذا الكتاب .

* * *



حركة الهمس وأثرها في نشر الدعوة

يعتبر التهامس بين الناس في كل عصر من العصور عاملاً قوياً من العوامل التي تؤثر في (الرأي العام) ولذلك لم يغفل عنه حاكم من المحكم في الأزمنة القديمة والحديثة على السواء ، وقد عرف عن بعض الخلفاء العباسيين أنه كان ينشر العجائز في بيوت الخاصة وال العامة لكي يأتوه بالأخبار والأحاديث التي تدور فيها ، ومنها يفهم الخليفة رضا الناس عنه أو سخطهم عليه .

وما لا شك فيه أن سيرة الرسول ، وعظمته الخلقية ، وكماله النفسي ، وغير ذلك من الصفات التي امتاز بها البشر ، وهي الصفات التي عبر عنها القرآن الكريم مخاطباً الرسول بقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، نقول : لاشك أن هذه السيرة النبوية العطرة ، والمثل الأعلى في الأخلاق

والمعاملات ، والعبادات كانت مثار دهشة كبيرة من جميع العرب في مكة والمدينة وفي غيرهما من أرجاء شبه الجزيرة العربية .

كان الناس يتحدثون عن هذه الصفات التي اكتسبت النبي إما جهاراً حين لا يخافون سطوة أحد ، وإما لسراراً أو عن طريق التهمس - حين يخافون شيئاً من ذلك ، وكان هذا التحدث أو التهامس في ذاته عاملاً قوياً من عوامل انتشار الإسلام ، وقد وجدنا مصداق ذلك في حادثين بنوع خاص هما :

١ - حادث الهجرة .

٢ - صلح الحديبية .

فأما في الهجرة فقد سبق أن أشرنا إلى حركة التهams التي حدثت في مكة واقتربت بحادث الهجرة ، فقد عجب المشركون يومئذ من أن المسلمين يدعوا يتركون أموالهم وأولادهم ومتلكاتهم وحياتهم الماضية الخالدة بين أهلיהם وعشيرتهم في مكة ويهاجرون إلى المدينة وأخذنوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم : ما الغاية من كل ذلك ؟ وأجابوا على أنفسهم بإجابة واحدة : وهي أن الأمر العظيم الذي صبحوا من أجله بكل ذلك - وهو الإسلام - لا بد أن يكون خليقاً بهذه الحركة ، ولا بد أن يكون محمد صادقاً في دعوته ، شرحتنا ذلك في موضوعه من الكتاب ، ولأنحتاج إلى إعادة القول .

صلح الحديبية :

وأما صلح الحديبية فقد كان فرصة أخرى لهذا التهams الذي كان له أبعد الأثر في نشر العقيدة الإسلامية .

* * *

بذلك قريش كل ما في وسعها للقضاء على الإسلام . وذلك في معركة (بدر) ، ثم معركة (أحد) ثم في معركة (الحندق) أو الأحزاب ، ولكنها لم تفلح ، ومنذ ذلك الوقت يشتد قريش كل اليأس من الهجوم على المدينة ، وخيال للمسلمين إذ ذاك أن قريشاً - ومعها قبائل البدو الموالية لها - لن تغتصبهم

في ذهابهم للحج بعد اليوم؛ وبعد عام من معركة الأحزاب فذكر رسول الله ﷺ في الخروج للحج . فخرج ومعه ألف وأربعين رجلاً من المسلمين أمرهم الرسول أن يضعوا السيف في أغمادها ، لأنهم إنما خرجوه للحج للحرب ، فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشاً تستعد لقتالهم ، وتنوى أن تعرّض طريقهم إلى علم الرسول بذلك بعث إلى قريش يقترح عليها عقد صلح بين الفريقين إلى أجل غير مسمى ، فرفضت قريش هذا العرض ، ثم بعث الرسول إلى قريش بمبعوث آخر من قبله فأساعته معاملاته ، وعقرت ناقته ، وأنهراً بعث الرسول فيهم بعثمان بن عفان فاحتاجزوه عندهم وسرت شائعة بأن قريشاً قتلت عثمان ، وتأزم الموقف كل التأزم ، فالمسلمون عزل من السلاح وعددهم قليل بالقياس إلى الأعداء ، والعلو مصمم على انتهاز الفرصة فإذا يفعل الرسول في تلك اللحظة الحرجية ؟ لقد دعا أصحابه ليبايعوه من جديد ، فبايده جميعاً تحت الشجرة ، وسيجيئ هذه البيعة في التاريخ (بيعة الرضوان) ، وبها عاهدوا الرسول على القتال معه حتى آخر رجل .

علمت قريش بهذه البيعة ، وعرفت أنها تعبر عن أقصى ما يمكن التعبير به عن ارتفاع القوة المعنوية ، وأدركت أن هذه القوة كافية لأن تغى المسلمين عن كثرة العدد والعدة ، فخافت على نفسها من نتائج ذلك ، وعدلت عن فكرة الحرب ودخلت في مفاوضات جديدة مع الرسول بقصد الصلح لمدة عشر سنوات ، وتم هذا الصلح ، وكانت أهم بنوده ما يلي :

- ١ - يرجع المسلمون عامهم هذا ، فلا يؤدون فريضة الحج .
- ٢ - يجوز للMuslimين أن يقدوا في العام القادم على مكة بشرط ألا يلبشو فيها أكثر من ثلاثة أيام .
- ٣ - لا يحق للMuslimين أن يصطحبوا مسلماً يقيم في مكة ، ولا يحق لهم أن يعترضوا سبيل أمرائهم قد يرغب في التخلف في مكة ،

٤ - من أحب من العرب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ،
ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .. إلخ .

وقرأ المسلمون شروط هذا الصالح فأحدث في نفوسهم ثورة ، ولكنهم
تكلموا المدوع انتظاراً لرأي النبي ، ثم عجز عمر بن الخطاب عن ضبط
نفسه بعد ذلك فسأل الرسول : ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى . قال : ألسنا
بالمسلمين ؟ قال : بلى . ثم قال : أنا عبد الله ورسوله ﷺ . فإن أخالف
أمره . ولن يضيعني . ثم سأله عمر : ألم تقل لنا إننا سوف نؤدي فريضة
الحج ؟ قال الرسول الأعظم : أنا لم أقل إننا سنؤدي فريضة الحج
هذا العام .

وفي طريق عودة الرسول وأصحابه إلى المدينة نزلت الآية السكريمه :
«إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم
نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً « وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

وتلا الرسول هذه الآية على من معه من المسلمين فانقلب حزفهم سروراً
وقلتهم اطمئناناً ، وعلموا أن للرسول حكمة في قبول هذا الصالح .

ويقول مولانا محمد على تعليقاً على هذه الحادثة ^(١) « لقد أثبتت الأيام
أن صلاح الخديبية كان نصراً حقيقياً للإسلام ، بذلك على ذلك أن الرسول
حين وفد على مكة بعد عام ونصف عام رافقه عشرة آلاف من أصحابه
بدلاً من ألف وأربعين ألفاً - وهو العدد الذي كان معه زمان الصالح ، فكيف
تعلل هذا الازدياد العظيم في عدد المسلمين .

الواقع أن حالة الحرب التي سادت حتى ذلك الحين بين المسلمين
والمشركين كانت قد أقامت بينهما برزخاً عريضاً يصعب اجتيازه ، وكان
الحقد العام على المسلمين قد حال بين المشركين وبين امتهاجهم بال المسلمين ،
فيإذا بصلاح الخديبية يعقد بين الفريقين للمرة الأولى منذ انشاق الإسلام جسراً

(١) مولانا محمد على « حياة محمد ورسالته » الترجمة العربية لمير
بعلبكى ص ١٨٧ .

على ذلك البرزخ العريض ، وقد أتاح ذلك للمشركين فرصة التفكير المأدي في فضائل الإسلام الفخارية وعظمة الرسول الحقيقية ، ومنذ ذلك الوقت أدرك المشركون أن الرسول لم يبعثه الله لكي يقطع صلة الرحم ، ولاليشير الشقاقي والعداوة والبغضاء بين العرب كما زعمت قريش .

وتناول الناس في مكة وفي القبائل العربية المخواورة كل هذه الأحاديث، وتهامسوا فيما بينهم حول عظمة الرسول، وخطورة الرسالة الإلهية التي بعث بها هذا الرسول، وكان لهذا التهامس الهاشمي الجميل أثره الواضح الجلى في نجاح الدعوة الإسلامية وزيادة عدد المسلمين حتى ذهب إلى الحج بعد عام ونصف مع الرسول قريباً من عشرة أمثال العدد الذي كان معه في صلح الحديبية، وهذا كله ما عبرت عنه الآية الشريفة التي أشرنا إليها «إنا فتحنا ذلك فتحاً مبيناً» لغة .

* * *

تحدثنا إلى الآن عن الوسائل الإعلامية التي مارسها الرسول في مرحلة الاستقرار ، ولم يبق من الوسائل غير واحدة هي (غزوات النبي ﷺ واسر اية) ونريد أن نخصص هذه الأخيرة بفصل مستقل هو الفصل الآتي :
لستنا نريد أن نتحدث عن غزوات الرسول من الناحية الحربية ولا من الناحية الدينية ، ولكننا سنتحدث عن هذه الغزوات من الناحية الإعلامية .
إن نظرة واحدة إلى هذه الغزوات تدلنا على جملة من الحقائق الخطيرة :

أولاها ، أن المسلمين في كل غزوة من هذه الغزوات لم يكونوا هم
المعتدين ، وإنما كان المشركون هم الذين يعتدون عليهم ، وكان على المسلمين
أن يدافعوا عن أنفسهم :

الثانية ، أن المشركين كانوا في كل غزوة من هذه الغزوات أكثر عدداً وأقوى سلاحاً وأعظم استعداداً للحرب من المسلمين ، ولكن المسلمين كانوا يحاربون بياunganهم وعقيلتهم ، ومن أجل ذلك كانت روحهم المعنوية أعلى بكثير من روح المشركين .

الثالثة ، أن الرسول لم يكن يبغى من وراء الغزوات إلى توسيع في الملك أو السلطان ونحو ذلك . إنما كان يهدف إلى شيء واحد فقط ، هو تبليغ الدعوة ونشر الإسلام ، فليس بينه وبين أعداء هذا الدين إلا أن يقولوا ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن قالوها فقد عصموها منه دماءهم ، وتمتعوا بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمين ـ

الرابعة : أن النبي ﷺ كان يحارب في هذه الغزوات بأخلاقه كما كان يحارب بسيوفه ورماحه ـ

ولنا بعد ذلك أن نقف وقفة قصيرة عند كل غزوة من غزوات النبي ﷺ لنتنظر إليها هذه النظرة الإعلامية التي تؤيد ما نقوله ـ

قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، وعلى أساس من هذه القاعدة القرآنية كان اشتباك الرسول مع المشركين وكان على الرسول قبل اشتباكه معهم أن يقوم ببطاقة من الإجراءات الوقائية والإعلامية التي لا بد منها ،



الفصل السادس بعض الغزوات النبوية من الزاوية الإعلامية

غزوة بدر :

ومن هذه الإجراءات فيما يتصل بغزوة بدر تلك الحركة التي أوعز بها الرسول عن طريق (سعد بن معاذ الأشجبي) وهو من الأنصار . فقد أفهم قريشاً في موسم الحج أن تجاراتها ستتصبح في خطر كبير إذا هي منعت المسلمين من تأدية فريضة الحج كما سبق ذكر ذلك ، وكان هذا التحذير كافياً في الحقيقة لردع قريش عن التفكير في الحرب .

لقد كان المسلمون إذ ذاك أضعف من أن يقوموا بأى عمل حرب ضد قريش ، وكان الرسول يشعر بمسؤوليته عن سلامة المسلمين ، وبنوع خاص لأن عددهم إذ ذاك ما زال قليلاً بالنسبة للمشركين .

مهما يكن من شيء فقد اشتغل الفريقيان في معركة بدر وكان عدد المسلمين لا يزيد عن ثلاثة وثلاثة عشر مقاتلاً في جملتهم الغلمان ، وكلهم مسلحون . تسلیحًاً ردیئاً على حين كان جيش العدو مؤلفاً من ألف مقاتل مزودين بالسلاح الكامل ، وكان المسلمون يشعرون إذ ذاك بالخوف والضيق والقلق والخرج ، ومع هذا وذاك لم يكن أمامهم إلا طريق واحد فقط هو طريق الدفاع عن النفس ، ولم ينتظروا في داخـلـ المـديـنـةـ حتى يـدـهـمـهـمـ العدو بل عزموا على الخروج في هذه الحالة السيئة من التسلح ، وابتعدوا عن المدينة حتى وصلوا إلى بدر ودارت المعركة ، وهنا حدث مالم يكن في الحسبان — حدث ظاهرة رائعة من ظواهر العون الإلهي ، فقد قتل في المعركة معظم زعماء قريش ، وكان أبو جهل واحداً من الذين لقوا حتفهم في ذلك الوقت وباغت جملة القتلى من قريش في المعركة سبعين ، وأسر المسلمون منهم سبعين آخرين ، أما شهداء المسلمين فلم يزيدوا على أربعة

عشر ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم
أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

لفت هذه المعركة أنظار العرب في كل شبر من الجزيرة العربية من
أوها إلى آخرها ، فقد عجبوا كيف أن جيشاً ليس له حظ من عدد
أو سلاح يغلب جيشاً يزيد على ثلاثة أضعافه من حيث العدد والسلاح
ويضم قدامى الحاربين من أبطال قريش ، ومعنى ذلك أن وجوه الضعف
كلها قد اجتمعت في ناحية المسلمين وأن وجوه القوة كلها قد اجتمعت في
ناحية المشركين ، وبرغم ذلك انتصر المسلمين على المشركين .

الليس في ذلك إعلام كبير عن هذا الدين الجديد ودعاهية إلهية واسعة
النطاق لرسول هذا الدين ، وإيذان المشركين بأنهم لن يستطيعوا التغلب
على هذا الدين وعلى رسوله الكريم بالطرق التي يعرفونها كالغدر والقتل
والنهب والتهديد والوعيد !

غزوة أحد :

وفي غزوة أحد وقد تم تجهيز المشركين لها في عام كامل ، وكان
جيشهم يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل فيهم مائتا فارس و منهم كذلك سبعمائة
بطل من خيرة أبطال قريش عدا الأبطال الكبار الذين ماتوا في معركة
بدر ، وزاد أبو سفيان - الزعم الأول لقريش في ذلك الوقت - شيئاً
جديداً على هذه الحملة ، وهو أن أجبر النساء على الخروج لرافقة الجيش
أملاً في أن يزدبن في حماسته ويلهبن مشاعره بالأناشيد الحربية والأغانى
الحمساوية ، وساررت الحملة صوب المدينة حتى عسكرت على ثلاثة أميال
منها عند جبل أحد .

أما عدد المسلمين إذ ذاك فلم يزد عن ألف مقاتل فيهم مائة رجل مسلح
وفارسان اثنان ليس غير .

ولم يكُن عبد الله بن أبي - وكان قد أسلم نقاًقاً ولم يسلم عن صدق -
لم يكُن هذا الرجل يرى جموع العدو حتى انسحب من جيش المسلمين .

يفرقته البالغ عددها ثلاثة . وبقي من الجيش الإسلامي سبعاً لا قوة لهم
إذ ذاك غير قوة العقيدة التي هي عندهم كل شيء .

وتقديم رسول الله وأصحابه للقتال واختار الرسول موقعًا ممتازًا في
الميدان حيث جعل صخور (أحد) وراء المسلمين تحمي ظهورهم وأخذ
يصف أصحابه هناك فشغلوا جزءاً كبيراً من سفح الجبل . ولكن كان في
ناحية من نواحي الجبل شعب يسمح للعدو بأن ينقض منه على المسلمين
إذا غلوا عنه . ففطن إليه الرسول ووضع على فيه خمسين من الرماة
المسلمين لحمايته ، وأمرهم ألا يرحو أماكنهم تحت أي ظرف ،

وبدأت الموقعة بحركة إعلانية كبيرة من جانب المشركين حيث تقدم
النسوة يضربن بالدوف وعلى رأسهن هند زوجة أبي سفيان وهن ينشدن
جملة من الأناشيد منها على سبيل المثال :

إن تقبلوا نعائق

ونفرش المفارق

أو تدبروا نفارق .

فراق غير وامق ... إلخ .

وببدأ القتال بداية ناجحة بالقياس إلى المسلمين واستطاع حمزة عم
الرسول أن يقتل حامل لواء المشركين وأوقع أمثال حمزة الاضطراب في
صفوف قريش ، وبقي الحال على ذلك حتى استشهد حمزة نفسه ، قتيلاً
مولى زنجي استأجرته هند زوجة أبي سفيان لهذا الغرض . وتفهقر المشركون ،
ولكن ما كاد الرماة المسلمين الذين يحرسون الشعب يرون ذلك حتى
غادروا أماكنهم مخالفين بذلك أمر الرسول ، ونظر خالد بن الوليد (الذي
كان إلى ذلك الحين قائداً من قواد قريش) إلى هذه الغلطة التي ارتكبها
الرماء المسلمون وهجم من نقطة الضعف بعائشة فارس وأحدث اضطراباً
في صفوف المسلمين المتصررين إلى ذلك الحين . وحين رأى المشركون
المهاربون ذلك التحول المفاجيء في سير الحرب لحقوا بخالد بن الوليد

وحاصروا المسلمين ، وأدرك النبي خطورة الموقف الذي وقفه المسلمون .
وكان يسعه إذ ذاك أن ينجو بنفسه ويضمن سلامته بالالجوء إلى مكان أمن .
يتحقق به ويترك أصحابه للقدر . ولكنه لم يفعل ذلك بل وقف في مكانه
وحوله عدد قليل من أصحابه ونادى بأعلى صوته (هلموا إلى أنا رسول
الله) : فسمعه المسلمون وشتووا صنوف العدو حتى أدركوا النبي ودافعوا
عن حياته ، وصرعوا واحداً بعد واحد في سبيل الدفاع عنه .

أما الرسول نفسه فشج في وجهه وانشققت شفتيه ودخلت حلقتان من
مفره في وجنته . كل ذلك وهو لا يزيد على أن يقول : اللهم اغفر لقومي
فإنهم لا يعلمون .

وهكذا عاد المشركون إلى مكة دون أن يظفروا بأية غنية من الغنائم
ودون أن يكون في أيديهم أسير واحد ، بل عادوا إلى مكة وكان الجيش
الإسلامي نفسه لم يزل مسيطرًا على الموقف كله ، وعاد المشركون إلى مكة
بعد أن عجزوا حتى عن احتلال المدينة برغم أنها تركت يومئذ بدون قوة
دفاعية ، بل عاد المشركون إلى مكة ، وقد سمعوا في الطريق بأن النبي يطاردهم
بجيشه ، ولم يحرر أبو سفيان على العودة بأصحابه إلى موقع المسلمين
المطاردين له ..

وهكذا كانت نتيجة الموقعة أن المسلمين منوا بخسائر فادحة ولكنهم
لم يهزموا للمشركون بصورة من الصور . وهكذا أصبحت معركة أحد
حدثت القوم في مكة ، وبها عرف المشركون حقائق كثيرة عن الرسول
وعن الإسلام ، وبها أيقنت قريش أن هناك سراً يختي عليها ، وأن هذا
السر يمكن في هذا الرسول وفي هذا الدين الجديد ، ولذلك فكرت في
محاولة أخيرة تقضى بها على الرسول وعلى الدين ، وهذه المحاولة الأخيرة
تتمثل في :

غزوة الأحزاب « أو غزوة الخندق » :

في السنة الخامسة للهجرة تضافرت قريش واليهود والقبائل البدوية المعادية للرسول على توجيه الضربة الأخيرة إلى الإسلام ، وتألف هؤلاء جيش يراوح عدده — في تقدير المؤرخين — بين عشرة آلاف وأربعة وعشرين ألف مقاتل ، وبلغات القبائل اليهودية المقيمة داخل المدينة إلى الخيانة في آخر لحظة ، وتشاور الرسول مع أصحابه في هذا المخطر الداهم ، فأشار عليه سليمان الفارسي بحفر خندق عميق يحيط بالمدينة من جميع جوانبها ، وببدأ الرسول في هذا العمل بنفسه .

وأقبل المشركون بجموعهم ، ووصف القرآن الكريم حالة المسلمين في تلك اللحظة الرهيبة بقوله : (إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقَالُوبُ الْخَاجِرُ وَتَظَنُونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا) هنالك ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّا زَلَّا شَدِيدًا) .

واستمر حصار المشركين للمدينة نحوً من شهر ربط المسلمين في أثناءه الحجارة على بطونهم من الجوع ، وكان الرسول قد و لهم في كل ذلك . ثم شاعت إرادة الله أن تهب ريح عاتية اقتلت خيام المشركين وكفأت قدورهم واضطربت لها صفوفهم ، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نَعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جِنُودًا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْمَ رِيحًا وَجَنُودًا لَمْ تَرُوهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) .

ورأى المشركون ذلك فدب اليأس إلى قلوبهم وأيقنوا أن يداً خفية تحبط أعمالهم وتزلزل أقدامهم ، وهذه اليد الخفية هي يد الله الذي بشر به محمد ، أليس في هذه الحادثة وحدتها ما يعلن إعلانا قوياً عن هذا الدين الجديد ، ويعتبر نصرًا عظيمًا للرسول الكريم ؟

ونجا المسلمون من هذه الكارثة بطريقة عجيبة ، وحيثما تأكدوا من رحيل المشركين بجموعهم إلى مكة رجعوا إلى اليهود الذين خانوهم بالمدينة وألقوا

الحصار على قبيلة يهودية هي قبيلة بنى قريظة فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة . واختار بنو قريظة بأنفسهم (سعد بن معاذ) — وكان قبل إسلامه حليفاً لهم — لكي يحدد العقوبة التي يستحقونها على خيانتهم ونقض ميثاق الرسول أكثر من مرة ، فاختار سعد لهم العقوبة التي نص عليها (العهد القديم)^(١) وهي عقوبة القتل ! .

وهكذا حكم سعد — حسب الديانة اليهودية — بقتل أذكور بنى قريظة وعددهم ثلاثة وبسي نسائهم وأطفالهم ومصادرتهم أملاً كثيم وأموالهم .

أما القبيلتان اليهوديتان الآخريات وهما (بنو النضير) و « بنو قينقاع » فقد حكم الرسول عليهم بالنفي خارج المدينة جزاء لهم على خيانة المسلمين في أحرج الأوقات التي مرت بهم .

فتح مكة :

أثبتت صلاح الحديبية كما أسلفنا — أنه عامل من عوامل نشر الدين الجديد وأن هذا الدين ينمو في جو السلم أكثر مما ينمو في جو الحرب . فاغتاظت ذلك قريش وفكرت في نقض الصلح ، ومن ثم استعد الرسول لفتح مكة وتمت إرادة الله أن يتم تحقق هذا الفتح العظيم بدون دم .

وتم الفتح في العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة ودخل الرسول مكة في عشرة آلاف من أصحابه ، واستسلم المكيون من غير مقاومة في مقدمةهم أبو سفيان وقد وقف بين يدي الرسول ، فعفا الرسول عنه ، وكان سلوك الرسول هذا المسلك مع أقوى أعداء الإسلام — وهو أبو سفيان — مثلاً طيباً من الأمثال التي تحدث بها المسلمون وغير المسلمين ، وكان في الوقت نفسه إعلاناً كبيراً عن عظمة الإسلام ، وكم للرسول مع أعدائه من المواقف المشابهة لهذا الموقف ، ومعنى ذلك أن سيرة الرسول في ذاتها كانت من أقوى وسائل الدعاية له ولدينه الحنيف ، ثم أعلن الرسول للمكيين « أن

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ودخل الرسول مكة وأخذ يحطم الأصنام القابعة حولها ، وكلما هدم منها واحداً تلا الآية السكرمة « وَقَالَ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهْوًا » ، ثم وصل الرسول إلى مقام إبراهيم فصل ركعتين ، وإذ ذاك فتحت أبواب الحرم ودخله الرسول وصل بالناس كذلك ، ثم ألقى خطبة عبر فيها عن وحدانية الله وعن الأخوة في الإسلام ، ثم وجه الخطاب إلى زعماء قريش وكانتوا واقفين بين يديه وقوف الجنابة المذنبين : وقال لهم : ما تظلون أنى فاعل بكم ؟ فرد الجميع : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال الرسول الأعظم : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

معركة حنين :

لعل العبرة الإسلامية لهذه المعركة الأخيرة تتحصر في أن الله تعالى أراد أن يعلم المسلمين درساً لنفسه أبداً ، أراد أن يعلمهم أن كل انتصار من الانتصارات التي حصلوا عليها إنما كان ثمرة شيء واحد فقط وهو العون الإلهي . فقد انتصر المسلمون على أعدائهم وكان عددهم لا يزيد على ثلث عدد الأعداء أحياناً أو ربع هذا العدد أحياناً وذلك فضلاً عن سوء السلاح عند المسلمين وتفوقه عند المشركين .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

« لَقَدْ نَصَرْتُكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةَ ، وَيَوْمَ حَنِينٍ إِذَا عَجَّبْتُكُمْ كَثِيرٌ تَكُمْ فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ، ثُمَّ وَلَيْمَ مَلَبِرِينَ » .

ومضى أقل من شهر على فتح مكة ، وبلغ الرسول أن قبيلة هوازن المقيمة شرق مكة استعدت لهجوم عنيف على الإسلام لتكون المحولة الأخيرة من جانب هذه القبيلة لهم هذا الدين ، فأخذ الرسول يستعد لذلك وتتألف جيش من المسلمين وصل عدده في هذه المرة إلى اثنى عشر ألف مقاتل ،

وقصد الرسول بهذا الجيش الكبير إلى وادي حنين ، وكان المسلمين في أثناء ذلك يشعرون بالزهو لكتلة عددهم وقوتهم سلاحهم ودخل العجب قلوبهم وخالط الغرور نفوسهم ، ومع ذلك فقد انهال عليهم الأعداء برماتهم ونبالهم وأدخلوا الخلل في صفوفهم ، فولوا على أدبارهم ، وبقي الرسول وحده في الميدان لم يتزعزع ولم يستشعر الضعف الذي شعر به أصحابه ، ثم أخذ يصيح بأعلى صوته :

أنا النبي لا كذب .

أنا ابن عبد المطلب .

وكرر هذا النداء مرات كثيرة وتبعه عمه العباس فأخذ ينادي بأعلى صوته : يامعشر الأنصار الذين آروا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وما كادت هذه النداءات تصل إلى آذان المسلمين الماربين من المعركة حتى رجعوا إليها بقوة معنوية جديدة ونزلوا عن جيادهم وإبلهم وخاضوا صنوف الأعداء بشجاعة نادرة وانتصروا عليهم انتصاراً مسحوراً حتى وصلوا إلى مكان الرسول وهناك حاربوا الأعداء حتى سقط حامل رايتهم حتى تركوا نساعهم وأطفالهم واستولى المسلمون على غنائم كثيرة منها أربعة وعشرون ألف شاة وأربعمائة ألف أوقيية من الفضة ، وأسر المسلمون فوق ذلك ستة آلاف من المشركين ،

وهكذا انقلب المهزيمة الشديدة إلى نصر مشرف ، ومارس الرسول بعد ذلك أخلاقه الطيبة وحلمه الواسع وغفوه عند المقدرة ، وأرضى المهاجرين والأنصار وعفا عن كثير من الأمرى ، وكان الرسول إنما كان يحارب بالأخلاق كما يحارب بالسيوف والرماح ، وتلك ناحية لا يغفل عنها المؤرخ ولا رجل الدين كما لا يغفل عنها رجل الإعلام والدعائية .

بعوث النبي وسراياه إلى حدود الروم وغايتهما الإعلامية :

وذلك تأميناً للمحدود الإسلامية وتخويفاً للأعداء من هيبة الإسلام وإعلاماً لهم بذلك حتى لا يفكروا في الإغارة على حدوده ، ومن أمثلة هذه البعوث « غزوة تبوك » التي وصلت إلى حدود الروم ، ومن الأمثلة عليها كذلك « بعثة أسامة بن زيد » وهي البعثة التي انتقل فيها الرسول الرحيم إلى الرفيق الأعلى قبل أن ينجزها ، وأنجزها من بعده أبو بكر الصديق الخليفة الأول للإسلام :

هكذا كان يشعر النبي دائمًا بأن عليه واجبين كبيرين هما :

١ - تأمين الدين الإسلامي في الداخل .

٢ - وحمايته من الخارج .

ومن أجل ذلك كان لا يشتغل مع العرب إلا دفاعاً عن النفس وعن الدين ، وفي الوقت نفسه كانت هذه البعوث الحربية التي تصل إلى حدود شبه الجزيرة العربية من ناحية الدولة الرومانية تعتبر بعوثاً استطلاعية ، وكانت تستعين في هذا الاستطلاع بالقبائل العربية الموالية للنبي ﷺ ، ومن هذه البعوث النبوية جاءت « غزوة تبوك » التي باقت تخوم الروم ، وعادت من تلك الحدود سالمة غانمة .

وبهذه الطريقة الأخيرة علمت الروم - كما علمت القبائل العربية الموالية لهم في الطريق - أن المسلمين قادرون دائمًا على حماية حدودهم ، وقدرون كذلك على البطش بعدوهم إذا حدثه نفسه بالاستخفاف بهم أو التقليل من شأنهم وشأن الإسلام .

* * *

يقيت كلمة في الخطاب النبوية باعتبارها من أقوى الوسائل الإعلامية ؛ وكلمة أخرى في القصيدة الشعرية وكيف شاركت هذه الوسيلة الأخيرة في الدفاع عن الدين وما افترن به من القيم والمفاهيم ، وهذا وذلك ما نتحدث عنه في الفضليين التاليين :

الفصل السابع الخطبة النبوية

منذ أقدم العصور والخطبـة من حيث هـى تعـبر أقوى وسائل الإعلام والدعـاة والاتصال بـالناس للتأثـير في مشـاعرهم وإـيقـاعـهم بالـأفـكار الجـديـدة والـعقـائـد الجـديـدة ، وبـقـى شـأنـ الخطـابـة كـذـلـكـ فيـ العـصـرـ الجـاهـليـ وـفيـ صـدرـ الإـسـلامـ وـفيـ الـخـلـافـةـ الـأـمـوـيـةـ وـماـ تـلـاـهـاـ مـنـ حـكـومـاتـ ، بلـ بـقـىـ شـأنـهاـ كـذـلـكـ فيـ كـلـ ثـورـةـ حدـثـتـ عـلـىـ وـجـهـ الـبـسيـطـةـ ، وـذـلـكـ فيـ العـصـورـ الـقـدـيمـةـ وـالـوـسـطـىـ وـالـحـدـيـثـةـ ، وـسـيـقـىـ لـهـاـ هـذـاـ الشـأـنـ حـتـىـ تـبـدـلـ الـأـرـضـ غـيرـ الـأـرـضـ ،

منـ أـجـلـ ذـلـكـ عـنـ بـهـ التـقـادـ فيـ أـثـيـناـ وـكـتـبـ فـيـهاـ أـرـسـطـوـ كـتـابـهـ الشـهـيرـ (ـالـخـطـابـةـ) وـعـنـ بـهـ الـمـسـلـمـونـ وـحـظـيـتـ بـعـنـيـةـ كـبـيرـةـ مـنـ جـانـبـ (ـالـجـاحـظـ) فـيـ قـرـنـ الـثـالـثـ الـهـجـرـيـ ، وـبـقـيـتـ الـخـطـابـةـ مـوـضـعـ الـاـهـمـامـ الـعـظـيمـ مـنـ جـانـبـ الـدـارـسـينـ وـالـبـاحـثـينـ فـيـ مـجـالـ الـأـدـبـ وـالـنـقـدـ إـلـىـ الـيـوـمـ .

وـأـمـاـ فـيـ مـجـالـ الـإـلـاعـمـ فـقـدـ نـظـرـ الـعـلـمـاءـ الـبـاحـثـونـ فـيـ (ـعـلـمـ الـاتـصـالـ) فـوـجـدـواـ أـنـ الـاتـصـالـ فـيـ ذـاـتـهـ أـنـوـاعـ ثـلـاثـةـ وـهـيـ :

- ـ الـأـولـ ـ الـاتـصـالـ الشـخـصـيـ .
- ـ الـثـانـيـ ـ الـاتـصـالـ الجـمـعـيـ .
- ـ الـثـالـثـ ـ الـاتـصـالـ بـالـجـاهـيـهـ .

وـقـدـ تـحدـثـنـاـ فـيـ الـفـصـولـ السـابـقـةـ عـنـ النـوـعـ الـأـوـلـ ، وـرـأـيـناـ كـيـفـ مـارـسـهـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ فـيـ سـبـيلـ نـشـرـ الدـعـوـةـ ، وـكـيـفـ كـانـ هـذـاـ النـوـعـ هـنـ الـاتـصـالـ مـنـ أـنـجـحـ السـبـيلـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ هـذـاـ الـهـدـفـ .

ـأـمـاـ النـوـعـ الـثـانـيـ وـهـوـ الـاتـصـالـ الجـمـعـيــ فـهـوـ المـقـصـودـ بـالـخـطـابـةـ وـالـمـؤـتمرـ وـالـشـدـوـاتـ وـالـأـمـاـكـنـ الـتـيـ يـتـجـمـعـ فـيـهاـ النـاسـ يـسـمـعـونـ فـيـهاـ إـلـىـ مـحدثـ وـاحـدـ أوـ عـلـدـ مـنـ الـمـتـحـدـيـنـ ، وـإـنـ كـانـتـ الـخـطـبـةـ أـبـرـزـ ظـواـهـرـ الـاتـصـالـ الجـمـعـيـ

بلا نزاع ، وعليها — أى على الخطبة — اعتمد الرسول اعتماداً كبيراً في نشر الدعوة وفي شرح تعاليم الدين وغير ذلك .

أما الاتصال بالجماهير — وهو النوع الثالث والأخير — فهو من بداع العصور الأخيرة ومنها العصر الذي نعيش فيه ، ونخن نرى أن هذا العصر أصبح يعتمد في الإعلام بالدرجة الأولى على الأجهزة الجديدة والمحترفات الحديثة مثل الصحف والكتب والسيئما ووكالات الأنباء والراديو والتليفزيون ونحو ذلك ، والواقع أنه بدون هذه الأجهزة الجديدة لا يتيسر للقادة وأصحاب الرأى في عصرنا هذا أن يتصلوا بالجماهير ، ونقلهم الجماهير ونفعى بها الأعداد الضخمة من الناس في كل دولة من الدول الحديثة ، وهي الأعداد التي تعد بالآلاف والملايين الكثيرة ، ثم هي الأعداد التي يستحيل جمعها في مكان واحد لتنتسب إلى متحدث واحد كما كان هذا من الأمور الميسورة في العصور القديمة والبيئات القديمة .

معنى ذلك باختصار أن الاتصال بالجماهير هو التسمية التي تطلق على الإعلام والاتصال في العصور الحديثة أصبحت تعتمد على وسائل صناعية بحتة في هذا الحال ، وإن كانت لا تستطيع الاستغناء تماماً عن الوسائل النظرية القديمة ومنها الخطابة أو القصيدة ، أو الندوة أو المعرض وغير ذلك .

* * *

وخلاصة القول أننا حين نتحدث عن الخطبة النبوية إنما نتحدث عن قوة من قوى الإعلام في عصر الرسول تأتي في الدرجة الثانية مباشرة بعد القرآن الكريم والحديث الشريف .

فما الحالات العامة للخطب التي أثرت عن النبي؟

إن نظرة سريعة في هذه الخطب تدلنا على أنها اشتملت على الحالات التالية :

أولاً : الكلام في مجال الدين من حيث أركانه وعباداته ومعاملاته ، وقد استغرق ذلك معظم حياة النبي ﷺ منذ البعثة إلى نهايتها .

ثانياً : الكلام في مجال الجهاد ، وقد شرحت ذلك في بعض فصول الباب الأول ومنها فصل بعنوان : الأحاديث النبوية قوة دعائية .

ثالثاً : الكلام في مجال الأخلاق . وهو من أطول الحالات التي تكلم فيها الرسول . ذلك أنه - كما سبق القول في الفصل الذي عنوانه : القرآن أكبر وسائل الإعلام في عهد الإسلام - كان مسؤولاً عن بناء مجتمع جديد له مفاهيم جديدة وقيم جديدة ، ومن ثم اشتمل هذا المجال على بيان الصفات التي يحتملها الإسلام والصفات التي تهـى عنها .

ويطـول بنا القول لو أردنا أن نشرح هذين الجانـين ، وفيما أورـدناه من الكلام في مجال الأخلاق الجديدة التي صورـها القرآن ما يـغـيـرـ عن المـضـىـ في ذلك .

رابعاً : الثناء على الحالتـ سـبحـانـهـ وـتعـالـىـ بـماـ هوـ أـهـلـهـ منـ الصـفـاتـ ،ـ وـتـصـوـيرـهـ تـعـالـىـ فـيـ أـذـهـانـ الـمـسـلـمـينـ بـالـصـورـةـ الـتـيـ رـسـمـهـ الـقـرـآنـ ،ـ

خامساً : الثناء على أصحابـ رـضـوانـ اللـهـ عـلـيـهـ وـبـنـوـ خـاصـ -ـ أـبـوـ يـكـرـ وـعـمـرـ وـعـمـانـ وـعـلـىـ ،ـ وـحـثـ الـمـسـلـمـينـ جـمـيـعـاـ عـلـىـ إـكـرـامـهـمـ وـالـرـجـوعـ لـهـمـ فـيـ كـلـ مـاـ أـشـكـلـ عـلـيـهـمـ مـنـ الـأـمـرـ ،ـ

سادساً : أوصافـ الحـنـةـ وـالـنـارـ كـمـاـ جـاءـتـ كـذـلـكـ فـيـ الـقـرـآنـ .ـ هذهـ أـشـهـرـ الـحـالـاتـ الـتـيـ سـبـحـتـ فـيـ خـطـبـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ وـنـرـيدـ أـنـ نـخـتـارـ مـنـهـ مـاـ جـاءـتـ فـيـ سـيـلـ الـمـثـالـ وـهـمـ :ـ

١ -ـ مـحـالـ الـأـخـلـاقـ .ـ

٢ - مجال الثناء على أصحابه رضوان الله عليهم وستانق، بمثل واحد فقط لكل واحد من هذين المجالين ، رغبة منها في الإيجاز ، وتدليلًا في الوقت نفسه على الجانب الإعلامي أو الدعائي الذي قامت به الخطب النبوية خير قيام .

مجال الأَخْلَاق

دعا رسول الله ﷺ إلى مكارم الأخلاق كما أوصى بها الكتاب الكريم وكما اقتضته ظروف الثورة الجديدة التي هي الإسلام ، فأمر بحملة أشياء منها :

محاسبة النفس ، وحسن المعاملة ، وحسن الجوار ، والشعور التام بالمسؤولية الاجتماعية ، والتكافل الاجتماعي ، كما يدل عليها الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) ، كما أمر المسلمين جميعاً بالعمل للآخرة وعدم إهمال الدنيا : (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) ، كما أمر الرسول أيضاً بنصيحة الحاكم . ونهى رسول الله عن أشياء منها : الغيبة والنفقة وأكل مال اليتيم (وقتل النفس إلا بالحق) ، كما نهى عن الفخر وعن الظلم وعن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وعن الغش وعن إيذاء المرأة والضعيف ، وعن الإضرار بالجار .

غير أن أهم الصفات التي دعا إليها الرسول وحذر من نقدها - صفة الصدق ، وصفة الإخلاص .

(١) خطبته في معنى الإخلاص

عن علقمة بن وقارس أنه سمع عمر بن الخطاب ، وهو يخطب الناس فقال :

(١) محمد خليل الخطيب : الخاتم الأنام يخطب رسول الإسلام ص ٧٠

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأفعال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيّبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيمة رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمه فعمرها . فقال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لكي يقال : جرىء . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى وقال : تعلمت العلم وعلنته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمـتـ العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به إلى ربه فعرفه نعمه فعمرها ، قال : ما قررت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت لك ، قال : كذبت ، ولكن فعلت ليقال : جoward . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار » (رواه مسلم والترمذى والنسائى)

النبي يشى على أصحابه (١)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « صعد رسول الله ﷺ المنبر فحمد الله وأتى عليه ثم قال : مالى أراكم تختلفون في أصحابي أما علمتم أن حب آل بيته وحب أصحابي فرضه الله تعالى على أمي إلى يوم القيمة ؟ ثم قال . أين أبو بكر ؟ قال : هأنذا يارسول الله . قال . ادن مني . فضممه إلى صدره ، وقبل بين عينيه ، ورأينا دموع رسول الله ﷺ تجري على خده ، ثم أخذه بيده وقال بأعلى صوته معاشر المسلمين هذا أبو بكر الصديق .

هذا شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا هو صاحبى فى الغار ، صدقنى حين
كذبى الناس ، وآوانى حين طردونى ، واشترى لى بلا لا من ماله ، فعلى
مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين . والله منه برىء . فلن أحب أن يبراً من
الله ومنى فليبراً من أبي بكر الصديق ، ولبيلا الشاهد منكم الغائب .

ثم قال ﷺ : أين عمر بن الخطاب ؟ فوثب إليه عمر وقال : هأنذا
يا رسول الله فقال : ادن مني . فدنا فضممه إلى صدره وقبل بين عينيه
ورأينا دموع رسول الله ﷺ تجرى على خده ثم أخذ بيده وقال بأعلى
صوته : يا معاشر المسلمين ، هذا عمر بن الخطاب شيخ المهاجرين والأنصار ،
هذا الذى أمرنى الله أن أتخذه ظهراً ومشيراً . هذا الذى يقول الحق وإن
كان مراً ، هذا الذى لا يخاف في الله لومة لأثم . هذا الذى يفرق الشيطان
من شخصه ، هو سراج أهل الجنة فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ،
والله منه برىء . ثم قال : أين عثمان بن عفان ؟ فوثب عثمان وقال : هأنذا
يا رسول الله ، فقال : ادن مني فدنا منه وضممه إلى صدره ، وقبل بين
عينيه ، ورأينا دموعه تجرى على خده . ثم أخذ بيده ، وقال : يا معاشر
المسلمين : هذا عثمان بن عفان . هذا شيخ المهاجرين والأنصار . هذا هو
الذى أمرنى الله أن أتخذه سنداً وختنا على ابنتى . ولو كان عندي ثلاثة
لزوجتها إياه ، هذا الذى استحييت منه ملائكة السماء . فعلى مبغضه لعنة الله
ولعنة اللاعنين ثم قال : أين على بن أبي طالب ؟ فوثب إليه وقال : هأنذا
يا رسول الله ؟ قال : ادن مني . فدنا منه ، وضممه إلى صدره ، وقبل بين
عينيه ودموعه تجرى على خده ، ثم أخذ بيده . وقال بأعلى صوته :
يا معاشر المسلمين ، هذا شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا أخى وابن عمى
وختنى ، وهذا لحمى ودمى وشعرى ، هذا أبو الحسن والحسين ، سيدى
شباب أهل الجنة ، هذا مفرج الكرب عنى . هذا أسد الله وسيفه فى أرضه
على أعدائه فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والله منه برىء وأنا منه
برىء ، فلن أحب أن يبراً من الله ومنى فليبراً من على بن أبي طالب ،

وليسع الشاهد منكم الغائب ، ثم قال : اجلس يا أبا الحسن ، فقد عرفت ذلك ذلك » .

(أخرجه أبو سهل في شرف النبوة . الرياض النبرة ، ج ٢٩ ، ٥٣ ، إن الله اختار أصحابي) .

* * *

حسينا هذان المثلان السابقان من خطب رسول الله ﷺ ، وفي الخطبة الثانية لون من ألوان الدعاية الطيبة قام بها الرسول ليعلن الرضا عن هؤلاء الأربع الكبار من أصحابه وهم الذين تولوا الخلافة من بعده كما هو معروف في التاريخ .

غير أننا لا نستطيع أن نترك فصل (الخطبة النبوية) دون الوقوف قليلاً عند أشهر خطب من خطب الرسول ، وهي الخطبة التي ألقاها في :

حججة الوداع

وهما يقول ﷺ . . .
(أما بعد) أيها الناس .

اسمعوا مني أين لكم ، فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد على هذا في
موافق هذا . . .

أيها الناس . . .

إن دماءكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ! ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فإن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجahلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجahلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب ، وإن ماء الجahلية موضوعة غير (السدانة) و (السقاية) (١) .

(١) أي خدمة الكعبة وسقاية الناس بها .

أيها الناس . . .

إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرن من أعمالكم .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس . . .

إن لنسائكم عليكم حفأً ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكם ولا يأتين بفاحشة ، فإن فرعان فإن اللهم قد أذن لكم أن تعصلوهن وتهجروهن في المضاجع وتصربوهن ضرباً غير مبرح : فإن انتهى وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . . فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً :

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس :

إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسه منه .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله وسننی^(١) .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس . .

إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي فضل على عجمي ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتفوى .

ألا بلغت ؟ اللهم فاشهد .

(١) وفي رواية : كتاب الله وعترته أهل بيتي .

قال السامعون : نعم .

قال رسول الله ﷺ : فليبلغ الشاهد منكم الغائب ؛
أرأيت هذه الخطبة الجليلة كيف كانت بياناً صريحاً للعرب وتطبيقاً
حقيقةً لمبادئ القرآن ، وإعلاماً قوياً بالمبادئ التي بني عليها الإسلام ؟
إن أول شيء أوصى به رسول الله ﷺ أن ينسى المسلمون دينهم
التي كانت لهم في الجاهلية ، وأن ينسوا كذلك دماغهم وثارهم لهذه
الدماء التي أسفكت الجاهلية وأن يتركوا ربا الأموال التي أفرضوها في الجاهلية
وأن يبدأ بربا العباس عمه ودم عامر بن عبد المطلب .

ثم دعا النبي ﷺ كذلك إلى نبذ التفاخر بآثار الجاهلية ، واستثنى منها
مفسختين فقط هم السدانة أي: خدمة الكعبة ، والسكنية وهي سقى الحجاج
في الكعبة .

ثم دعا الناس إلى حسن معاملة المرأة ، وأوضحت لهم حق الرجل عليها ،
وحقها عليه . وقال للعرب: « انقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً »
ثم أوصى ﷺ قومه بمحافظة كل منهم على مال أخيه وعلى دمه ، فلا
يحل لأمرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه ، ولا يحل لأمرئ قتل أخيه
إلا بالحق .

ثم قال لهم : لقد تركت فيكم شيئاً لن حافظتم عليهما وأخذتم بهما
لن تصلوا أبداً . هذان الشيئان هما كتاب الله وسنة رسوله ،
وأخيراً دعاهم إلى نبذ التفرقة العنصرية أو غير العنصرية ، وكان كلامه
ﷺ في هذه النصيحة الأخيرة أوضح من ضوء الشمس . فقال لها المسلمين
كلمة صريحة وحازمة .

« ليس لعربي على عجمى ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتفوى » ،
وكم كان رسول الله بليغاً كل البلاغة ومبيناً أوضح إثباتاً حين يختتم
كل فقرات خطابه بهذه العبارة :

الله أعلم

لقد عرف التاريخ خطباء كثیرین من اليونان والعرب كانوا يستخدمون هذه الطريقة من طرق الخطابة وهى أنهم يختمون كل فقرة من فقرات كلامهم بجملة معينة يكررونها ويلحقون في تكرارها حتى تفصل بين فقرة وأخرى أو معنى ومعنى ، وتنقل السامع إلى الفقرة التالية أو الفكرة التي تأتی بعد ذلك وهكذا .. ولكن ^إالتاريخ قد يعجز عن الإتيان بعشل هذه العبارة التي كان يختم بها محمد جزءاً من أجزاء خطبته وهي قوله ...
الآ هل بلغت ؟ اللهم فأشهد .

لها عبارة لها من قوة الإعلام وتنبيه الأذهان ، وتسجيل الشهادة على كل من حضر هذه الخطبة ما لا يمكن أن يكون لعبارة أخرى في موضع كهذا في موقف كهذا من رسول كرم كهذا الرسول .

سادساً: أعني سادس الحالات التي اتسعت لخطب النبي - مجال استقبال الوفود التي تأتي لتعلم إسلامها بين يديه، أو يأتي بعضها بعد إسلامها لكي تستزيد من عمليها وتزداد به هداية ، وكان المؤمنون الأوائل من الصحابة يشاركون في هذه الفرصة ويردون على خطباء الوفود إذا أذن لهم بالرسول بذلك .

قدم وفد عبد القييس على رسول الله ﷺ . فقال : أيسكم يعرف
قيس بن معاذة الإيادى ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله نعرفه ، قال : فما فعل ؟
قالوا : هلك ، قال : ما أنساه بعكاظ فى الشهر الحرام وهو على سجدة
أحمر وهو خطب الناس ، ويقول :

أيها الناس :
اسمعوا وعوا

من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت : إن في السماء لخبرآ ، وإن في الأرض لعبرآ ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونحوه تدور ، وبحر يفور ، أقسم قس بالله قسمها حقآ .. لئن كان في الأرض

رضا ليكونن بعده سخط . إن الله دينا هو أحب إلينه من دينكم الذي أنتم عليه ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا به ، أم تركوا هناك فناموا ؟

ثم قال رسول الله ﷺ : أفيكم من يروي شعره ؟

فأنشدء بعضهم :

فِي الْذَاهِبِينَ الْأُولَيْنَ مِنَ الْقَرْوَنِ لَنَا بِصَائِرٍ
لَا رَأَيْتَ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ هُنَّ مَصَادِرٌ
وَرَأَيْتَ قَوْمًا نَحْوَهَا يَسْعَى الْأَصَاغَرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيْكُمْ وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَالَةَ حِيثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ
سَابِعًا : وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ خُطُوبُ الرَّسُولِ عَلَى شَكْلٍ وَصَيْباً بِجَمِيعِهِاتِهِ
الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ لِبَعْضِ الْوَفُودِ الَّتِي تَفَدَ إِلَيْهِ فِيهَا ، وَمِنَ الْأَمْثَالِ عَلَى
ذَلِكَ وَصِيَّتِهِ لَوْقَدِ الْأَزْدَ.

روى علقمة بن يزيد الأزدي عن جده قال :

وَفَدَتْ سَابِعَ إِسْبَعَةِ مِنْ قَوْمِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ
وَكَلَمْنَاهُ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ سَيِّئَتِنَا وَزَيْنَتِنَا فَقَالَ : مَا أَنْتُمْ ؟ قَلَنَا :
مَؤْمِنُونَ ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَقَالَ : إِنَّ كُلَّ قَوْلٍ حَقِيقَةٌ ، فَمَا حَقِيقَةُ
قَوْلِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ ؟ قَلَنَا : خَمْسٌ عَشْرَةُ خَصْلَةٍ ، مِنْهَا خَمْسٌ أَمْرَتَنَا سَلَكَ أَنْ نُؤْمِنَ
بِهَا ، وَخَمْسٌ أَمْرَتَنَا أَنْ نُعْمَلَ بِهَا ، وَخَمْسٌ تَخَلَّقُنَا بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَنَحْنُ
عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ نَكْرِهَ مِنْهَا شَيْئًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : مَا الْخَمْسُ الَّتِي أَمْرَتُكُمْ
بِهَا رَسْلِي ؟ قَلَنَا : أَمْرَتَنَا سَلَكَ أَنْ نُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكَتَبِهِ وَرَسُلِهِ وَالْبَعْثَ
بَعْدَ الْمَوْتِ ، قَالَ : مَا الْخَمْسُ الَّتِي أَمْرَتُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوْنَا بِهَا ؟ قَلَنَا
أَمْرَتَنَا أَنْ نَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ نَقِيمَ الصِّلَادَةَ وَنَؤْدِي الزَّكَاةَ وَنَصُومُ
رَمَضَانَ وَنَحْجِبَ الْبَيْتَ إِنْ أَسْتَطَعْنَا إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ وَمَا الْخَمْسُ
الَّتِي تَخَلَّقُنَا بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَلَنَا : الشَّكْرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلاءِ

والصدق في الحرب عند اللقاء ، وترك الشهادة بالأعداء ، فقال رسول الله ﷺ :
حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ، ثم قال : وأنا أزيدكم
خمساً فم لكم عشرون خصليه : إن كنتم كما تقولون فلا تجتمعوا مالاتكلون ،
ولا تبنيوا مالاتسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنت عنه زائلون . واتقوا
الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون . وارغبوا فيما عليه تقدمون ،
وفيه تخلدون .

فتفرقوا وقد حفظوا وصيته عليه الصلاة والسلام .. وعملوا بها ^(١) :

* * *

أتينا بهذه الوصايا الأخيرة لتكون نموذجاً من خطب الرسول ﷺ على هذه الصورة ، ولما كي تكون مثلاً حياً من طريقة الرسول في تعليم الدين ، وهي مثل يقوم كما رأيت على الحوار الاطيف بين الأستاذ والتلاميذ ، كما يقوم كذلك على مسيرة عقول السامعين ، وإضافة المعلومات الجديدة على أساس من المعلومات القديمة – فعل المعلم البارع والمربي الماهر والمحدث اللبق .

الفصل الثامن الدعائية الشعرية في عهد الرسول

رأينا من قبل كيف أن أهم وسائل الإعلام في عهد الرسول وسيلة الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة ، وأما الكلمة المسموعة فتمثلت في خطب النبي وخطب الصحابة وفي القصائد الشعرية ، وأما الكلمة المكتوبة فكانت لها صورة واحدة لم تكن تعلوها إلى غيرها في حياة الرسول والصحابة ، ونعني بها صور الرسائل التي بعث بها النبي إلى الملوك ورؤساء القبائل المحاورة يدعوهם فيها إلى الإسلام ، وفي الرسائل التي وردت عن النبي والصحابة في غير هذا الغرض .

ولكن السؤال الذي يتबادر إلى ذهاننا الآن هو : ما منزلة الشعر بين الوسائل الإعلامية التي تعتمد على الكلمة المسموعة ؟ أو بمعنى آخر : أيهما كان أقوى تأثيراً في الجموع العربية وأدى إلى نجاح الرسالة الحمدية ؟ الخطابة أم الشعر ؟ .

مما لاشك فيه أن الخطب – ونخص بالذكر منها خطب صاحب الدعوة – كانت أقوى في باب الإعلام والدعائية من جميع الوسائل الأخرى التي انطوت تحت عنوان : « الكلمة المسموعة » ومن السهل علينا أن نلاحظ قبل كل شيء أن العرب على عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين وإلى أواخر الدولة الأموية كانوا أهل خطابة أكثر منهم أهل كتابة ، ذلك أن الخطابة ملائمة للبداوة والكتابة وليدة الحضارة وأكثر ملاءمة لها من الخطابة ، ولذلك لم يعرف المسلمين الكتابة الفنية بالمعنى الصحيح إلا بعد دخول الأمم الأجنبية في الإسلام ، ومنها دولة الفرس بنوع خاص ، وهذا هو السبب في أن الخطابة بقيت أولى وسائل الإعلام ، والتأثير عند العرب طول العهد النبوى وعهد الخلفاء الراشدين وجزء كبير من العهد الأموى ،

ثم هذا هو السبب في أن العرب في عهده كأنو ينظرون إلى الخطيب
نظرة أعلى من نظرتهم إلى الكاتب .

أما الشاعر فكان في المنزلة التي تلي منزلة الخطيب، ومن هنا كان النبي
وخطفاؤه من بعده أشد حرضاً على الخطيب منهم على الشاعر ، ولو لا أن
التقاليد العربية القديمة أعطت الشاعر أهمية عظيمة لكان من الجائز أن
يحمله النبي والخلفاء الراشدون من بعده ، ولكنهم احتفظوا به وبشعره
لأن شهره كان يترك أثره في نفوس العرب الذين تعودوا سمعاً منه
العصر الجاهلي .

ولإليك هذين الخبرين : أحدهما عن شاعر والآخر عن خطيب :
فأما خبر الشاعر فهو هنا : (الأسود بن شريح) وقد جاء إلى النبي
ينشده بعض المدائح واستحسنها مرتين ، إذ دخل عليهما عمر ، والشاعر
لا يعرفه ، فصباح قيالاً : واثكلاه - من هذا الذي أسكنت له عند النبي ؟ فقال
النبي : هذا عمر ، هذا رجل لا يحب الباطل .

يؤخذ من هذا الخبر أن الشعر كان ينظر إليه منذ ظهور الإسلام على
أنه باطل ، وذلك مصداق لما جاء في القرآن الكريم : « والشّعّار يتبعهم
الغاون * ألم تر أنّهم في كل واد يهيمون * وأنّهم يقولون مالا يفعلون *
إلا الذين آمنوا » .. إلخ .

معنى ذلك أن الشعر كان في زمن النبي والخلفاء الراشدين يعتبر
وسيلة إعلامية من الدرجة الثانية بعد الخطبة .

وأما خبر الخطيب فهو هنا (سهل بن عمرو) وقد أسر في بدر فأشار
عمر على النبي بكسر ثنيتيه السفلتين ليصبح عاجزاً عن الكلام ، وكان
مشقوق الشفة السفلة ، فأبى النبي ذلك وقال : « عسى أن يقوم قياماً
لأنّمه » فإذا زال عسر حتى رأه في حروب الردة أيام أبي بكر يقطع بلسانه
كم يقطع السيف ، فمحمد له ذلك المقام وصدقت فيه نبوة رسول الله ﷺ ،

ووضاحت حجته في الحرص على هذا الخطيب الذي قد ينتفع به في يوم من الأيام .

* * *

والخلاصة حتى الآن أن النبي ﷺ - وهو داعية الإسلام - لم يكن شاعراً « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » وإنما كان خطيباً ومحدثاً ، ومن ثم كانت خطبه وأحاديثه من أكبر وسائل الإعلام والدعائية للإسلام وذلك بعد القرآن ، ومع هذا وذلك فإن محمدآ لم يتجلّ الشعراً ولم يرد الشعراء وهو يعلم جيداً أن هؤلاء مكانته كبيرة في تفاصيل العرب منذ الجاهلية . ولذلك سمع الرسول شعراً في مدحه ومدح الدين الذي جاء من أجله كما سمع الرسول شعراً في ذم قريش وهو منهم وهم منه . وكان كبير الشعراء الذين هجووا قريشاً أمام الرسول (حسان بن ثابت) ، وقد أعرب له الرسول عن تعجبه من أنه يهجو قريشاً وهم أهله وعشيرته ، فأجابه حسان : أنا أعلم ذلك يارسول الله ، ولكنني أستلك منهم كما تسل الشعراً من العجبن » . فسكت الرسول العظيم .

* * *

ولنا بعد ذلك أن نستعرض طائفة قليلة من الأشعار التي قامها حسان ابن ثابت في مدح النبي ﷺ (١) .

من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
يلوح كما لاح الصقيل المهندي
وعلمنا الإسلام فالله نحمد
بذلك مما عمرت في الناس أشهد
سواك إلهًا أنت أعلى وأمجد
فإياك نستهوي وإياك نعبد
نحي أثانا بعد يأس وفتره
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً
 وأنذرنا ناراً وبشر جنة
وأنت إلى الحق رب وخلقي
تعاليت رب الناس عن قول من دعا
لنك الخلق والنعاء والأمر كله

(١) سط المائل، ص ٧ جنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ مص ٩٦ .

لأن ثواب الله كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد
ألا ترى معى أن شعر حسان في هذه الأبيات يوشك أن يكون نظماً
لبعض آيات القرآن الكريم التي تذكر أن محمداً بعثه الله بعد فترة من الرسل ،
وأنه بعث والناس يعبدون الأصنام بدلاً من عبادة الله تعالى ، وأن الله
أرسله إلى الخلق هادياً وبشيراً ونذيراً وسراجاً مثيراً ، وأنه بشر بالجنة
وأنذر بالنار ، وما بعد الحياة الدنيا شيء غيرها وأن الله تعالى أعلى مما يعبد الناس
غيره من الحجارة وغيرها ، وأن الأمر كله لله ، له الخلق ولهم الحمد وهو
وحده رب النعم التي ينعم بها الناس ، وأن الجنة هي المكان الذي وعلمه به
كل مؤمن بالله تعالى ومقر بوحدانيته .

وكل هذه المعانى إسلامية بختة وليس لعرب عهود بها قبل ظهور الدين
الجديد – وانظر إلى شاعر آخر – وهو كعب بن زهير – كيف مدح
الرسول ﷺ بقصيدة عظيمة أعجب الرسول نفسه بها فخالع بردته على
فأقائلها تكريماً له ، وفيها يقول (١) :

مهند من سيف الله مسلول ببطن مكة لما أسلموا زلوا عند اللقاء ولا ميل معازيل من نسج داود في الهيجار ابيل قوماً ، وليسوا مجاذيم إذا نيلوا	إن الرسول لنور يستضاء به في عصبة من قريش قال قائلهم زوالهاز الأنكاس ولا كشف (٢) شم العرائين أبطال لبوسهم لا يفرحون إذ نالت سهامهم
---	---

* * *

على أن الشعراء المحيطين بالنبي كان عليهم أن يقوموا بواجب آخر –
فضلاً عن مدح الرسول – وهذا الواجب – في نظرهم – هو هجاء أعداء
الإسلام من المشركين في مكة واليهود في خيبر وغيرها من المراكز اليهودية

(١) كتاب جمهرة أشعار العرب . طبعة بولاق سنة ١٣٠٥ م ص ١٥٠ .

(٢) أنكاس جمع نكس بـ كسر النون وهو الجبان والكشف بضم الشين الذين ينكشفون للعدو .

ومن قول حسان في هجاء خيبر على سبيل المثال (١) :

أو عبد شمس وأصحاب اللوا الصيد
أو من بنى هاشم أو من بنى أسد
أو من بنى نوفل أو ولد مطلب
أو كنت من زهرة الأبطال قد علموا
يا آل تم لا تنهى سفيهكمو
وقال هجو أبا هلب (٣) :

أبا هب أبا^نج بـأن مـحمدـاً
سيـعـلـو بـما أـدـى وـإـن كـنـت رـاغـمـاً
وـإـن كـنـت قد كـذـبـتـه وـخـذـلـتـه
وـحـيـدـاً وـطـاوـعـتـهـيـجـيـنـ الضـرـاغـمـاً
ولـو كـنـت حـرـافـيـأـرـوـمـهـهـاشـمـ
وـفـي سـرـزـهاـمـنـهـمـ منـحـتـ المـظـالـمـاـ
سـمـتـهـاـشـمـلـمـكـرـمـاتـوـلـعـلاـ

وقال حسان هبجو أبا سفيان (٥).
وغودرت في كاب (٤) من اللؤم جائماً

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم
هو الغصن ذو الأفنان لا الواجد الوغسد
فدونك لصق مثلكما لصق القرد
فمالك من إصدار عزم ولاورد
بني عبد مخزوم ووالدك العبد
كريماً ولم يقرب عجائزك الجبد
ولكن هجين ليس يورى له زند
كما نيط خاف الراكب القدح الفرد
ومالك فيهم محتد يعرفونه
وأبلغ أبا سفيان عن رسالة
وإن سناء المجد من آل هاشم
وما ولدت أفناء زهرة منكمو
ولست كعباس ولا كابن أمه
وكنت دعياً نيط في آل هاشم

(٢) في الأصل، الفئات .

(۱) دیوان حسان ص ۸۴.

(٤) هــكذا في الأمثلــ

(۳) دیوان حسان بن ثابت ص ۸.

(٥) الديوان، ٩١

وأفحش حسان في هجاء أبي سفيان حتى قال فيه(١) :

غضبت بفرع من أبيك وحاله
وغضبت بنو النجار بالسكر الربط
فلست بخير من أبيك وحاله
ولست بخير من مفاضلة الكلب
ولست بذر دين ولا ذر أمانة
ولست بحر من لؤى ولا كعب

* * *

ثم كان على الشعراء الملازمين للنبي ﷺ واجب ثالث وهو تهنة
الرسول يوم النصر ورثاء القتلى من ذويه وأصحابه في ميدان الحرب :

قال حسان في يوم بدر يرثي قتلى المسلمين في هذه المعركة(٢) :

ألا يا قوم هل لما حسم دافع
وهل ما مضى من صالح العيش راجع
تلدكت عصراً قد مضى فتهافت
بنات الحشا وانهل مني المدامع

صباية وجد ذكرتني أحبة
وقتلى مضوا منهم نقيع ورافع
منازلهم والأرض منهم بلا قع
وسعده فأضحي في الجنان وأوحشت
عذاب المنشايا والسيوف اللوامع
مطیع له في كل أمر وسامع
ولا يقطع الآجال إلا المصارع
إذا لم يكن إلا النبيين شافع
ومشهدنا في الله والموت نافع
لأنفساً في طاعة الله تابع
 وأن قضاء الله لا بد واقع
فألا يرجون منه شفاعة
وذلك يا خير العباد بلا عننا
لنا القدم الأولى إليك وخلفنا
ونعلم أن الملك لله وحده

* * *

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) الديوان ص ٨٥ .

وقال حسان يوم فتح مكة من قصيدة أوطا :
عفت ذات الأصابع فاجلواه إلى عذراء مزها خلاء
ومنها :

فاما تعرضا عن اعتمنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء
يعين الله فيه من يشاء
وإلا فاصبروا ببلاد يوم
هم الأنصار عرضتها اللقاء
وقال الله قد يسرت جندا
قتال أو سباب أو هجاء
لنا في كل يوم من معد
ونضرب حين تختلط الدماء
فتحكم بالقوافي من هجانا
وقال الله قد أرسلت عبدا
يقول الحق إن نقع البلاء
شهدت به وقوى صدقوه
وجبريل أمين الله فيما
وروح القدس ليس له كفاء
ومنها :

ألا أبلغ أبا سفيان عن
فأنت مجوف نخب هواء
هجوت محمدآ فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء
أشجهوه ولست له بكفء
فشر كما تخير كما القداء
فن يهجو رسول الله منكم
 ويمدحه وينصره سواء
لسانى صارم لا عيب فيه
وبحرى لا تذكره الدلاء

* * *

وآخر آكان من عمل الشعراء الملتقطين حول النبي عليه أتمهم يردون على
الشعراء الذين كانوا يهجونه تقريباً للمشركين ، ومن هؤلاء شاعر
يقال له (ابن الزبعري) وقد ظل يهجو النبي حتى أسلم فانقلب شاعراً من
شعراته وأنصاره بعد أن كان من أعدائه وخصومه ، وقد رد عليه حسان
ابن ثابت في قصائد كثيرة منها على سبيل المثال (١) .

لاطت قريش حياض الجدب فاقترطت سهم فأصبح منه حوضها صفراء

وأوردوا وحياض المجد طامية فدل حوضهم الوراد فانهدا

ومنها :

يا آل سهم فإني قد نصحت لكم
لأبعن على الأحياء من قبرا
إلا ترون بأنني قد ظلمت إذا
كان (الزعرى) لمنع (ثابت) خطرا
كم من كريم يغض الكلب مئزره
ثم يفر إذا أقيمه حجرا
لو لا النبي وقول الحق مغضبة
لما تركت لكم أثني ولا ذكرا

* * *

وهكذا كان الشعر يقوم في خدمة النبي ﷺ بكل هذه الواجبات التي
ألقاها على كاذهله ظهور الإسلام .

ولكنا نعود فنقول إن الرسول — فيما يظهر — كان لا يغول كثيراً على
هذه الوسيلة الإعلامية أو هذا الشكل من أشكال الدعاية ، وذلك أن
الشعر مهما عظم شأنه في تلك الفترة لا يمكن أن يقاس من هذه النواحي
بالقرآن الكريم أو بالحديث الشريف أو بخطب الرسول ﷺ أو بالقدوة
الحسنة التي امتاز بها المصطفى ﷺ وأصحابه الكرام .

ومما يثير فيه أن الأفضلية كانت لهذه الوسائل الإعلامية التي أشرنا إليها
ووقفنا عند كل واحدة منها ، وكانت كلها مقدمة على وسيلة الشعر الإسلامي
الذى لأن أسلوبه بظهوره هذا الدين ولم يصلح في جزالة الشعر الجاهلى ومتانة
نسجه وقوته بنائه ، ذلك أن الشعرا في الإسلام لانت عريكتهم ورقت
عواطفهم وامتلأت نفوسهم بالمعنى الجمدي والمفاهيم الجديدة والقيم الجديدة
وهي القيم التي من شأنها أن تخلق من العربي في الإسلام رجلاً بعيداً عن
العنف وعن الحق وعن البطش وعن الظلم ، والشعر عند العرب في الجاهلية
كان يبني على الشر في أكثره ، وذلك بعض النظر عن بعض الحكم الذي
وردت في المعلقات والتي كانت تعيره عن تجاهله في الحياة .

ولنا أن نأخذ الدليل على ذلك من حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ .

فقد انقسم النقاد القدماء حول حسان قسمين :

القسم الأول : وهو الأقل - يحكم له حكماً مطلقاً ويقول إنه من أجود
الشعراء في الجاهلية والإسلام .

القسم الثاني : وهو الأكثرية من الققاد ومعهم حسان بن ثابت نفسه -
يوازن بين جودة شعره في الجاهلية وسقوطه في الإسلام .

ومن أشهر رجال القسم الأخير الأصمسي ، وقد أثرت عنه ثلاث
روايات :

الرواية الأولى وتقول : إن الشعر نكد ، يقوى في الشر ، فإذا دخل
في الخير ضعف ، وهذا حسان كان من فحول الشعراء في الجاهلية - فلما
جاء الإسلام سقط شعره ^(١) .

والرواية الثانية تقول : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر .
ثم قطع متنه في الإسلام لحال النبي ﷺ ^(٢) .

والرواية الثالثة تقول : طريق الشعر إذا دخلته في باب الخير لان
«أى ضعف» . ألا ترى حسان بن ثابت كان قد علا في الجاهلية فلما دخل
شعره في باب الخير : من مراثي النبي ﷺ وحزنة وعصر رضوان الله
عليهمما لان شعره . وطريق الشعر هو طريق الفمحول مثل امرئ القيس
وزهير والنابغة في صفات الديار والرحال والهجاء والتشبث بالنساء والحرم
والخيل وال Herb والافتخار ، فإذا دخلته في باب الخير لان ^(٣) .

وقيل لحسان بن ثابت نفسه ، لان شعرك وهرم يا أبا الحسام .

فأجاب عن ذلك بقوله :

يا ابن أخي إن الإسلام يمحز عن الكذب فلا يجيء الشعر جيداً ^(٤) .

(١) أسد الغابة ج ٢ ، ٤ .
(٢) الشعر والشعراء من ١٧١ .

(٣) الموشح ص ٦٢ .

رأيت هذه الرويات الثلاث في كتاب (حسان بن ثابت شاعر الرسول) للدكتور سيد حنفى
حسين - الحلقة رقم ٣٠ من مسلسلة أعلام العرب من ٤٣ .

(٤) أسد الغابة ج ٢ ، ٤ .

الباب الثالث
الدعائية والإعلام
في عهد الخلفاء الراشدين

مِنْهُمْ مِنْهُمْ

نريد أن نلقى على أنفسنا هذا السؤال :

ماذا كان عليه الحكم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين؟ مadam شكل الإعلام ونظام الاتصال بالناس مبنياً في كل زمان ومكان على شكل الحكومة القائمة؟

أجل - لكل نوع من أنواع الحكومات في العالم نظام إعلامي يتفق معه وبياته ، وهذا قول صحيح بالقياس إلى الحكومات القديمة والحديثة على السواء ، والإعلام أو الاتصال بالناس هو الوسيلة الوحيدة لإيجاد التفاهم بين الحاكم والمحكوم منذ أقدم العصور ، وحاجة الحاكم إلى هذا الاتصال من حاجة المحكوم إليه .

غير أن شكل الحكومة في عهد الخلفاء الراشدين كان مختلفاً شكل الحكومة عند الخلفاء الأمويين فالعباسيين وسائر الحكومات الإسلامية التي ظهرت بعد ذلك إلى اليوم ، وبناء على ذلك وجب أن يكون للإعلام أو الاتصال في حكومة الخلفاء الراشدين صورة مختلفة للإعلام أو الاتصال في عهود الحكومات الإسلامية التي أتت بعد ذلك :

وحسبينا أن نلقي النظر أولاً إلى الطريقة التي اختار بها المسلمون أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً - رضي الله عنهم - وهي طريقة مبنية على الانتخاب الحر في أكثره ، أما الخلافة الأموية فالعباسية وما جاءت بعدها من الحكومات الإسلامية فقد بنيت على الوراثة ، وفرق كبير بين الانتخاب والوراثة - وهذا معنى ما قاله المؤرخون الإسلاميون القدماء من أن الخلافة الإسلامية بعد علي بن أبي طالب تحولت إلى ملك عصوض كالمملوك الذي شهد الفرس أو الروم ، ومن إليهم .

وقد نستطيع أن ننظر نظرة سريعة إلى أنواع الحكومات عبر التاريخ ، وخاصة في البلاد الأوروبية ذاتها ، فنجد منها الحكومات الآتية :

الحكومة الديمقراتية :

ولهذه الديمقراطية أشكال مختلفة ، ولكن من الحق أن الشبه بعيد بين هذه الأشكال جميعها من جهة ، وشكل الديمقراطية في حكومة الخلفاء الراشدين من جهة أخرى ، ذلك أن الديمقراطية الإسلامية على أيدي الخلفاء الراشدين كانت تمثل في مظاهر واحد فقط ، هو مظهر «أهل الحل والعقد» وهو أشبه ب مجلس يتألف من كبار الصحابة ويستعين به الخليفة في تسيير أمور المسلمين ، ولا يكاد الخليفة يقطع في أمر من هذه الأمور حتى يرجع إلى أولئك الصحابة . أما عامة المسلمين فلم يكن لهم رأي معمول به ، ولا يمنع ذلك واحداً من أولئك العامة — رجالاً كان أو امرأة — أن ينتقد الخليفة في بعض تصرفاته أو يعتريض عليه في بعض أحكماته . فإذا وافق هذا الاعتراض كلام الله أو كلام رسوله لم يسع الخليفة إلا النزول عز، رأيه والاعتراف لهذا الرجل أو المرأة بأنه أو بأنها على حق ، ومن هنا جاء قول عمر في بعض واقفه : أخطأ عمر وأصابت امرأة .

ومنها الحكومة الأوتوقراطية :

وهي حكومة الفرد المستبد ، ومن المؤكد أنها أبعد أشكال الحكومات عن حكم الخلفاء الراشدين ، وهل كان واحد من أصحاب النبي ﷺ أبى بكر وعمر وعثمان وعلى يستبدل برأيه بهذا المعنى ؟ لقد مدحهم النبي في حياته وأثنى عليهم جميعاً ودعا لهم جميعاً وبشرهم جميعاً بالجنة ، وما ذلك إلا لأن كل واحد منهم كان صورة من النبي نفسه في جميع تصرفاته ؛ وحركاته وسكناته ، وكان كأنما يفكر بعقل النبي وينظر بعين النبي ويسمع بأذنه ، ويحس بقلبه ، ويفكر بيه إذا لزم الأمر ، ولم يمنع ذلك من أن يستغل كل واحد منهم بشخصيته التي تظهر في سيرته؛ وسنعرض لجانب واحد من جوانبها فقط ، هو الجانب الإعلامي .

و منها الحكومة الشيوقراطية :

و هي حكومة ترفع الحكماء على أساس الدين إلى مرتبة فوق مراتب البشر ، ثم هي الحكومة التي تجعل لرجال الدين منزلة فوق منزلة الحكومين الذين ليست لهم هذه الصفة .

ولسنا بحاجة إلى التدليل على أن هذه الصورة من صور الحكم لا وجود لها في حكومات الخلفاء الراشدين ، وذلك بالرغم من أن هؤلاء الخلفاء كما بينا كانوا لا ينطعون في أمر من أمور المسلمين حتى يردوه إلى كبار رجال الدين ، وهم صحابة رسول الله ﷺ .

و منها الحكومة الأولى جاركية :

و هي حكومة الصفة أو الأقلية من الأشراف والساسة . وقد جاء الإسلام فساوى بين الناس ، وأنكر مثل هذه التفرقة . كما جاء في الأثر عن رسول الله ﷺ — قوله :

« اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد جبشي كأن رأسه زبيبة » .
لم تكن حكومة الخلفاء الراشدين واحدة من هذه الحكومات التي أشرنا إليها ، وإنما كانت طرزاً خاصاً لم يعرفه الشرق ولا الغرب .

كانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم الديموقراطية بالمعنى الذي شرحناه وهو حكم الرعية بشرط أن يستعين الخليفة في حكمها (بأهل الحل والعقد) من هذه الرعية .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم المساواة ، وذلك بين الحاكم والمحكوم ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وفي ذلك يقول الرسول في حجّة الوداع (ليس لعربي على أعمى فضل إلا بالتقى). (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم معنى الحرية ، فلكل فرد في المجتمع الإسلامي حرية كاملة في أن يوجه النقد للم الخليفة وذلك كما قلنا : صبعد عمر بن الخطاب المنبر يوماً وقال للناس : إن أخطأت فقوموني ،

فإنبرى له أحد الحاضرين وقال : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه محمد سيفنا ، فما كان جواب عمر إلا أن قال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من إذا أخطأت قومي بسيفه » .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم معنى العدل ، ولانعلم حكومة في تاريخ العالم كانت تتلزم بالعدل بالقدر الذي ظهر في حكم الخلفاء الراشدين .. وأخبار عمر بن الخطاب في هذا الحال أشهر من أن يشير إليها البحث ، لأنكاد نستثنى من هذا الحكم إلا الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) رضي الله عنه ، فقد كان عثمان يفهم العدل بصورة تختلف ما كان عليه أبو بكر وعمر . وربما من أجل ذلك قامت (الفتنة الكبرى) التي اشهر أمرها في التاريخ الإسلامي ، وستتفق عندها في الكلام عن الإعلام في زمان عثمان .

ترى ما الذي جعل حكومة الخلفاء الراشدين شكلاً مختلفاً جل جمیع الحكومات الحديثة في الإسلام ؟

إن الذي جعل لها ذلك هو الحقيقة القائلة بأن القصد الأول للخلفاء الراشدين هو الحفاظة التامة على تراث النبي بالصورة التي تركها بها ، أو بأن الشأن الأول للخلفاء الراشدين كان للعقيدة الإسلامية كما تركها النبي بعد فراغه من أداء رسالته .

وهذه الحقيقة السابقة هي التي نستطيع أن نفسر على أساسها جمیع الأفعال التي صدرت عن الخلفاء الراشدين ، ومنها أعمال القضاء ، وأعمال السياسة ، وأعمال التربية والتعليم ، ومنها — بطبيعة الحال — أعمال التوسيع في الفتح .

فهل كانت الفتوحات الإسلامية بعد وفاة الرسول مجرد الغلبة والسلطان أو لإشباع شهوات الغزو والقتال وغريزة لاصراع ؟ كلام ثم كلام . وننظر في سيرة الخلفاء الراشدين ، فنرى أنهم كانوا مقيدين بكل التقييد في سيرة الرسول ، فما دام الرسول لم يكن يهدف من غزواته إلى الجاه

والسلطان، وإنما كان يهدف إلى أمرين هما: نشر الدعوة الإسلامية وحماية هذه الدعوة في داخل المدينة وفي خارجها ، فكذلك كان الخلفاء الراشدون لا يهدون وراء الفتوحات إلا إلى هذين الغرضين ولا شيء غير ذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فما نظام الإعلام ، أو ما هي وسائل الاتصال التي كان يمارسها الخلفاء الراشدون بناء على هذه الحقيقة التي شرحتها ؟ وإلى أي حد نجحت هذه الوسائل في إيجاد التفاهم بين الحاكم والمحكوم في عهد أولئك الخلفاء بوجه عام ؟

ما لاشك فيه أن حكومات الخلفاء الراشدين ترسّمت طريق الرسول في أكثر المجالات الإعلامية التي ظهر فيها نشاطه صلوات الله عليه ، ثم زادت على المجالات أخرى دعت إليها الظروف المحيطة بكل واحد من أولئك الأربعة ، وسيشرح هذا الباب بعض هذه الحالات وما أحاط بها من ظروف .

من أجل ذلك اقتدى الخلفاء الراشدون بالرسول في التركيز على الوسائل الإعلامية الآتية :

أولاً — وسيلة القرآن .

ثانياً — وسيلة الحديث .

ثالثاً — وسيلة الخطابة .

رابعاً — وسيلة الحج والعمرمة لله .

خامساً — وسيلة القدوة الحسنة .

سادساً — وسيلة الفتوح .

غير أنه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بالذات وجد أنه ابتعد عن السياسة الإعلامية التي سنتها الشیخان من قبل «أبو بكر وعمر». واعتذر عن ذلك بأنه يرى مصلحة المسلمين تتحقق بطريقة أو أخرى غير طريقة الشیخین ، ومن ثم طفق عثمان شخص أقرباًه بالولاية على الأقاليم ، وينحصر الباقيون منهم بكثير من المطابا التي يأخذها من بيت المال . وكان يسمى هذا المال (مال الله) ، واعتبر الصحابة على ذلك وقالوا إنه (مال المسلمين) . والفرق بين المعندين عظيم .

من أجل هذه الظروف — ونعني بها ظروف المعارضية التي أدت إلى الثورة — ظهرت الحاجة ماسة إلى (الدعائية) ، ولكن هذه الدعائية لم تكن من جانب عثمان لتبرير موافقته التي سخط عليها كبار الصحابة ، وإنما كانت من جانب الصحابة وأبناء الصحابة ، وقد انتشروا في مصر والشام وقاموا فيها وفي غيرها من الأقطار بهذه الدعائية الخطيرة ، وهي الدعائية التي قتلت عثمان بن عفان ، وهي وحدها المسئولة عن قتيله .

ولتكن هذه الدعائية — كما سنشرح ذلك في موضعه من الكتاب — لأمرین لا ثالث لهما :

أو همما — السياسة الإعلامية الرشيدة التي سار عليها الشیخان أبو بکر وعمر وهي السياسة المبنية على اتباع رسول الله ﷺ لا يحیدان عنه قيد أملة .

وثانهما — انفرد عثمان بمخالفته هذه السياسة الإعلامية الرشيدة إلى الدرجة التي ظنها كبار الصحابة خروجاً على سنة رسول الله ، ولم يكن للصحاببة كل الحق في ذلك لولا أن صورة الحكم التي يمثلها الشیخان كانت لم تزل ماثلة في أذهانهم ، ولو لا أن بعضهم كانوا من صحابة رسول الله ، ينظرون بعيته ويسمعون بأذنه ويشاركونه بأفكارهم وأموالهم وجهودهم التي بذلوها معه في سبيل الإسلام .

هكذا كادت حركة (الإعلام) في عهد المخالفين الراشدين تكون صورة دقيقة من حركة (الدعوة) على يد الرسول ، مع فارق واحد لا بد أن نذكره . وهو الفارق الذي لا بد من وجوده بين النبي والحاواري ، أو بين الأستاذ والتلميذ ، أو بين المتبوع والتتابع .

ومع فارق آخر لا بد أن نذكره أيضاً وهو أن عثمان بن عفان كان يفهم الحكم والعدل بصورة تختلف صورتها عند أبي بكر وعمر ، ولذلك لم يكن من السهل على المؤرخ أن يصف عثمان بالخروج على سنة الرسول وابتداع سنة أخرى بعيدة عن سنته ﷺ .

الفصل الأول الاعلام في عهد أبي بكر

كانت أولى الحركات الإعلامية التي أدت إلى انتخاب الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه تتمثل فيما عرف في التاريخ باسم :

يوم السقيفة

فقد انعقد في ذلك اليوم ما يشبه المؤتمر السياسي الكبير . الغرض منه هو اختيار خليفة لرسول الله ﷺ بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وحضر المؤتمر كثيرون من زعماء المهاجرين والأنصار ، ولم يكاد يختلف زعيم منهم عن الحضور ، حتى (سعد بن عبدة) زعيم الخزرج – وكان مريضاً في ذلك اليوم – فحمله قومه إلى مكان الاجتماع ليعطي كلمته فيه . انتشر في المدينة نبأ وفاة الرسول ، فبادر الأنصار إلى التجمع في (سقيفة بني ساعدة) ، وطفقوا يتحدثون في أمر الخلافة دون أن يشركوا معهم أحداً من المهاجرين ، وكادت الفتنة تندلع نارها لهذا الخبر ، ولكن لم يقدر لهذه الفتنة أن يتجاوز لها باب السقيفة .

فأما أبو بكر و عمر – وهم شيخاً المهاجرين – فما كادا يعلمان بهذا الاجتماع الذي أسرع به الأنصار حتى بادرا بالذهاب إليه ، وهنالك التقى بزعماء الأوس والخرزج ، وإذا ذاك اتخذ المؤتمر لنفسه صورة متكاملة تجمع زعماء الفريقين ، وأتيحت الفرصة لكل زعيم منهم أن يلقي كلمته .

فتكلم زعيم الأنصار سعد بن عبدة يبين حقهم في الخلافة فقال : يا معشر الأنصار . لكم سابقة في الدين ، وأفضلية في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث بعض عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن من قوله

إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عمموا به حتى إذا كان متى أراد الله بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعم فرزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكتم أشد على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً أو كرهاً ، وأعطي البعيد المقاد صاغراً داخراً ، حتى أمن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكם للعرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ؛ وبكم قرير العين ، استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس ۝

ثم خطب أبو بكر يوضح حق المهاجرين في الخلافة وكان عمر يردد الكلام ، فقال أبو بكر : على رسالك . ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ، نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمههم أحسابة ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمسهم رحمة برسول الله ﷺ ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان) . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في القوة وأنصارنا على العدو ، آؤيتم وواسيتم – فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضلهم .

وفي رواية أخرى أن أبا بكر قال بعد ذلك :

إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسه عليهم الخرج ، وإن تولته المخرج نفسه عليهم الأوس ، وإن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش من الأمراء ومنكم الوزراء .

ثم تقدم عمر بن الخطاب لــ الكلام فقال :

(إن العرب تمتلك أن تولي أمرها إلا مان كانت النبوة فيه ، وولي أمرهم منهم) . وكان عمر بذلك أيد صاحبه أبا بكر في الرأى الذى

جهر به ، وكأنهما كانا يتلقان فيها بينهما عليه قبل أن يأتيها لحضور يوم سقيفة
بني ساعدة .

ثم جاء دور أبي عبيدة ، وهو أحد زعماء المهاجرين أيضاً ، فقال :
« يا معاشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر ، فلاتكونوا أول من
يبدل وغير » ،

وتواتي المحدثون واحداً بعد الآخر بعد ذلك وإذا بالجتمعين يسمعون
أبا بكر مرة ثانية ينادي بأعلى صوته قائلاً :

يا قوم : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأبهمها شئتم فباعوا ،
وهنا ابنى عمر وقال : هذا أبو بكر إن شئتم فباعوه .
ثم ابنى أبو عبيدة وقال مثل ذلك .

تم سمع المجتمعون عمر يقول لامرأة الثانية :

لا والله يا أبا بكر ، لانتولى هذا الأمر عنك فإنك أفضل المهاجرين ،
وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في
الصلوة والصلوة أفضل دين المسلمين^(١) ، فمن هذا الذي ينبغي له أن
يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك .

وسمع القوم - وفيهم أبو بكر - مقالة عمر : ومع ذلك تقدم أبو بكر
إلى عمر وقال له :

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم طريح الفرائش أيام المرض للتي سبّت الوفاة ، فأمر زوجته السيدة عائشة بنت أبي بكر أن تبكيه إلى أبيها من يقول له إن رسول الله يأمرك أن
قوم الناس في الصلاة ، فترددت السيدة عائشة في أول الأمر حتى لا تفهم بأنها تهينه الأمر
لأنها ليكون الخليفة بعد رسول الله ولكن الرسول ألح عليها في ذلك ، فلم تجد بدأً من
تبليغ الرسالة إليه فجاء مسجد الرسول وأم الناس في الصلاة .

ابسط يدك أبايعك يا عمر .

فقال عمر : أنت أفضل مني .

فقال أبو بكر : وأنت أقوى مني .

فقال عمر : إن قوتي لك مع فضلك ، ولا ينبغي لأحد بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون فوقك ، إنك صاحب الغار مع رسول الله . وثاني اثنين ، وقد أمرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين اشتراكك في فضليات الناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر .

ثم وثب عمر فأخذ بيدي أبي بكر وبأبيه ، فوثب الجميع من عليه الصحابة يتسابقون إلى البيعة .

ثم بايعه زعيم الأوس (بشير بن سعد) وهو يقول :

« كررت أن أنازع قوماً في حق جعله الله لهم » .

ورأى الخزرج الحاضرون هذه الحركة فلم يبق لهم عزم وراء ذلك . فترافقوا على البيعة حتى أوشكوا أن يطعوا زعيمهم المريض (سعد بن عبادة) وماتت الفتنة في مهدها وكفى الله المؤمنين القتال .

حركة إعلامية كبيرة حضرها الزعماء الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبد الله في الساعة الصحيحة ، وظهروا أمام الناس بالظهور الملائم ، فلا تنافس بينهم على الخلافة ، ولا تهافت منهم على الإمارة ، ولا جفاء منهم لأحد من الأنصار ، ولا تنكر منهم لما هؤلاء من فضل على الإسلام ، ولا إخفاء منهم للحقيقة التي لا يماري فيها أحد ، وهي الحقيقة التي افتح بها أبو بكر قائلاً :

« إن العرب لا تدين لغير هذا الحي من قريش » ، ولاشك أن الفضل في نجاح هذه الحركة الإعلامية الكبيرة إنما يرجع لهؤلاء الثلاثة السكبار الذين علموا باجتماع الأوس والخزرج للتشاور في أمر الخلافة فلم يعطوا ولم يتهاؤنا في المبادرة إليهم والاشتراك معهم في هذا الاجتماع ولو قد أبطئوا في ذلك لضاعت عليهم الفرصة واندلعت نيران الفتنة ، ولا يعلم إلا الله ماذا كانت عواقبها .

أما خلافة أبي بكر — رضي الله عنه — فلم تدم أكثر من ثلاث سنوات كانت كلها بر克ة على الإسلام فقد اصطدم أبو بكر في أول خلافته بحادث بالغ الخطورة ؛ وهذا الحادث هو (حركة الردة) ونعني بها ارتداء الكثيرين من العرب عن الإسلام ، وبذلك تعرض هذا الدين لأكبر كارثة يمكن أن تمر بعد وفاة الرسول ، وإذا ذاك لم يجد أبو بكر بدأً من محاربة العرب المرتدين وإنقاذ الدين من هذه الكارثة التي كادت تودي به .

ونستعرض حياة الخليفة الأول في مدة توليه الأمور فنجده أنه قام فيها بأعمال أربعة هـ

- ١ — محاربة المرتدين .
- ٢ — بعثة أسامة بن زيد .
- ٣ — بعثة إلى العراق والشام .
- ٤ — محاولة جمع القرآن .

و سننظر في هذه الأعمال الأربع الجديدة — كما وعدنا القراء — لا من الزاوية التاريخية ولكن من الزاوية الإعلامية .

حركة الردة

كانت هذه الحركة من الخطورة الخطيرة على الخليفة أبي بكر وعلى النظام القائم بحيث وجدنا عمر بن الخطاب يشفي منها على حياة أبي بكر ، نعم — وجدنا عمر — وهو رجل معروف بشدته وقوته شكيته — ينصح أبي بكر — وهو رجل معروف برقته ورأفته ولين عريكته — ويقول له : —

« الزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب »

ولكن أبي بكر خالف رأي عمر في ذلك ، ونظر إلى حركة الردة على أنها ثغرة في الدين ، وإخلال بالأمانة التي تركها الرسول ﷺ ، وفساد لأمو المسلمين ، وخطر عظيم على المجتمع الإسلامي كله ، وإذا كان رجل

كأنى بكر لا يغار على الدين ، ويضرب المثل الأعلى في الغيرة عليه وعلى المسلمين فمن ذا الذي يغار عليه بعده ؟

جاء المرتدون إلى أبي بكر يزعمون له أنهم مسلمون يقبعون العمل بأركان الدين ولكنهم يرفضون منها ركناً واحداً فقط ، هو الزكاة ، فلم يقبل منهم أبو بكر ذلك ، وقال لهم يومئذ كلمته المشهورة : « والله لو منعوني عقلاً كثتم تؤدونه لرسول الله لقاتلتكم دونه » .

وأبو بكر الصديق بهذه العمل الجليل وال موقف العظيم يعتبر الباني الثاني للدعوة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ . فقد ظهرت هذه الدعوة على يد أبي بكر ، وفي موقفه هذا ، وكأنها تبني من جديد بعد إذ عرضها المرتدون بكل هذا الخطر .

وتمادي المرتدون في غرورهم ، وطفقوا يرددون بينهم قول قائلهم :

أطعنا رسول الله ما دام بيننا ففي العباد الله ما لأبي بكر ؟

ولكن أبا بكر لم يبال بهم ، ولم يتأثر بدعائهم وأقوالهم ، ونظر إلى حركتهم على أنها امتحان له ولقدرته على تسخير الأمور ، وامتحان الدعوة الإسلامية ذاتها ، ولقدرتهم على البقاء بين العرب المسلمين ، وكيف لا تكون الردة امتحاناً للإسلام بهذه المعنى ؟ وقد كشفت عن زيف الزائرين ، وريب المرتابين . وبفضل أبي بكر وتعاليه على هذه الحركة الخبيثة عاد الإسلام قوياً كما كان في عهد الرسول ﷺ .

وقف أبو بكر من هذه الحركة موقف العزم والشدة وذلك على خلاف طبيعته التي تميل - كما قلنا - إلى اللين والرفق والرحمة ، وكان في ذلك مخالفًا لمشورة عمر الذي أشار عليه بالسكت عن هذه الحركة ، وكان عمر يقول لصاحبه : يا خليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم ، كيف تقاتلهم ، وقد قال رسول الله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموها مني دماءهم ونفوسهم لا بحقها ». .

فكان أبو بكر يجيب على ذلك بقوله :

« والله لأقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة » .

ثم صالح لصاحبه قائلاً :

« يا بن الخطاب ، رجوت نصرتاك وجئتنى بخذلانك ؟ أجيابر في الجاهلية وخوار في الإسلام ؟ إنه انقطع الوحي ، وتم الدين .. أو ينقص وأنا حى ؟ »

ثم جاءت الحوادث كلها شاهدة على صدق أبي بكر فيما رأه ، وعزم عليه من محاربة أهل الردة ، وعرف ذلك عمر وعلم أنه أخطئ في نصيحته لأنبيء بكر واعترف لصاحبه بهذا الخطأ وقبل رأسه وأدرك حكمته .

إن الخليفة الأول بهذا العمل الأمثل قد أعطى المسلمين كلهم ، والمرتدین منهم بنوع خاص — أعظم درس تعلموا منه أن الدين كل لا يتجزأ ، وأن العقيدة يجب أن تكون محترمة من أتباعها من جميع جوانبها ، وأن التهاون في جانب واحد من هذه الجوانب لابد أن يؤدي إلى التهاون فيها جميعاً ، وأن القوة ليست في يد الباطل كما يتمثل في فريق المرتدين عن الدين ، ولــكــنــها في جانب الحق الذي يتمثل في فريق المسلمين المستمسكــينــ بهذا الدين .

ذلك إذن هو الوجه الإعلامي لهذه الحادثة الأولى من الحوادث التي وقعت في خلاقة أبي بكر ، وقد سلك أبو بكر فيها مسلكاً كائلاً على القاعدة التي بني عليها الإعلام الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، وهذه القاعدة هي : « بذل الطاعة للرسول بكل دقة وإنخلاص وأمانة » .

وهل كان الرسول يقبل من بعض العرب المسلمين أن يكتفوا بالركن الأول من أركان الإسلام ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ هل كان الرسول يكتفى بهذا الركن الأول من أركان الإسلام عن أحد الأركان الأخرى كالصلاحة — أو الزكاة أو الصيام أو الحجج .. كلام ثم كلام . حسبينا ذلك حديثاً عن العمل الأول من الأعمال التي قام بها الخليفة الأول .

وهو مقاومة حركة الردة — لنتقل منه إلى العمل الثاني من أعماله رضي الله تعالى عنه وهو : بعثة أسامة بن زيد .

بعثة أسامة بن زيد

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قد أعد جيشاً بقيادة أنسامة ابن زيد وأمره أن يستعد للخروج من المدينة والوصول إلى تخوم الروم وذلك لتخويفهم من الإغارة على حدود المسلمين ، ولم يكن للنبي قصد وراء ذلك .

فلما ولى أبو بكر أمر الخلافة عزم على الإبقاء على الجيش ، وعلى تنفيذ المهمة التي مات عنها الرسول ، ولم يهتز لذاك بالاضطرابات التي أعقبت هذا الحادث العظيم وهو وفاة الرسول ، ولم يأخذ الشغب الذي عم الجزيرة العربية بعد هذا الحادث ، وثبت أبو بكر على موقفه من هذا الجيش كما ثبت على موقفه من حركة الردة ، وخوفه المسلمين عوائق هذا الثبات على موقفه ، وأندروه بالخطر على المدينة وعلى الجيش نفسه في تلك الظروف ولكن أبا بكر قال لهم جميعاً :

« والله لا أحل عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تحطقتنا والساع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزنا جيشاً » :

وجهز أبو بكر هذه البعثة العسكرية ، وخرج مائياً على قدمه معها وأسامة راكب إلى جانبه ، ومخاطبه المسلمين في ذلك فقال :

« ما على أن أخبر قدمي ساعة في سبيل الله » .

وقال لأسامة : « اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلام ، ولا تقص في شيء من أمره » .

وشاع في الجزيرة العربية أمر تلك البعثة العسكرية ، وكانت لا تمر بقبيل من الناس يفكرون في الارتداد عن الإسلام إلا استشعروا الخوف

والهيبة وآثروا السكوت والمدوء وقال بعضهم لبعض ، لولم يكن المسلمين على قوة حتمية لما خرج من عندهم هؤلاء ؟؟ .

وعاد جيش أسامة من تخوم الروم بأسلاب وغناائم كثيرة : ولم ينفعه عليه وعلى بعثته أكثر من شهرين ، ولم يقتل من جيش المسلمين أحد ، وإن جيشاً يذهب إلى تخوم الروم ثم يعود غير مسحوق من الأعداء كيف تهزأ به قبائل العرب الهامة في الصحراء ؟ وكيف تخفي دلائل ذلك على حملة الأخبار والقادرين منهم على استنباط مواطن القوة والضعف في كل من المسلمين والمرتدين على السواء .

يُخيل إلى الباحث أن الغرض الأساسي لهذه البعثة منذ أن فكر فيها الرسول ومنذ أن صمم عليها أبو بكر كان هو الحرب النفسية قبل كل شيء ، فلقد أراد الرسول كما أراد خليفتة أبو بكر أن يقى الرعب في نفوس الموالين للروم ، وفي نفوس القبائل العربية التي لم تزل ترى لها من القوة والمنعة والعزة ما يجعلها تترخص الدوائر بهذا الدين الجديد ، وتعلو بنفسها عن الخصوص لأحكامه .

أجل — كانت بعثة أسامة بعثة تأديبية قصد بها ردع القبائل التي مر بها في الطريق من الحجاز إلى الشام ، كما قصد بها تأمين هذا الطريق وتوطيد هيبة الإسلام ، وكان هذا كله من أبي بكر إعلاماً للقبائل العربية أن هناك حكومة قوية أخذت للأمر عدته وفي استطاعتها أن تؤدب المرتدين ، وأن تتفق العبرة بالدين ، وأن تقضى على هذا الخطر الجسيم .

واليآن لننتقل إلى العمل الثالث من الأعمال الحديدة التي قام بها الخليفة الأول وهذا العمل هو :

البعثة إلى العراق والشام

كما تنبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنه مسئول عن أمرين في وقت واحد هما :

١ - تأمين الإسلام في الداخل :

٢ - وتأمين الإسلام في الخارج .

فكذلك تنبه خليفة الأول للذين الأمراء معًا : وتم له الأمر الأول عن طريق حروب الراية ونجاحه في تأديب المارقين حتى رجعوا إلى حظيرة الدين .

وتم له الأمر الثاني عن طريق البعثة التي بعث بها إلى العراق والشام ، ليس ذلك بقصد التوسيع في الفتح ، أو الجلاء والسلطنة ، ولكن هدف واحد فقط هو الهدف الذي كان يقصده إليه رسول الله ﷺ وهو نشر هذا الدين وتبني قواعد المسلمين .

وبذلك التزم أبو بكر سياسة رسول الله ﷺ الخارجية وسياسته الداخلية وسياسته الإعلامية وهي السياسة التي سار عليها رسول الله في بعثة (تبوك) ثم في بعثة (أسامة بن زيد) فقد بعث النبي ﷺ بهاتين البعثتين ، وأعد بنفسه هذين الجيشين - لا للتعدي على بلاد الغير ، ولكن للدفع الأذى ، وحماية الطريق : ولنشر الدين .

في غزوة تبوك على عهد رسول الله ﷺ عاد الجيش الإسلامي بعد أن انصرف جيش الروم عن الحدود ولم يعود إليه في تلك السنة ، وقد كانت دولة الروم ترسل البعثات من حين إلى حين إلى تخوم الجزيرة العربية ، وكان على المسلمين أن يقاوموا هذا العمل بمثله دائمًا ولو لا ذلك لعاشت القبائل العربية التي دخلت الإسلام في فزع دائم وخوف لا ينقطع .

وعلى ذلك فقد كانت للبعثة الحربية في عهد رسول الله ﷺ ثم في عهد الحلفاء الراشدين أهداف إعلامية لابد منها ، وتنحصر هذه الأهداف في تخويف دولة الروم وتخويف القبائل الموالية من جهة ؛ ثم المسلمين الذين يجب أن يعلموا أن للإسلام قوة تستطيع أن تضرب قوة الدولة الرومانية .

وعلى هذا النحو سار أبو بكر مع التحrompt الفارسية ، ولنفس هذه

الغاية فرض على نفسه غزو فارس ، فقد كانت القبائل الموالية لفارس تواطىء غاراتها على أراضي المسلمين ، وكان على المسلمين أن يدفعوا هذه الغارات بمنتهى القوة ، وكان القائد الإسلامي لهذه الأعمال الحربية الأخيرة هو (المثنى بن حارثة الشيباني) ، ثم ما لبثت هذه الغارات والرد عليها أن انقلبت إلى حرب ضروس دارت بين العرب والفرس ، وكان القائد الإسلامي في هذه الحرب هو (خالد بن الوليد) الذي بعث به أبو بكر لنجد المثنى بن حارثة . وأمره إذ ذاك أن يتآلف أهل فارس ويتوادد إلى الإمارة العربية الموالية لها — وهي إمارة الحيرة ، وفعل خالد بن الوليد كل ذلك .

ويكمل هذه البعثة التي ملأت خلافة أبي بكر علمت العرب أن الإسلام لا يموت بموت صاحب الرسالة والقائم بالدعوة ، ونعني به محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا الدين متين يقوم على مبادئ قوية أو لها مبدأ التوحيد . وأن هذا الدين فوق مثانته قد تربى عليه رجال قادرون على صيانته من كل سوء ما داموا يسيرون على هذه القاعدة ، وهي الطاعة للله ورسوله .

معنى ذلك كله أن هذه المعلومات السابقة وجهين متكملين :
الوجه التاريخي والوجه الإعلامي — ونحن حين نتعرض بعض الشيء
للوجه الأول لا نريد بذلك إلا للتعرض للوجه الآخر .

* * *

وننتقل إلى العمل الرابع والأخير من أعمال أبي بكر ، وهو :
جمع القرآن الكريم

والقرآن الكريم هو دستور المسلمين ، وبه يتقييد الخليفة المسلم ، وعليه تسير الأمة الإسلامية في كل عصر من عصورها ، ومن ثم كان العمل على جمع القرآن الكريم من أعظم الأعمال الإعلامية التي يقوم بها الخليفة الأول أبو بكر وما في ذلك شك .

ثم إن القرآن في ذاته — كما سبق أن أوضحتنا ذلك في الباب الأول (م ١٤ — الإعلام في صدر الإسلام)

من أبواب هذا الكتاب — هو أقوى وسائل الإعلام في الإسلام وهو أضخم هذه الوسائل وأضمنها وأثبتها وأصدقها ، وبعده أو بعدها تأتيوسائل الإعلامية الأخرى ، ابتداء من الحديث الشريف أو السنة النبوية إلى الغزوات والبعثة الإسلامية التي بدأها النبي ﷺ واستمر فيها الخلفاء الراشدون من بعده .

ومن هنا كانت حركة جمع القرآن الكريم حركة إعلامية قوية التأثير في حياة المسلمين ، وكان لا بد لها أن تتم على يد الخليفة الأول . وكان على هذا الخليفة أن يضرب المثل الأعلى والقدوة الحسنة في هذا المشروع العظيم بحيث لو أهمله — رضي الله عنه — لسكن القرآن نفسه عرضة للضياع والتحريف .

وقد مات من مات من حفظة القرآن السكريّم ، وذلك في حرب الردة ، فأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يجمع القرآن السكريّم ، فانشرح صدر أبي بكر لهذه الفكرة الطيبة ولم تنته خلافته القصيرة المدى إلا والقرآن السكريّم مجموع من الصدور ومكتوب على نحو سليم ، لم يضط منه حرف ، ولم تسقط منه سورة ، ولم ينزله شيء من التحريف أو التغيير أو التبدل ، وصدق الله تعالى إذ يقول :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

(والخلاصة) أنه إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صاحب (الدعوة) الأولى ، وقد سلك من الطرق الإعلامية ما يتفق وهذه الصفة ، فإن أبي بكر هو صاحب (الدعوة) الثانية — إن صبح هذا التعبير — وقد سلك في خلافته القصيرة المدى من الطرق الإعلامية ما يتفق وهذه الصفة .

وتجدر بالتنويه أن نلاحظ أن أبي بكر كانت له حاسة إعلامية دقيقة لا سبيل إلى إنسكارها .

وبهذه الحاسة حضر في الوقت المناسب (يوم السقيفة) واشترك مع زعماء المهاجرين والأنصار في هذه المعركة .

وبهذه الحاسة أدرك خطورة الموقف الذي خلفته حركة الردة ،
وانفرد بالرأي الذي لم يوافقه فيه أحد ، وهو تصريحه على مكافحة
هذه الحركة .

ثم بهذه الحاسة وضع لنفسه قاعدة سياسية وإعلامية لم يحد عنها ،
وهي السياسة التي قامت على لطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم
واحتمالاته في كل حركاته وسكناته ، والقيام بجميع الأعمال التي تضمن
صيانة العقيدة الجديدة ، لا يحيد عنها كذلك .

ولو أن أبو بكر تخلف عن هذه المعركة الانتخابية يوم السقيفة ،
ولو أنه ظهر للناس يومذاك بأنه من طلاب الملك أو الجاه أو الدنيا ،
ولو أنه استمع إلى مشورة أصحابه في الإغضاء عن حركة الردة ،
ولو أنه قصر في البعثة العسكرية ، ولو أنه أهمل جمع القرآن
السكريّم لأصبحت خلافته فارغة من الأعمال التي يعنى بها الإسلام ،
والإسلام وحده .

فلهذه الحاسة الإعلامية وللعقيدة الإسلامية التي تميز بها أبو بكر
الصديق رضى الله تعالى عنه عن المسلمين كافة يرجع الفضل في بقاء الدين
وحفظ تراث رسول الله ﷺ .

الفصل الثاني الإعلام في عهد الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب

إذا كان التاريخ قد نظر إلى أبي بكر على أنه الباني للدعوة الإعلامية بعد رسول الله ﷺ وهو بانياً الأول ، فإن التاريخ قد نظر إلى عمر بن الخطاب على أنه المؤسس الأول للدولة الإسلامية ، لأن الإسلام قبله لم تنشأ له دولة بالمعنى الصحيح « هذه الكلمة » وقد استحق عمر بن الخطاب هذه الصفة لاعتبارات منها :

أولاً : أنه أول من دون الدواعين ، ومن ذلك أنه أنشأ ديوان القضاء ، وديوان الإحصاء ، وديوان الخراج ، وديوان البريد ، وديوان بيت المال ، وديوان الشعور .

ولم يكتف عمر بذلك حتى رأيناه ينشئ داراً لسلك النقود ، وداراً للجنس يعاقب فيها المذنبين ، وداراً تسمى « بيت الدقيق » ، وهو ما يقابل عندنا في الوقت الحاضر « الأوقاف الخيرية » وعمله إغاثة الجياع الذين لا يجدون طعاماً لهم « ومن الأوقاف الخيرية » التي تتبع هذا البيت أرض بمثابة اختارها عمر في عهد الرسول ﷺ ، وقد أشار عليه يومئذ بحسبها وحفظها من أن تباع أو توهب أو تورث ، ولكن تصريح موقوفة على مصالح الفقراء من المسلمين .

ومن أجل ذلك نظر التاريخ إلى عمر بن الخطاب على أنه أول مؤسس للدولة الإسلامية – كما قلنا – وذلك فضلاً عن كونه المؤسس الثالث للدعوة الإسلامية بعد النبي ﷺ وبعد أبي بكر الصديق الخليفة الأول .

ثم من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ كلماته المشهورة في عمر بن

الخطاب : لم أر عبقر يا يفرى فريه (١) ، والكلمة جزء من رؤيا رآها رسول الله ﷺ نفسه .

قال عليه الصلاة والسلام :

رأيت في المنام أنني أنزع بدلوا بكرة على قليب (أبي بئر) . فجاء أبو بكر فنزع ذنوبياً (فتح الذال أدى دلوا) . وذنوبي نزعه ضعيفاً، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً (٢) – ولم أر عبقر يا يفرى فريه ، (أي ينزع قبله) حتى روى الناس وضرروا بعطن » (٣) :

الحق – لقد كانت هذه الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ خير معبر عن الجهود التي بذلها الشیخان من بعده ، فأما أولها – وهو أبو بكر – فقد كانت خلافته قصيرة العمر لم تدم أكثر من ثلاث سنوات أنفقها كلها في محاربة أهل الردة ، والدفاع عن الحدود الإسلامية . وأما الثاني – فإنه قام ببناء الدولة الإسلامية . وكان ذلك بتذوين المداوين من جهة ، وبالفتح الكثيرة من جهة ثانية .

ولم يكن الباعث على هذه الفتوح العمرية رغبة في السلطان والصوابحان ، أو شهوة إلى التوسيع والغلبة ، وإنما كان الباعث إليها هو نفس الدافع الذي دفع رسول الله ﷺ وال الخليفة الأول ، ونعني به تأمين حدود الإسلام من عدويه الكبارين : الروم من جهة ، والفرس من جهة ثانية .

وبوازع من هذه البواعث ، وبتقدير من عمر بن الخطاب لهذه المسئولية أقدم على فتح مصر ، وفتح بلاد المقدس ، وفتح فارس – وجاء هذا الفتح الأخير على كره منه ، لالشىء إلا أنه يكره الحرب لأنها حرب ، وببعض السلم لأنه دم ، وفي ذلك يقول عمر : « إن رجلاً واحداً من

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر .

(٢) الترب (يسكون الراء) : الملة – ومن معانيه كثرة المال وحسن المال ، وجريان الفرس بسرعة (القاموس المحيط) .

(٣) العطن (فتح العين والطاء) مربط الإبل حول الماء .

ال المسلمين أحّب إلى من مائة ألف دينار » ومعنى ذلك أنه يضمن بر جل واحد من المسلمين أن يموت في الحرب .

ومن أقواله كذلك :

« وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار فلا يصلون إلينا ولا نصل إليهم » ولن يست هناك ألفاظ يعبر بها قائد من القواد عن كراهيته لسفنه الدماء أقوى وأبين من هذه الألفاظ التي نطق بها عمر .

عمر والسياسة الإعلامية

سبق أن أكدنا هذا المعنى وقلنا إننا حين نسأل عن نظام الحكم في أمة من الأمم فقد سأله في الوقت نفسه عن نظام الإعلام في هذه الأمة، ذلك أن نظام الإعلام في جميع الظروف والأحوال مرتبطة أشد الارتباط بنظام الحكم وظروف الحاكم ، وإذا كان نظام الحكومة الإسلامية في عهد الحلفاء الراشدين قائماً على العقيدة التي تأمر بطاعة الله ورسوله فإن نظام الإسلام في عهد الحلفاء الراشدين ينبغي أن يعني كذلك على نفس العقيدة .

من أجل ذلك لم يكن غريباً أن يبدأ عمر بن الخطاب خلافته بكلمة يعلن فيها عن منهجه في الحكم يقول فيها :

أيها الناس : أطيعوني ما أطعت فيكم الله ورسوله . فإن عصيتم ما فلا طاعة لي عليكم » .

وعلى هذا الأساس يصح أن ننظر في أعمال عمر بن الخطاب فسنرى أن سياسته الإعلامية تظهر بوضوح فيما يلي :

أولاً - في الفتوى :

وقد فرغنا من الكلام عن هذه الناحية وقلنا إن عمر بن الخطاب كان فيها مقيداً بسياسة النبي صلوات الله عليه وأبي بكر الصديق، ولم يكن ينظر وراء ذلك .

ثانياً - سياسة عمر مع كبار الصحابة :

وهم كبار رجال الدين والعقيدة ، وهم أفهم الناس لجوه الإسلام
ولأهدافه القريبة والبعيدة ، وكلمة واحدة يقوها أحدهم تحدث أثراً قوياً
في نفوس المسلمين الخاصة منهم وال العامة ، وعمل طيب يصل إلى أحدهم
يصبح مثلاً أعلى يحتذى به ، وقلادة حسنة للمسلمين جميعاً .

من أجل ذلك وضع عمر لنفسه سياسة خطأ حكيم في معاملة كبار الصحابة، وتباينت هذه الخطأة في الاحتفاظ بهم جميعاً إلى جانبه في المدينة وجعل عمر من كبار الصحابة شيئاً يشبه « مجلس الشورى » يرجع إليهم في كل أمر من أموره، ويستمع إلى آرائهم في كل مشكلة من مشكلاته، ويعرض عليهم كل تصرف من تصرفاته، فإذا كان هذا التصرف موافقاً للدين والرسول والعقيدة مضى فيه، وإلا عدل عنه عدولاً تاماً.

وكان من خططه عمر لا يأذن لأحد من هؤلاء الصحابة بترك المدينة والسفر إلى الأمصار والأقاليم والإقامة فيها ، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك خوفاً عليهم من شرور هذه الأمصار ، وفتنة الجاه والمال ، وهي فتنه لابد أن يتعرضوا لها بحكم المناصب الكبيرة التي يلزموها ، والخposure الذي يظهره الناس لهم من الناحيتين الدينية والسياسية ، والصحابية بشر ، وقد تحملتهم نفوسهم البشرية بأمور تفسيس عليهم دينهم ، وتقليل عندهم من سلطان العقيدة ، وتحدد خللاً في سياسة عمر ،

والحق - لقد كان عمر رشيداً في هذه السياسة التي رسماها لـ**كبار الصحابة** ، وسيأتي الحديث عن الخليفة الثالث - عثمان بن عفان رضي الله عنه - وسنجد أنه خرج على هذه السياسة ، وأنه سمح لـ**كبار الصحابة** بالخروج إلى الأمصار .

فیجنی من وراء ذلك ضررین کیرین :

أولها - حرمانه من مشورة الصحابة.

و ثانها - حدوث الفتنة الكبرى على النحو الذي سأشرحته فيما بعد .

قال عمر لابن عباس وهو رجل من كبار الصحابة :

إني رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم والله ما أدرى
أصرفكم عن العمل؟ أو رفعكم عنه؟ وأنتم أهل ذلك، أم خشى رسول
الله أن تعاونوا لمسكانيكم منه، فليرجع العتاب عليكم، ولا بد من عتاب.
ومن قاله عمر أيضاً :

« إن قريشاً يريدون أن يتخلوا مال الله معونة على ما في أنفسهم ، إلا أن في قريش من يضمير الفرقة ويروم خلع الربيقة ، أما وابن الخطاب حتى فلا ، إن أخواف ما أخاف على هذه الأمة انتشارهم في البلاد » .

لا ريب أن هذه السياسة التي اخترطها عمر لنفسه تجاه كبار الصحابة لا يُكَبِّر دليلاً على «الحسنة الإعلامية» الدقيقة التي انفرد بها هذا الخليفة وهي الحسنة التي قلنا إن الخليفة الثالث عثمان بن عفان كان يفتقدها في نفسه، ولو وجدت عنده لتغير وجه التاريخ الإسلامي في زمانه، ولما حدثت الفتنة الكبرى - كما سنشرح ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

دانياً - العسس :

لم يكن التاريخ البشري يعرف رجالاً يبلغ في الشعور بمسؤولية الحكم بعض ما بلغه عمر بن الخطاب من الشعور بهذه المسؤولية، كان قلبه مشغولاً على الدوام بأمور الرعية، وبلغ من حرصه على ذلك أن قال كلامه المشهور: «لو عثرت بغلة في العراق لرأيتها مسؤولاً عنها» كما بلغ من حرصه على رعيته أن ابتدع نظام «العمسن»، وهو السير بالليل للوقوف على أحوال الرعية.

ويحكي لنا التاريخ أنه كان يتتجول في ليلة من الليالي في أنحاء المدينة فسمع من وراء الجدران صوت امرأة تبكي ، فدخل دارها فوجدها أمام قدر من الماء فيه حصى تعلل به أولادها حتى يغلبهم النوم ، ورأى عمر بنفسه هذا المنظر المؤلم وصاح في نفسه قائلاً : ليت أم عمر لم تلد عمر ،

وليت عمر لم يلث من البشر ، ثم عاد مسرعاً إلى بيته وأمر زوجته أن تحمل
قدراً من السمون ، وحمل هو على كتفه قدرًا من الدقيق ، وصنع بنفسه
طعاماً لمؤلاء الأطفال الجائع ، وأيقظهم وأكلوا وناموا .

وحكى لنا التاريخ كذلك عن عمر أنه سار في ليلة ما حتى وصل إلى
بيت كانت فيه امرأة تغنى بصوت مرتفع تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أو من سبيل إلى عمر وبن سيار
وفي اليوم التالي سأله عن عمر وبن سيار هذا فوجده شاباً له شعر طويل ،
وله بهذا الشعر الجميل عناء تامة ، ومن ثم أصبح فتنة النساء المدينة ، فأمر
بأن يقص شعره .

ويطول بنا القول إن أردنا أن نتبع أخبار عمر من هذه الناحية .

معنى ذلك أن عمر كان يحصل على أخبار الرعية بنفسه ، وكان يقف
على أحوالها بنفسه . ويقوم بإصلاح الحال في الأحوال ، كما يهدى إلى
تقويم المعوج في الأخلاق ، وكان يرى أنه المسؤول الأول عن كل ذلك ،

والحديث عن تقدير عمر للتبعة الملقاة على عاتقه يجرنا إلى الحديث
عن بعض نوادره في الحرب فقد قبل أنه كان يملك في نفسه قدرة عجيبة
على المكاشفة . Telebaehy

كان عمر يخطب بالمدينة خطبة الجمعة ، فرأى الناس وهو يقطع كلامه
على حين غرة وينادي بأعلى صوته قائلاً : ياسارية بن حصن .. الجبل ،
الجبل . فلم يفهم الحاضرون ماذا أراد بهذه الكلمات التي قطع بها الخطبة ،
ثم عاد عمر يُمْ خطبته ، وصل بالناس الجمعة . وبعد أن فرغ من الصلاة
سأله على بن أبي طالب : ما هذا الذي ناديت به . فقال عمر : أو سمعته مني ؟
قال : نعم أنا وكل من في المسجد . فقال عمر ، وقع في نفسى أن المشركيين
هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يرون بجبل ، فإن عدلوا إليه
قاتلوا من وجده وظفروا ببعدهم ، وإن جاؤوه هلكوا . فخرج مني
هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر من خطبة عمر فذكر أئمهم سمعوا في ذلك اليوم وفي تلك الساعة حتى جاؤوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر وهو يقول، «يا سارية بن حصن، الجبل.. الجبل» فعدلنا إلى هذا، ففتح الله علينا: في تصوري كذلك أن القارىء الحديث يعجب بكل العجب كيف كانت المكافحة وسيلة من وسائل الإعلام قد مارسها عمر رضي الله عنه.

ثالثاً — الرسائل :

كانت الرسالة من أقوى وسائل الإعلام في عهد عمر بن الخطاب، وقد حفظ لنا التاريخ طائفة صالحة من الرسائل التي بعث بها عمر إلى قواده في الحرب تارة، وإلى عماله في الأقاليم تارة أخرى، وإلى القضاة الذين كان يبعث بهم إلى الأمصار تارة ثالثة.

وكان عمر لا يدع لقائد من قواده أن يتحرك من مكان إلى مكان إلا برأيه، ولا أن يستبدل خططة إلا بمشورته، ولم يكن إلا في أحيان قليلة، بل نادرة يترك لهم حرية الحركة،

من ذلك أن أبو عبيدة بن الجراح استشاره في دخول الدروب خلف العدو فكتب إليه عمر يقول:

«أنت الشاهد وأنا الغائب، والشاهد يرى مالا يرى الغائب، وأنتم بمحضه عدو وعيونكم يأتونك بالأخبار، فإذا رأيت الدخول إلى الدروب صواباً، فابعث إليهم السرايا وادخل عليهم بلادهم، وضيق عليهم مسالكهم وإن طابوا إليك الصلاح فصلحهم».

وترى قائدك أبو عبيدة حصان حلب، فكتب إليه عمر يستضعف رأيه ويقول له:

سرني ما علمت من الفتح، وعلمت من قتل من الشهداء، وأمسا ماذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحي التي قربت من أنطاكية فهذا يئس الرأي. أترى رجلاً ملك كل دياره ومدينته ثم ترحل وتسمع أهل النواحي والبلاد إنك ما قدرت عليه فما هذَا برأيِّك، فإياك أن تربح حتى

محكم الله وهو خير الحاكمين ، وقد أنفذت كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن فلن وهب نفسه لله ورسوله ورغم في الجهاد في سبيل الله فليفعل ، وهم عرب وموال ورجال وفسان والمدد يأتيك متواياً إن شاء الله تعالى » ٤

هذا نموذجان من رسائل عمر إلى القواد يظهر منها أن عمر كان لا يغل يده أو رجله عن الحركة ولكن كان معه خطوة خطوة .. وكان في الوقت نفسه يأمره بالزحف إن رأى الخير في ذلك ، ويأمر وبالصلح إن كان طلب الصلح صادرًا من العدو .

نموذج من رسائله إلى القضاة :

عمر هو الذي وضع دستور القضاة في الإسلام ، وتلك حقيقة من الحقائق التي لا جدال فيها ، والدستور الذي وضعه كان ولا يزال وثيقة إعلامية إلى جانب أنه وثيقة قضائية .

كتب عمر إلى بعض القضاة فقال :

إذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال . فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم ترد فيه سنة رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس ، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم تكن فيه سنة رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت ؟ إن شئت أن تجتهد في رأيك وتتقدم فتقدمن وإن شئت أن تتأخر فتأخر ولا أرى التأخير إلا خيراً لك » ٥

وهذه الرسالة الصغيرة هي التي وضع دستور القضاة في الإسلام ، وبها علم القضاة أنهم إما أن يحكموا بشيء وجدوه في القرآن الكريم ، وإما أن يحكموا بشيء ورد في سنة رسول الله ﷺ ، وإما أن يحكموا بما عليه الجماعة وإما أن يحكموا بطريقة الاجتهاد في الرأي . وتلك هي المصادر الأربع للتشريع الإسلامي منذ أيام عمر بن الخطاب إلى اليوم .

وقد أشار عمر في رسالته إلى أن طريقة الاجتهد أشَّ على القضاة من الطرق الثلاثة الأولى ، وهي القرآن والسنة والإجماع ، وهذا معنى قوله :

. وإن شئت أن تجهد في رأيك وتتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تتأخر فتأخر .
ولا أرى التأخير إلا خيراً لك .

ومن ثم شعر القضاة في الإسلام أن القضاء أمانة ثقيلة ، وكانوا
لذلك يفضلون وظائف التدريس على وظائف القضاء .

وهكذا وضعت هذه الرسالة على القاعدة الإعلامية التي يشغى عليها
الحكم الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، وهي العقيدة التي أوجبت على
هذا الحكم أن يبني على طاعة الله ورسوله ، فإن لم يوجد في الكتاب
والسنّة شيء حل القضايا المعروضة فليراجحا القاضي إلى رأي الجماعة ،
فإن صاقت به جميع هذه المصادر الثلاثة — وقلما تضيق — فله أن
يجهد برأيه .

ولولا أن عمر ممتلىء بهذه العقيدة ، ولو لا أنه يملك الحاسة الإعلامية
الدقّقة ، لما استطاع أن يضع دستورا للقضاء بمثل هذا اليسر والوضوح
والسهولة .

رابعاً – زيارات عمر الأنصار والأقاليم :

كان من دأب عمر أن يزور الأنصار من آن لآخر ، وقصده من هذه
الزيارات أن يتفقد أحوال المسلمين في هذه الأقاليم ، وأن يلتقي فيها
بالعمال أو الأماء الذين يحكمون باسمه هذه الأقاليم ، وكان كل أمير
من أولئك الأماء يتوقع في كل لحظة من اللحظات زيارة الخليفة له
ليحاسبه على عمله ويجمع إليه الناس ليبدوا رأيهم في الأمير نفسه ،
ويعرضوا مظلومتهم على الخليفة إذا كان عامله قد ترانى في النظر فيها
لأمر أو آخر .

وكان عمر لا يكتفى بزيارة الأقاليم من وقت لآخر ولكنه كان يدعو
أمراء هذه الأقاليم للحضور إليه بين فترة وأخرى ، وذلك ليتأكد من حسن
سيرتهم مع الرعية ، ويطمئن إلى سير العدالة في تلك الجهات .
والحق – لقد ضرب عمر في هذا الحال أروع المثل ، وكان فيه أسوة

حسنة للحاكم المسلم الذى أخذ نفسه بالعقيدة السليمة التى تقوم على تقوى الله وحده ، ولا يتسع مثل هذا البحث لإيراد الشواهد على ذلك ، وإن البحث ليفترض أن هذه الشواهد شائعة بين الناس جمیعا ، بتحدث بها التاريخ منذ خلافة عمر بن الخطاب إلى اليوم .

ولذلك سننص فيما بعد على أن القدوة الحسنة أكبر وسائل الإعلام في عهد هذا الخليفة الفاروق الذى هو رمز العدل في الإسلام ، وهو في هذه الصفة مقدم على غيره .

والذى لاشك فيه أن عمر بهذه السياسة القضائية كان يخدم الناس في مجال الإعلام خدمة لا تقل عن خدماته لهم في مجال القضاء .

فأى طريقة أقوى من طريقة الزيارات والاتصال بالناس في المدينة وخارج المدينة والتعرف إلى آرائهم في الحكم ، والوقوف على احتياجاتهم والمظالم التي ترفع إلى هؤلاء الحكماء ، وذلك في إثبات أن الخليفة يشعر بتبعته نحو الرعية على هذا الوجه ، وأنه مسئول أمام الله سبحانه وتعالى عن كل ما يحتاج إليه الرعية .

إن الزيارات مازالت إلى العصر الذى نعيش من أكبر دعائم الإعلام ومازلتنا في العصر الحديث ننظر إلى زيارة الملك والرؤساء للأقاليم ، أو زيارتهم للبلاد الأجنبية على أنها من أنجح الوسائل الإعلامية . ولكن زيارات عمر بن الخطاب كانت أوسع أهدافاً ، وأنبل أغراضها ، وأبعد عن الرياء والظاهرة ، وأدنى إلى تقوى الله من جميع الزيارات التي نشهدها الآن .

حکى لنا التاريخ أن عمر بن الخطاب قدم إلى الشام راكبا على حمار ، فتقاه معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم ، فلما رأه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة ، ففضى عمر إلى سبيله ولم يرد عليه السلام ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ، فالتفت عمر إلى معاوية وسألة :

أولئك لصاحب الموكب الذى أرى ؟

قال : نعم . قال عمر : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ! قال : نعم . قال عمر : ولم يحيطك ! قال معاوية : لأننا ببلاد كثيرة جواسيس العدو ، فإن لم تتحذى العدة والعدد استخف العدو بنا وهجم علينا ، وأما الحجاجز فإننا نخاف من البذلة وجرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فإن استثنى صحتي نقصت ، وإن استزدحتي زدت ، وإن استوفقتك وفقت .

قال عمر : مسألتك عن شىء إلاخر جرت عنه ، إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب ، لا أمرك ولا أنهاك .

هكذا كان عمر يلم بحاله من حين لآخر لكي يقف على أعمالهم وتصرفاتهم ، ولم يكتفى عمر بذلك في سبيل الحصول على المعلومات الصحيحة عن أولئك الأمراء ، بل كان يرصد لهم العيون والرقباء يختلطون بالرعية ويأتونه بما ظهر وما خفي من أعمال أولئك الأمراء ، حتى كان الوالى من كبار الولاية يخشى من أقرب الناس إليه أن يرجع بكل أخباره إلى الخليفة . كما كان عمر يتدب لـ كل عامل من العمال أو أمير من الأمراء وكيلًا خاصاً يجمع شكاوى الناس وظلمائهم ، ويتولى عمر التحقيق في هذه المظالم ومراجعة بنفسه .

نرى – هل عمر يفعل ذلك خوفاً على سلطانه ، أو صيانة لملائكة ، أو حافظة على منصبه الذى وضعه الله فيه . وهو منصب الخلافة ؟ كلام ثم كلام ؟ بل كان عمر يفعل ذلك بواعز من ضميره ، وبدافع من تقواه ، وبشعور عميق بالمسؤولية التي وضعها الناس على كتفه :

ومن أجل ذلك اتخذ لنفسه كل هذه الدرائع الاعلامية ، وأحسن استخدام هذه الدرائع . وكانت الرعية على ثقة من حسن طويته ونبيل غرضه في استخدام كل هذه الدرائع .

والدليل على ذلك أن عمر كان يخصى أموال الولاية ، ثم يستصنى مازاد

منها . وذلك كلما فتشت فاشية من مال أو إبل أو خيل أو غير ذلك من النعم وكان عمر يسألهم دائمًا ! من أين لك هذا ؟ وكان عليهم أن يخبروه بمصادرها وإلا حرمهم منها .

فعل ذلك مع عمرو بن العاص حين كان واليا على مصر ، وضاق عمرو ابن العاص بهذه الحاسبة وكان يقول :

« إن زماناً يحكمنا فيه ابن حتنمة (يريد عمر) لزمان سوء »
الحق — لقد كان عمر نموذجًا فريدًا في الحكم لا نعرف له نظيرًا في التاريخ الإسلامي كله . وكانت له حاسة لم تكن لحاكم غيره :

خامسًا — القدوة الحسنة :

لقد أكثروا إلى الآن من إيراد الأمثلة على عدل عمر ورحمته عمر واتساع عقل عمر، وشجاعة عمر ، ولم نترك أو لم نكتد نترك صفة من الصفات الحسنة في الإسلام حتى وصفناها بها ، وجعلنا منه مثلاً أعلى في هذه الصفات .

ولم نسكن مبالغين في كل ما أوردناه من هذه الخصال ، وكتب التاريخ ملؤة بالأمثلة الطيبة على هذا الذي قلناه ، والبحث الذي بين أيدينا لا يتسع بجزء ولو ضئيلاً لهذه الأمثلة .

أفليس معنى ذلك أن عمر بن الخطاب كان قدوة حسنة في قومه؟ بلـ . وقد سبق لنا القول في أن القدوة الحسنة في ذاتها تعتبر من أقوى وسائل الإعلام ، وعلى القدوة الحسنة بنيت حياة عمر منذ دخول الإسلام إلى أن فرغ من الحياة الدنيا .

وإذا أحيل القاريء للكتب التاريخية التي امتلأت بحكايات عن عمر بن الخطاب أجدهن مضطراً إلى الإشارة إلى واحدة منها . للقاريء أن يضيفها إلى ما سبق من حكايات وأخبار .

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب وشكى إليه أمراً حدث من أو إلى

عمر و بن العاص ، و خلاصته أن الوالي أجرى خيلاً كعادته ، فأقبلت فرس المصرية ، فحبسها محمد بن عمرو بن العاص و صاح : فرسى و رب الكعبة . ثم اقترب منه صاحبها و عرفه أنها فرسه هو . فغضب محمد بن عمرو بن العاص . و وثب على المصري فضربه بالسوط وهو يقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين . وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصري إلى عمر . فحبسه زماناً . وما زال محبوساً حتى هرب من الحبس ووصل إلى المدينة وقدم على الخليفة ، وأبلغه شكواه . فما كان من عمر إلا أن استقدم إليه عمرو بن العاص ومعه ولده . فوقدا في مجلس القضاء . فنادى عمر : أين المصري ؟ فأقى المصري فقال له عمر : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين . فضربه المصري حتى أخذه . ثم قال عمر للمصري : أجلها - أي مربهذه الدرة - على صناعة عمرو ابن العاص . فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه . فقال عمرو بن العاص فرعا : يا أمير المؤمنين لقد استوفيت حق المصري . ثم قال المصري : يا أمير المؤمنين - لقد ضربت من ضربني . فالتفت الخليفة إلى عمرو بن العاص . وقال كلمته المشهورة :

« يا عمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمها تهم أحرازاً ؟ ». ترى هل تحفظ كتب التاريخ البشري مثلاً واحداً كهذا المثل . وهل تستطيع أن تنسب مثله لحاكم أو ملك ؟ أظن لا .

بهذه الطريقة نستطيع أن نستوعب جميع النرائج الإعلامية التي استعان بها عمر بن الخطاب في خلافته . فنجده منها كذلك : الخطب وهي كثيرة . منها خطبه في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج ، ومنها أحاديثه للقادة والعمال والقضاة بصرف النظر عن الرسائل التي يبعث بها إلى كل واحد من هؤلاء . أما الشعر فلم يجد له صدراً رحباً عند عمر ، ويظهر أنه لم يعتمد عليه كثيراً ولا قليلاً في الدعاية السياسية التي انتهجهها ، وهي السياسة التي بنيت على العدل وعلى الحق ، وقل أن تحتاج مثل هذه السياسة إلى وسيلة من وسائل الدعاية ، وذلك لأنها سياسة تعلن عن نفسها بنفسها وتحمي نفسها

بنفسها ، و تستطيع أن تغلب بقوتها على كل سياسة غيرها لا يكون لها من الحق ومن العدل كل هذا الغدر الذى اشتملت عليه سياسة عمر .

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه (عقبالية عمر) :

« وإذا أحصيت له فى سيرته الطويلة أوامر تحترم النميين وبعض الحريات أو بعض الحقوق فسكن على يقين أنه قد صدر فى ذلك جمعية عن حكمة توجها سياسة الدولة ، ويقرها العقل والعرف . كما يقرها الدين والكتاب . ولم يصدر قط عن مقصود ، أو عن رغبة فى حرمان النميين حرية يستحقونها ، أو حقا هم أحراز فيه » .

فاما نهيه عن تشبه النميين بال المسلمين ، أو كراهته أن يبدلو أزياءهم إلى ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لم كان أناس من النميين يودون التشبه بال المسلمين في الزى والشارع . أكانوا يتشبهون بهم حباً لديهم فهم إذن مسلمون لا يعنهم مانع أن يجهروا بالاسلام ؟ أم يتشبهون بال المسلمين كيداً لهم ورغبة في التسلل بينهم والإفلات من عهودهم » ، وبخاصة في الزمن الذي كان المسلمين فيه جميعاً في حكم الجنود وما من دولة ترضى أن تبيع أزياء جنودها لمن تشاء .

وأما إخراج بعض النميين من الجزيرة العربية فما خرج أحد إلا وقد غادر بذمته وكرر الغدر مرة بعد المرة . كما صنع أهل خير ، ومنهم من أجل عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلاً عن نقضه للعهد . كما فعل أهل نجران عندما تعاهدوا على منع سرية ثم عادوا إليه .
ولما قال له التجار من أهل (منبع) .

دعنا ندخل أرضك وتعشرنا (أى ندفع لك العشور) شاور أصحاب المهى فأشاروا عليه بقبو لهم فدعاهم إليه » .

وهذه الأخبار التي رویت في سيرة عمر تدلنا على أشياء كثيرة من أهمها في نظرنا أن عمر كانت له حاسة إعلامية دقيقة . وأنه صدر عن هذه هذه الحاسة في كثير من أفعاله وآرائه .

وما يدلنا على هذه الحاسة كذلك أن عمر سأله إبنته يوماً وقال لها:
كم تحملين أن يغيب عنك زوجك في الحرب؟ فخجلت ابنته خجلاً
شدیداً ووجدت حرجاً كبيراً في الإجابة عن سؤاله. فألح عليها عمر ونهرها
وحلرها أن تسكّت عن الإجابة. فقالت ابنته في حياء شديد: ثلاثة شهور
ثم اختفت من حضرته.

إذ ذاك أصدر عمر أمره إلى أمراء الجيوش بآلا يتغيب أحد من جنود
المسلمين عن بيته أكثر من هذه المدة.

ـ كذا أجرى عمر نوعاً من استقصاء الرى أو استطلاعه بطريقة
سليمة قبل أن يصدر أمره للجناد.

والغريب أن هذه الطريقة البسيطة أخذت تتطور فيها بعد شيئاً فشيئاً
حتى أصبحت طريقة معقدة. وهي الطريقة المتّعة في وقتنا هذا لقياس الرأي
العام في كل من أمريكا وأوروبا. كما نرى ذلك في معهد (جالوب)
الأمريكي، ومعهد (قياس الرأي العام) الفرنسي، المعروف أن العلاقات
العامة تقوم على شقين في وقت معاً، أولها: الرأي العام، وثانيها: الإعلام.
وقد رأينا في فصل من فصول الباب الأول من أبواب هذا الكتاب
عنوان (العلاقات الإنسانية) كيف أن المسلمين منذ عهد الرسول كانوا
ييلون بها لإدراكها سلباً من الناحية الإعلامية الخاصة، وكيف أنهم أفادوا
منها فائدة جليلة في نشر الدعوة الإسلامية من جهة، وفي سياسة الأمة
الإسلامية من جهة أخرى.

لقد كان يسع عمر أن يسأل عدداً كبيراً من الجنود وزوجات الجنود
سؤالاً مثل هذا، ولكنه بدأ بأهل بيته أولاً، واستغنى بذلك عن سؤال الجنود
أو زوجات الجنود خارج بيته وأسرته بعد ذلك، وكأنه بهذه الطريقة سار
على أحدث ما وصل إليه علماء العلاقات الإنسانية حين قالوا: إن هذه
العلاقات إنما تبدأ من الداخل ثم تتعدها إلى الخارج بعد ذلك.

مرة أخرى أحيل القارئ إلى الفصل الخاص بالعلاقات الإنسانية
اليسائد بعض الحقائق التي استبعدها الإشارة إليها في الحديث عن عمر.

الفصل الثالث

الدعاية والإعلام في عهد الخليفة الثالث

عثمان بن عفان

اقترن عهد عثمان بن عفان بمحاسبي في التاريخ الإسلامي «بالفتنة الكبرى» وهي الفتنة التي انتهت بقتله ، ومن غير المعقول أن تحدث هذه الفتنة دون أن يكون وراءها شيء كثير من الدعايات التي دبرت ضد هذا الرجل الذي كان هدفاً لهذه الفتنة ، وهو الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه . وكان إلى جانب هذه الدعايات السليمة التي انتهت بهذه المسألة جهود إعلامية ولم يُنسِّت دعائية – وذلك على النحو الذي كان عليه الإعلام في أيام النبي ﷺ وأيام الشيوخين أبي بكر وعمر ، وكان القصد الأول والأخير من هذه الجهود الإعلامية في أيام عثمان هو انتشار الإسلام وصيانته من كيد أعدائه في الداخل والخارج .

وننظر في أمر الدعاية والإعلام في زمن عثمان فنلاحظ أولاً أننا لم نجد نشر إلى لفظ « الدعاية » في أيام النبي ﷺ وصحابيه أبي بكر وعمر ، وذلك باستثناء الدعاية التي مارسها رسول الله ﷺ في الغروات وكانت تطبيقاً للقاعدة التي تقول :

« الحرب خدعة » .

ذلك أن الأمر في عهد الرسول كان أمر « دعوة » دعا فيها الرسول إلى دين جديد ، وفي أيام الشيوخين أبي بكر وعمر لم يكن هناك دعوة جديدة يدعوان بها ، فقد فرغ النبي ﷺ من أمرها ، ولكن كان هناك شيء آخر ، هو المحافظة على هذا الدين الجديد ، والعمل على نشره في نطاق واسع .

فليما كان عهد عثمان حدثت أحداث غيرت وجه الإعلام ، وفتحت الطريق

لنمう آخر من أنواع الاتصال والتأثير في الناس ، هو الدعاية ، وربما كان من أسباب ذلك أمران خطيران يتداخل بعضهما في بعض تداخلاً قوياً : أحدهما — أن نظرة عثمان إلى الخلافة أو السلطان كانت تختلف نظرة الشيدين بعض الخلافة أو كل الخلافة . ثانهما — أن سيرة عثمان في الخلافة كانت مغايرة بسبب ذلك لسيرة صاحبيه أبي بكر وعمر .

صورة السلطان في رأى عثمان

كان عثمان يرى أن للإمام الحق كل الحق في أن يتصرف في بيت المال حسبما تؤدي إليه المصلحة في نظره ، وما دام هو منقطعاً لعمل واحد — هو الخلافة — فله أن يأخذ من بيت المال ما يكفيه ويكتفى أهل بيته وذوي قرابته ، لا يترك منهم أحداً . وزاد عثمان على ذلك فرأى أن المسلمين ليس لهم الحق في مراجعته فضلاً عن مؤاخذته ، ولم تكن الخلافة عنده تكليفاً من المسلمين . ولكن كانت تكليفاً من الله تعالى ، ولذلك قال ملن أرادوا أن يخلعواه :

« ما كنت لأخلع قيصماً هو من صنعة الله عز وجل » .

فأين هنا من أبي بكر ، فقد قيل فيه أنه حين ولى الخلافة خرج إلى السوق في صبيحة اليوم التالي ومعه بعض الأقمشة ، فلقايه عمر بن الخطاب في الطريق وقال له : إلى أين يا خليفة رسول الله؟ قال : إلى السوق ؟ قال عمر : لماذا ؟ قال : لأحصل على رزق عبالي . فأخذه عمر من يده إلى بيت المال وقال لصاحبه : دبر للخليفة من المال ما يعنيه عن التجارة حتى يفرغ للخلافة . ومنذ يومئذ أخذ أبو بكر من بيت المال ما يكفيه ويكتفى زوجته فقط ، ولم ينظر إلى أبعد من ذلك .

أما عثمان فسكان يتصور السلطان بصورة أخرى غير الصورة التي تصوّرها عمر ، تدلنا عليها الرواية التالية :

« روى أن ملكة الروم أهدت أم كلثوم زوجة عمر بن الخطاب عقداً

من جوهره . وكانت أم كلثوم أهدت إليها شيئاً من طرائف بلاد العرب . فوقع العقد في يد عمر في الوقت الذي أقبل به البريد من بلاد الروم . فلم يشأ عمر أن يؤديه إلى زوجته حتى أمر فنودي في الناس : الصلاة جامعة ، الصلاة جامعة ، فلما اجتمع إليه المسلمون شاورهم في أمر العقد . فكلهم أشار عليه بأن يؤديه إلى أم كلثوم لأنه ملكها . ولكن عمر تخرج من ذلك لأنه حمل إليها في بريده المسلمين . وأمر برده إلى بيت المال . ورد إلى زوجته ما أنفقت في هديتها إلى ملكة الروم » .

فأين هذا مما كان يفعله عثمان حين كان يدفع إلى أهله بجواهر من بيت المال ، وحين أعطى كل بنت من بناته الثلاث أو الأربع ألف دينار فور زواجهما من أحد فتيان قريش .

إن الذي لا ريب فيه أن عثمان كان يفعل كل ذلك عن حسن نية . وكان بقصد ذلك من تصوره للسلطان بهذه الصورة التي تختلف ما عند أبي بكر وعمر . ومن أجل ذلك كان يقول في عمر :

« إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله . وأننا أعطى قرابتي احتساباً لله . وأين لنا بمثل عمر؟ » .

ولذلك أعطى مروان بن الحكم وحده خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في أفريقيا لأنه أحد أقاربه . وأعطى عبد الله بن خالد الأموي ثلاثة ألف . وأعطى ابنه الحارث ألف . وأعطى كل واحد من الواقدين مع عبد الله بن خالد مائة ألفاً وأعطى الزبير بن العوام سبعة ألف .. إلخ . وإلى جانب هذا كله كان عثمان يؤثر أقرباءه بولاية الأمصار ، ويفضلهم على كثيرين من صحابة رسول الله ﷺ . وأغضب بذلك عامة المسلمين . كما غضب لذلك الصحابة أنفسهم :

وتحدث الناس في جميع هذه الأمور حديث السرارة ، وحديث الجھر تارة ، فكانت حركة الهمس في ذاتها من أكبر العوامل التي أدت إلى الفتنة . كل ذلك مع أن سيرة الشيوخين برئت من مثل هذه الحركة الخطيرة .

وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى»^(١) :
«لولا شيء من التحفظ والاحتياط لقللت إن المسؤول الأول والأخير
عما تعرض له عثمان وأصحابه من الخطر إنما هو هذه العبرورية الفلذة التي
أثيحت لعمر ، ولم تتحقق لأحد من أصحابه ومنهم عثمان » .

خلافة عثمان من الزاوية الإعلامية

مهما يكن من شيء فإننا ننظر إلى خلافة عثمان من زاوية الإعلام
فيتبين لنا أنها اقترن بحركات منها :

- أولاً — الحركة الانتخابية التي انتهت بانتحابه خليفة بعد عمر .
- ثانياً — حركة الفتوح وهي استمرار الحركات التي سبقتها .
- ثالثاً — الحركة التي ظهرت في إثارة الأقرباء بمناصب الولاية على الأمصار .

ونحن مضطرون إلى الوقوف عند كل حركة من هذه الحركات الثلاث
قبل أن نخوض في الحديث عن الفتنة نفسها وعن الدعايات التي مهدت
لظهورها .

الحركة الانتخابية

تمت هذه الحركة عن طريق الانتخاب في أضيق صوره، لأنه انتخاب
مقصورة على «أهل الحل والعقد» .

غير أن هذه الحركة الانتخابية في ذاتها كان لها وجه إعلامي ظهر في
ترويد المسلمين بصورة عن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ ، وهو الدين،
الذي دعا إلى الشورى ، كما زودهم بصورة صحيحة للحكم الإسلامي ،
كيف يكون ، وصورة صحيحة عن الإمامة فيمن تكون .

من أجل ذلك بدأت الحركة الانتخابية بعد وفاة عمر باجتماع الصحابة
من أهل الحل والعقد . وتقدم أحدهم — وهو هنا عبد الرحمن بن عوف
ونادي عليه رضي الله عنه وقبض على يديه وقال له :

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى ص ٢١٨ .

هل أنت مبایعی علی کتاب الله وسنته رسوله و فعل أبی بکر و عمر ؟
قال علی : الله لا ، ولکنی أحاول من ذلك جهدي و طاقتی ه
فأرسل يده ، وقال : هلم إلی یاعثمان . وألقی علیه نفس السؤال : فقال
عثمان : نعم . فقال عبد الرحمن بن عوف : اللهم اشهد . اللهم اشهد ه
ما لاشك فيه أن إجابة علی بن أبي طالب عن سؤال عبد الرحمن
ابن عوف كانت أدنى إلى الدقة وأقرب إلى التقوى من إجابة عثمان ،
ولتكن عثمان أفاد من هذه الإجابة التي أجاب بها علی ، وبادر إلى الرد
بصورة الإيجاب على سؤال عبد الرحمن بن عوف ، وهكذا شاعت إرادة
الله أن تصير الخلافة إلى عثمان في ذلك الوقت . فإذا فعل الخليفة الثالث
رضي الله عنه ؟

حكم عثمان

بدأ عثمان حكمه بدایة طيبة ، وسلك في ذلك طریقة إعلانیة ناجحة ،
فقد أخذ يكتب الرسائل إلى العمال في الأمصار ، وجاء في بعض
هذه الرسائل ما يلى :

أما بعد : فإنكم بلغتم ما يبلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلغتنكم الدنيا عن
أمركم . فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلات فيكم :
تكميل النعم ، وبلغ أو لادكم سن الشباب ، وقراءة الأعراب والأعاجم
القرآن ؛ وأن رسول الله ﷺ قال : السکفر في العجم ، فإذا استعجم
عليهم أمر تكلموا وابتدعوا .

وعثمان في هذه الرسالة التي بعث بها إلى أحد أمراء الأقاليم صورة من
صحابييه أبی بکر و عمر ، وذلك في المخافطة على سنة رسول الله ﷺ باعتبارها
ركيزة من ركيائز الإعلام وقادمة من قواعده ، ولا محل للريبة في شيء من
ذلك ، لقد صرخ عثمان في هذه الرسالة بأنه من أنصار الاتباع . وليس من
أنصار الابتداع ، وأن هذا الابتداع سيكون على يد جيل من الناس الذين

هم أولاد السبايا ، و هؤلاء الناس الذين امتهنوا دماءهم العربية بدماء
غير العربية هم الذين سيدخلون في الدين ماليين فيه :

وهكذا جاء هذا الكتاب الذي كتبه عثمان لبعض الأمراء تصويراً دقيقاً
لجميع الحن الذى نعرض لها المسلمين بعد الفتح ، ومنها مخنة البطر عند
تكامل النعم ، ومخنة انحراف الشباب أو الجليل الجديـد الذى هو من سبايا
الفتح ، ومنها المخنة الكبرى التى هي عجز الجليل الجبارـيد من أولاد السباـيـاعـونـ.
فهم نصوص القرآن على الوجه الأـكـملـ .

الفتوح في عهد عثمان

في أيام عثمان تم فتح بلاد فارس ، ومات ملكـهم يزدجرـدـ وهو آخرـ
ملوكـهمـ ، ووصلـتـ الفتوحـ الإسلاميةـ إلىـ بلـادـ التركـ ، وتمـ فـتحـ أـرمـينـياـ
وـفـتحـ أـفـرـيقـيـاـ ، وأـغـارـ العـربـ عـلـىـ بلـادـ الأـنـدـلسـ ، وـغـزاـ المـسـلـمـونـ بـلـادـ
الـرـومـ مـنـ جـهـةـ الـبـحـرـ . وـفـتحـواـ قـبـصـ ، وـوـصـلـ المـسـلـمـونـ إـلـىـ مـضـيقـ
قـسـطـنـطـيـنـ ، وـانـتـصـرـواـ عـلـىـ الرـومـ فـيـ وـاقـعـةـ (ـذـاتـ الصـوارـىـ)ـ .

ومرة أخرى نقول إن هذه الفتوح لم تكن للغلبة والسلطان ، وإنما كانتـ
لنشرـ الدينـ والـهـداـيـةـ .

وهـنـاـ جـازـ لـرـجـلـ الإـعـلامـ أـنـ يـنـظـرـ إـلـىـ هـذـهـ الفـتوـحـ عـلـىـ أـنـهـ استـمـرارـ
فـيـ مـارـسـةـ الـوـسـائـلـ الإـلـاعـامـيـةـ التـيـ هـيـأـهـ اللـهـ لـرـسـولـهـ ﷺـ . وـمـنـهـ وـسـيـلـةـ
الـغـزوـ أـوـ الفـتحـ .

وـمـنـ أـجـلـ ذـلـكـ كـثـرـ أـعـدـاءـ الإـسـلـامـ بـقـدـرـ ماـ كـثـرـ أـتـبـاعـهـ وـأـنـصارـهـ ، وـبـذـلـكـ
الـخـلـفـاءـ الرـاشـدـونـ جـهـودـاـ كـبـيرـةـ فـيـ حـيـاةـ الـدـينـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـأـعـدـاءـ .

غـيرـ أـنـ هـذـهـ الفـتوـحـ كـانـ مـنـ أـهـمـ نـتـائـجـهـاـ فـتـحـتـ عـلـىـ
الـمـسـلـمـينـ أـبـوابـ الـغـنـىـ وـالـرـوـءـةـ ، وـوـقـعـ فـيـ أـيـدـيـهـمـ كـثـيرـ مـنـ الـغـنـائـمـ . وـكـانـ عـمـانـ
يـتـصـرـفـ فـيـ هـذـهـ الـغـنـائـمـ بـطـرـيـقـةـ لـاـتـرـضـىـ الصـحـاحـةـ ، وـقـدـ كـانـ يـؤـثـرـ بـهـ
ـكـمـاـ قـلـنـاــ ذـوـيـ الـقـرـبـىـ ، وـيـحـرـمـ مـنـهـ كـلـ مـنـ لـيـسـتـ لـدـيـهـ صـلـةـ أـوـ قـرـابةـ ،
وـكـانـ ذـلـكـ يـشـيرـ فـيـ نـفـوسـ الـكـثـيرـيـنـ شـيـئـاـ غـيرـ قـلـيلـ مـنـ مشـاعـرـ الـحـقـدـ وـالـحـفـيـظـةـ .

توليد عمان أقرباء على الأوصار

وهي الحركة الثانية التي أخذت عليه ، وعدها التاريخ من عمريه
نعم كان من أخطاء عثمان في خلافته أنه أثر أقرباءه من بنى أمية بالولاية
على الأوصار ، وفيها – أى في تلك الأوصار – كان يعيش بعض الصحابة فقد
سمح لهم عثمان بالسفر إلى تلك الأوصار مخالفًا بذلك تلك السياسة التي سار
عليها عمر ، وهي السياسة التي قامت على اعتجاز الصحابة في المدينة حتى
لا يفتن الناس بهم ، أو يفتنتوا بأنفسهم ، وحتى لا يحدثوا لأنفسهم في تلك
الأقاليم ثروات ضخمة ربما صرفتهم عن الدين أو قالت من هبّتهم في نفوس
المسلمين الصالحين ، وهذا ما حادث بالفعل في عهد عثمان ، وبسببه أصبحت
الأقاليم مهياً للفتنة ، فما كان أبعد نظر عمر بن الخطاب حين عامل هذه
الأستقرارية الجديدة التي تألفت من كبار الصحابة بمثل هذه المعاملة التي
وقتهم شر الأقاليم . فلما ذهبوا إليها في زمن عثمان جرقهم إلى الفتنة ، وذلك
بما أناحت لهم من الفراغ والثروة ، وأوصلتهم إلى المناصب العليا في الدولة
وطبعهم بأخلاق غير التي كانوا عليها قبل الوصول إلى كل ذلك .
مهما يكن من أمر فقد أبقى عثمان في السنة الأولى من خلافته على عمال
الأقاليم كما تركهم عمر ، ومنذ السنة الثانية أخذ بعزل وبدله ، من بحدوث .

فَأَهْلَكَهُ فَتَّةٌ

فقد ولی عليها واليin من أوليائه وأقربائه وهموا الوليد بن عقبة وسعيد ابن العاص ، عرف أو لهم برقه دينه وكان يشرب الخمر حتى أقيمت عليه الحد ، وما زال أهل الكوفة بهذا الأمير وصاحبه سعيد بن العاص حتى طرد وهموا وأجبروا عثمان على قبول ذلك .

ومنذ يومئذ أطلت الفتنة برأسها على الناس وجذبهم إليها :

وأما في الشام :

فقد ولی أمرها معاوية بن أبي سفيان قبيل بجيء عثمان ، ثم أتى عثمان فثبتته في وضعه لأنها من ذوى قرابةه ، ولذا طالت مدة معاوية بهذه البلاد ،

وأصبح أشبه بملك عليها ، وكان العمال من حوله يعزلون بين الحين والحين وهو باق في الشام لايزول عنها ، ولم يكتف عثمان بذلك حتى أضاف إلى معاوية ولايات أخرى ، وهي الأردن وفلسطين وحمص ، ولذلك كان عثمان يبعث إلى الشام بأكثـر المتمردين عليه ليعاقبهم معاوية و يؤذـبـهم بطريقته ، وبعد وفـاة عثمان جـرـوـ معاـويـةـ بنـ أـبـيـ سـفيـانـ فـاـقـطـعـ منـ الدـوـلـةـ بـلـادـ مـصـرـ فـالـحـجـازـ حـتـىـ نـظـرـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ فـإـذـاـ مـعـاـويـةـ قـدـ اـسـتـأـثـرـ مـنـ الـأـمـصـارـ إـسـلـامـيـةـ بـأـجـودـهاـ وـأـحـسـنـهاـ .

وأما في مصر :

فقد أرسل عمر بن الخطاب والياً عليها هو (عمرو بن العاص) ، ولما انقضى عام على خلافة عثمان ولـى عليها أخاه في الرضاع (عبد الله بن أبي السرح) وأذن له فغزا شمال أفريقيا ، وأعطاه الخمس من غنائمها . فعل عثمان كل ذلك برغم ما أشيع عن ابن أبي السرح قبل إسلامه من أنه سخر من القرآن وقال سأنزل مثل ما أنزل الله . حتى لقد أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح لو لا أن جاء به عثمان مسلماً بين يدي الرسول ﷺ فعصم الرسول دمه .

وأمام كل هذه الشائعات حول ابن أبي السرح ، وهذه السيرة التي كان عليها ، وأمام حديث الناس في كل هذه ، وأمام الماضي الذي عرف لهذا الوالي اضطر عثمان إلى عزله ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر . وفي عهد هذا الأخير خرج التائرون من مصر ، واجتمع إليهم غيرهم من أهل الأقاليم الأخرى . وانتهى الأمر بقتل الخليفة .

قوة المعارضة :

أنكر الكثيرون من أهل الأمصار على عثمان كل هذه التصرفات . كما اعترض طلبه كبار الصحابة في داخل المدينة ، ومنهم الخمسة الذين اختاروه للخلافة بعهد من عمر قبل وفاته وكلهم من السابقين الأولين ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، وسعـدـ بنـ أـبـيـ وـقـاصـ ، وـطـاـحةـ بنـ

عبيد الله ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وكان عثمان قد أعطى هذا الأخير ولاية بيت المال في الكوفة ، وذلك حين كان سعد ابن أبي وقاص واليًا عليها ، ثم عزل سعداً وولى مكانه الوليد بن عقبة كما سبق القول في ذلك ، فاقترض الوليد شيئاً من بيت المال فأقرضه ابن مسعود وأمراد من بيت المال ، ولما حان موعد السداد طالبه ابن مسعود بماله فاللوي الوليد . فألح عليه ابن مسعود . فشكى الوليد إلى عثمان . فكتب عثمان إلى ابن مسعود يقول له : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيها أخذ من بيت المال ،

فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال ولزم بيته .

منذ ذلك الوقت أخذت المعارضة من جانب ابن مسعود تشتد شيئاً فشيئاً وازدادت المخصوصة بينه وبين الخليفة ، وتطور الحديث بينهما حتى اضطر عثمان في ذات يوم إلى إخراج ابن مسعود من المسجد إخراجاً شنيعاً ، ودقّت صاعته ... وأقبل على بن أبي طالب على عثمان فلامه لوماً شديداً على ذلك ، ثم تولى على أمر ابن مسعود وأخذ يعني به حتى حملوه إلى منزله .

ولم يقف عثمان عند هذا الحد حتى قطع عطاء ابن مسعود ، وحمله إقامته بالمدينة ، ثم أمر به فانتقل إلى الكوفة ، وانتقلت معه هذه الحركة أو الثورة التي كان محوراً لها بالمدينة .

وكان من المعارضين لعثمان في سياساته كذلك رجل آخر من الصحابة هو أبو ذر الغفارى .

نظر أبو ذر فإذا عثمان قد خص مروان بن الحكم من أقربائه كذلك بأموال كثيرة وأعطى أخاه الحارث مائة ألف ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف ، فأنكر كل ذلك على الخليفة ، ونهى عثمان عن كل ذلك فقال :

« لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلى من أن أرضي عثمان بسخط الله »

ثم نفاه عثمان من المدينة إلى الشام فانتقل بحركته أو سخطه إلى الشام ، وجعل يقول فيه ما كان يقوله في المدينة ، وزاد على ذلك أنه أخذ ينكر على معاوية بعض ما نكره على عثمان ، وأنكر على معاوية قوله (مال الله) وقال مكانها (مال المسلمين) ، فنفاه معاوية إلى المدينة ، واستمر أبو ذر في سخطه وطعنه على عثمان لأنه أطلق يده في مال المسلمين ، فنفاه مرة أخرى إلى (الربلة) حتى مات بها .

تلك صورة موجزة لما كانت عليه المعارضة في أيام عثمان ابن عفان .

ثار كبار الصحابة في داخل المدينة ، وأما في الأمصار فقد كان الأمر على أشد من ذلك وحسبنا هنا أن نشير كذلك إلى رجلين فقط من أولئك الثوار .

أوهما : محمد بن أبي حذيفة ، والثاني : محمد بن أبي بكر . وكان الأول ابنًا لرجل من السابقين الأولين أسلم قبل أن يذهب النبي إلى (دار الأرقام) واجتمع هناك بعد قليل جداً من المسلمين وذلك في أثناء المرحلة السرية من مراحل الدعوة .

وأما الثاني فهو محمد بن أبي بكر الصديق ، أخو السيدة عائشة أم المؤمنين.

والذي يرجحه المؤرخون أن كلاً من هذين الرجلين كان يطمع في الولاية ، لما له من عظيم المنزلة ورفع المكانة . فلما لم يبلغ ما أراد ذهب إلى مصر ، وقام بالدعابة ضد عثمان ، وكان الجو ملائماً لهذه الدعابة .

ولما عاد عبدالله بن أبي السرح من موقعة (ذات الصوارى) التي انتصر فيها على الروم وجد محمد بن أبي حذيفة يثير الفتنة بين المصريين ويقول لهم :

إنكم تسعون إلى الجهاد ... والجهاد وراءكم بالمدينة حيث يقيم عثمان ويسوس الأمة على غير كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة صاحبيه : يعزل أصحاب النبي عن العمل ، ويولي أمور المسلمين جماعة من الفساق وأصحاب

المحبون . انظروا إلى واليكم وقائدكم إلى الجهد (ي يريد ابن أبي السرح) إن رجل نزل القرآن بكتفه وأهدر النبي دمه . ولكن عثمان يولي أمركم لأنك أخوه في الرضاع . انظروا إلى سيرته فيهكم : أترونه يهتم فيها بهدى النبي وصاحبيه ؟ أترونه لا يغير ولا يبدل ، ولا يكلفكم من أموالكم وأعمالكم مala تطيقونه ؟

وكان ابن أبي حذيفة يذيع مثل هذه الدعايات الخطيرة في الجيش وكان محمد بن أبي بكر يذيع مثل هذه الدعايات في الرعية . واشتراك الرجالان في توجيه النقد واللوم بكل هذا العنف إلى معاوية بالشام وإلى عثمان بالمدينة .

ويقال إن عثمان أخذ يتراضى هذين الحمددين بالمال . ولكن أحدهما لم يرض بذلك بحال من الأحوال . بل إن محمد بن أبي حذيفة أخذ الكسوة التي بعث إليه بها عثمان في مصر وذهب بهذه الكسوة إلى المسجد ، وقال يخاطب الحاضرين من المسلمين :

انظروا إلى عثمان كيف ي يريد أن يخدعني عن ديني بهذه الكسوة !
إلى هذا الحد بلغت الدعاية ضد عثمان . وكان القائمون بها من خيرة الصحابة وأبناء الصحابة . مع أن الأمور التي أخذت على عثمان كانت مما يمكن وقوعه من أي خليفة عدا الشيوخين أبا بكر وعمر .

ترى ما الذي أوقع عثمان في كل هذا الحرج ؟
وما الذي أثار على عثمان كل هذا السخط ؟

إن الذي أوقع عثمان في كل ذلك شيء واحد فقط ، هو مخالفته للسياسة الإسلامية التي كان ينبغي أن تسير عليها سياسة الحلفاء الراشدين الذين عاشروا النبي بأنفسهم ، ورأوه بأعينهم ، وسمعوا بهذتهم ، واشتراكوا معه بآرائهم وأموالهم وجهودهم . وعلى هذه السياسة الإسلامية الرشيدة وهي سياسة الاتباع للرسول — سار أبو بكر وسار عمر : ولكن هذه السياسة تغيرت على يد عثمان . وحدثت هذا التغير المفاجيء وكثيرون من الصحابة على قيد الحياة ، وأبناء الصحابة كلهم من الشباب المتحمس

للعقيدة وللكتاب والسنّة كما تركهما الرسول . فلم يكن من السهل على هذا الرعيل الأول من صحابة النبي ﷺ وأبنائهم أن يسمحوا بهذه الأمور التي حدثت من عثمان . ولو وقعت هذه الأمور وأكبر منها بعد انتضاع عهده المخلافة الراشدين لكانـت مقبولة إلى حد ما . ولذلك وقع في الخلافة الأموية فالخلافة العباسية من عظام الأمور ما يشيب لها الولدان : وكان الرعيل الأول من الصحابة وأبنائهم قد انقضى ، وخلفـ من بعـدهم خلفـ حادـوا عن الطريق وتنكـبوا عن السياسة الإعلامية الرشيدة التي سارـ عليها أبو بكر وعمر .

(والخلاصة) أن المسؤول عن وقوع الفتنة الكبرى التي انتهـت بهذه المأساة الكبرى ، وهي قتل عثمان أمران :

أوـطـما : تشـدـدـ أـبـي بـكـرـ وـعـمـرـ فـي اـتـبـاعـ سـنـةـ رـسـوـلـ اللهـ رـعـاـيـةـ مـنـهـمـاـ للـإـسـلـامـ وـحـرـصـاـ مـنـهـمـاـ عـلـىـ رـضـاءـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ . وـبـهـذـاـ التـشـدـدـ فـي اـتـبـاعـ رـسـوـلـ اللهـ ظـهـرـ الـفـرـقـ وـاضـيـحـاـ جـلـيـاـ بـيـنـ سـيـرـةـ الشـيـخـيـنـ مـنـ جـهـةـ وـسـيـرـةـ عـثـمـانـ مـنـ جـهـةـ ثـانـيـةـ . وـعـذـرـ عـثـمـانـ فـيـ ذـلـكـ أـنـ كـانـ يـفـهـمـ لـعـدـلـ صـورـةـ غـيرـ الصـورـةـ الـتـيـ كـانـ يـفـهـمـهـاـ صـاحـبـاهـ ، وـمـعـنـيـ ذـلـكـ أـنـ عـثـمـانـ لـمـ يـصـلـرـ فـيـ عـمـلـ مـنـ أـعـالـهـ عـنـ مـعـصـيـةـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ ، أـوـ عـنـ تـنـفـيـذـ سـيـاسـةـ الـابـداـعـ بـدـلـ الـاتـبـاعـ . وـلـكـنهـ صـلـدـرـ فـيـ كـلـ ذـلـكـ عـنـ هـذـهـ الصـورـةـ الـتـيـ تـكـونـتـ فـيـ ذـهـنـهـ .

ثـانـيـماـ : خـالـفـةـ عـثـمـانـ لـسـيـاسـةـ الـإـلـاـمـيـةـ الـتـيـ كـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـرـعـاـهـ بـغـايـةـ الدـقـةـ وـيـتوـخـاـهـ بـغـايـةـ التـحرـجـ . وـأـكـبـرـ الـظـنـ عـنـدـيـ أـنـ كـانـ فـيـ وـسـعـ عـثـمـانـ أـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ لـوـلـاـ أـنـ وـقـعـ تـأـيـرـ أـقـارـبـهـ مـنـ بـنـيـ أـمـيـةـ وـغـيـرـهـ . وـبـنـوـ أـمـيـةـ جـهـدـهـمـ أـبـوـ سـفـيـانـ ، وـهـوـ مـنـ قـرـيـشـ أـسـلـمـ عـلـىـ يـدـ النـبـيـ ﷺ قـبـيلـ الـفـتـحـ . وـدـخـلـ النـبـيـ ﷺ عـلـيـهـ وـعـلـىـ قـوـمـهـ الـكـبـيـرـ فـقـالـ طـمـ : مـاـ تـظـنـونـ أـنـ إـفـاعـلـ بـكـمـ ؟ قـالـواـ : أـخـ كـرـيمـ ، قـالـ : اـذـهـبـواـ فـائـمـ الـطـلـقـاءـ . وـلـيـسـ الـطـلـقـاءـ فـيـ إـلـاـمـ كـالـأـخـرـارـ الـذـينـ أـسـلـمـوـاـ قـبـيلـ الـفـتـحـ مـنـ تـلـقـاءـ أـنـفـسـهـمـ لـاتـحـتـ ضـغـطـ مـنـ السـيـفـ أـوـ الرـمـحـ .

الفصل الرابع الدعاية والإعلام في عهد علي

لايسع المؤرخ الإعلامي عندما يتكلّم عن الإمام علي إلا أن يشير إلى الشخصية التي انفرد بها بين الصحابة ، ولا يبالغ إذا قلنا عن الإمام أنه كان أكبر شخصية عرفها الإسلام وذلك بعد رسول الإسلام . وما كان أخلاقه أن يكون أول خليفة لرسول الله لولا أن حالت دون ذلك أمور كثيرة . كل أمر منها له اعتباره ومنها :

أولاً : حداثة سنّه عند وفاة النبي ﷺ وجود الشيوخ من الصحابة الكبار من أمثال أبي بكر وعمر وغيرهما . فقد كان على عند وفاة النبي ﷺ فتى لم يتجاوز الثلاثين ، وكان أبو بكر وعثمان قد صحبوا النبي ﷺ بضع عشرة سنة وهم شيوخ قبل ظهور على بن أبي طالب على مسرح الحياة العامة .

ثانياً : وهو الأهم - قرابة على للنبي ﷺ . وقد كانت هذه القرابة حجباً له دون الوصول إلى الخلافة . وخاصة عقب النبي ﷺ نفسه مباشرة . ذلك أن القبائل العربية - ومنها قريش - أبنت ألا يجتمع آل هاشم ميراثان كبيران في وقت واحد ، وهم ميراث النبوة وميراث الخلافة . وأهم من هذا وذاك أن الإسلام نفسه لا يقر العصبية بل يقوم على أساس المساواة بين الناس . وفي ذلك يقول عمر :

«إن قريشاً قد اختارت لنفسها وأبنت أن تجتمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة ». .

ثالثاً : أن على بن أبي طالب قتل من بنى أمية عدداً كبيراً في غزوة بدر ، فحقّد عليه بنو أمية منذ ذلك الوقت . وظلّ هذا الحقد في صدورهم حتى بعد أن دخلوا الإسلام . وفي ذلك يقول على :

« مالى ولقريش أاما والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأئلهم مفتونين .
ووالله لأضر بن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته » .

موقف على من الفتنة

تلك شخصية على ، وتلك هي بعض الظروف التي كانت عقبة في سبيل وصوله إلى الخلافة قبل كل من أبي بكر وعمر وعثمان . على أن التاريخ الإسلامي لا يكاد يعرف ظروفاً أفعظ ولا أسوأ من الظروف التي بويع فيها على ، ويكتفى أن نذكر من تلك الظروف أنه بويع بعد المأساة الأليمة التي قتل فيها عثمان بن عفان في أعقاب الفتنة الكبرى التي انتهت بقتله ، وأكثر من ذلك أن على بن أبي طالب بويع بالخلافة وهو متهم بدم عثمان رغم الجهد الذي بذلها في الحافظة على حياته .

على أن هذه الظروف السعيدة التي أحاطت بالبيعة تحتاج منها إلى هذه الإشارة الموجزة :

أولاً : أن على بن أبي طالب توسط بين عثمان بن عفان والثوار ، واستنبط لهم ثلاثة أيام يرد بعدها جميع المظلوم فيعزل فيها العمال المكرهين من الرعية ، ويصلح الأمور التي من أجلها قامت الثورة .

ومرت الأيام الثلاثة ، ولم يقبل عثمان مشورة على بن أبي طالب في شيء من ذلك .

ثانياً : علم الثوار بأن وساطة على لم تثمر وأن عثمان رفض أن يستجيب لطلابهم ، فعادوا إلى الثورة من جديد ، وتهيئوا جميعاً لقتل عثمان ، فخرج على بن أبي طالب من بيته بعمامة الرسول ﷺ ، ومتقلداً سيفه ، وأمامه أبناءه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار ، وحمل على وأصحابه على الثوار حتى أبعادوهم عن دار عثمان . ثم دخل الإمام على بيت عثمان ، فسلم عليه ، وحدثه حديثاً طويلاً جاءه في نهاية :

« ولا أرى القوم إلا قاتلوك . فرقنا فلنقتادهم » فأبى الخليفة الطيب عثمان كل ذلك حقنا لدماء المسلمين . فأعاد عليه القول في ذلك فأصر عثمان على موقفه .

ثم خرج على من عنده إلى المسجد وحضرت الصلاة فناداه جميع من في المسجد : « يا أبا الحسن . تقدم فصل بالناس » .

فقال على بن أبي طالب : « لا - لا أصلى بهم والإمام محصور » .
وصلى على وحده في ذلك اليوم .

ثالثاً : رجع على بن أبي طالب إلى منزله وترك ابنيه الحسن والحسين مع أبناء الصحابة في حراسة عثمان ، وضاق الثوار بالانتظار على هذه الحال ، وأخيراً تسورووا دار عثمان ووصلوا إليه وفعلوا فعلتهم وتخالصوا من الرجل .

وسمع بذلك على فأسرع إلى بيت عثمان ولطم ابنيه لطمات قوية ، ووجه إلى أبناء الصحابة أقسى العبارات . فقال أحدهم - وهو طلحة : « لا تضرب ياعلي ولا تلعن . لو دافع مروان بن الحكم عن عثمان ما قتل عثمان » ومروان هذا من أقرباء الخليفة المقتول .

معنى ذلك أن على بن أبي طالب كان بريئاً من دم عثمان ، لاشك في هذا ، وأنه لم يكن يقدر على تجنب هذه الكارثة وحمى عثمان من نتائجها معاوية بن أبي سفيان ، وأن الخطأ الأول والأخير هو خطأ عثمان ، لأنه لم يشأ أن يستمع إلى نصائح الصحابة ، وفيهم على - ولم يشاً أن يعمل بشورته على بوجه خاص ، وذلك في اللحظات الأخيرة ، أو الساعات الحرجة التي سبقت وقوع الحادث ، وكان يتطلب النجدة أو الغوث كلما اشتبك هجوم الثوار على دار عثمان ، ومع ذلك لم يستجب له معاوية بن أبي سفيان مع أنه كان أقرب إلى عثمان من على بن أبي طالب ، ومع هذا وذاك فقد كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتهم عيايا بدم عثمان كما ستأنى الإشارة إلى ذلك فيها بعد .

وكان الثوار من جانبيهم ينظرون إلى على على أنه المسئول الأول عن الإصلاح من حيث هو ، وفي المؤتمر الذي عقده عثمان لهذا الإصلاح لم يكن على عضواً من أعضائه لأن عثمان تخى أن يكون أعضاء هذا المؤتمر من ذوى قرباه ، فحضر هذا المؤتمر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي السرح ، وسعید بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم ، وفي استطاعة القارىء أن يتكون بالنتائج التي يتمتعون بها مثل هذا المؤتمر الذى يتألف من رجال كهؤلاء ليس فيه لهم رجال كعلى ابن أبي طالب أو رجل من كبار الصحابة .

الثورة تباعي عثمان

بعد مقتل عثمان بقيت المدينة خمسة أيام بدون خليفة ، وألح الثوار على الإمام على في قبول الخلافة ، وهو يهرب منهم ويبتعد عنهم ، ثم اتجهوا إلى الزبير وعرضوا عليه الخلافة فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى طلحة فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى سعد بن أبي وقاص فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى عبد الله بن عمر فهرب منهم ، ثم قال بعضهم لبعض : لاستطيع أن نرجع إلى أمصارنا بعد قتل عثمان من غير أن نختار ولينا الأمر مكانه ، فرجعوا إلى على بن أبي طالب ، وألح الأشتر النخعى عليه في قبول الخلافة ، وأنزل بيده فبأيعه وبأيعه الناس بعد ذلك ، وتقدم طلحة والزبير فبأيعاه ، ثم صعد الإمام المنبر فبأيعه من الناس من لم يكونوا قد بآيعوه من قبل ، ولكن قريشاً وبني هاشم لم يكن لهم رأى في هذه البيعة ، فقد تركا للثورة وحدها أن تكون صاحبة الرأى في مبايعة على .

وسمح معاوية بن أبي سفيان بهذه البيعة فساعته أخبارها ، وتحقق الشر كل الشر من ورائها ، وظهر في الإسلام لأول مرة في تاريخه خلاف شديد بين نظامين مختلفين هما :

نظام الخلافة الدينية ،

ونظام الملك الدنيوي .

الأول ممثله على بن أبي طالب والثاني ممثله معاوية ، وانقسم المسلمون لأول مرة في التاريخ كذلك إلى أحزاب ثلاثة : حزب على ، وحزب معاوية ، وحزب خارج على الفريقين هو حزب الحوارج :

حزبان متعارضان

غير أن الذي يعنيها من هذه الأحزاب الثلاثة حزبان فقط هما حزب على وحزب معاوية :

١ - أما حزب على فكان يتألف من جمهور القراء والفقهاء والنساك والخناط ، وكان هؤلاء وهؤلاء من أفراد الحزب يسعذطون على ترف الأغنياء الذين أثروا في أيام عثمان من وراء المناصب السكرية التي وضعهم فيها ، وكانوا كذلك ينكرون كل خلاف يقع بين المسلمين يؤدى إلى تفريق الكلمة ، وكانوا حافظين لحدود الله ولا يرضون عن أولئك الذين لا هم لهم إلا هذه الدنيا ، وكانوا يكرهون الحرب إلا لنشر الدين ، وطالما عارضوا علياً نفسه في رغبته في الحرب ، وخاصة تلك التي أراد أن يشنها على معاوية .

٢ - وأما حزب معاوية فكانوا طلاب دنيا ومال وجاه ، وكانوا يسمعون الحق كما يسمعون الباطل ، لأنهم لا يفرقون بينهما ، وكانوا لا يعرفون غير الطاعة العميماء لمعاوية بن أبي سفيان ، لا يحيزنون إلا ماجازه ، ولا يميزون معه بين ناقة وجمل .

فما أبعد الفرق بين الفريقين .. فريق على وفريق معاوية
« كان أصحابي على - كما يقول الأستاذ عباس العقاد - أقرب الناس في ذلك الوقت إلى الإصغاء إلى صوت الضمير قبل صوت الأمير ، وكان أصحابي معاوية على العكس من ذلك » .

وقد شاء القدر أن يرث على من عثمان تركيبة مقلقة بالأنخطاء التي ارتکبها عثمان نتيجة السياسة الإعلامية التي اتباعها مخالفًا بها سياسة صاحبيه أبي بكر وعمر .

وهذا الخطا الذى ارتكبه عثمان هو أنه لم يحتجز كبار الصحابة بالحجاج ولم ينفعهم من الانطلاق فى الأمصار ، ولم يحل بينهم وبين الإقبال على الدنيا والانصراف إلى الجاه والسلطان ، وقد جنى عثمان من وراء هذه السياسة أن كبار الصحابة كانوا حرباً عليه وعلى الخلافة ، من أجل ذلك كان أبو بكر قارئاً من يخلفه قائلاً له :

«احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وسلم الذين انفتحت أوداجهم وطمانت أبصارهم وأحب كل امرئ نفسه » . . . إلخ .

ومن أجل ذى كان أبو بكر يحذر رجلاً كعبد الرحمن بن عوف من الدنيا ويقول له :

« . . . وريتم الدنيا قد أقبلت حتى تتخذوا ستور الحرير ونصائده الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان » .

وهذه الطبقة التى تحدث عنها أبو بكر وحذر منها الخلفاء من بعده هى الطبقة التى كانت مصدر القلق والمتاعب الكثيرة للإمام على بن أبي طالب ، على حين أن معاوية بن أبي سفيان كان رجاله وأتباعه خلاف ذلك . وكانوا في الوقت ذاته أطوع له من بنائه .

ولا ننسى أن أمية (جد الأمويين) هو الذى اختار الشام لنفسه مقاماً منذ الجاهلية ، وأنه وأولاده من بعده كانوا يتألفون الشاميين منذ ذلك الحين ، فنشأ هؤلاء على حبهم وإيشاربهم على غيرهم من المنتدين إلى قريش ، يضاف إلى ذلك أن تجارة الشام كانت للشام حيث يقيم بنو أمية ، وأن خراج الشام كان للشام أيضاً ، وأما موارد الحجاج فلم تكن للحجاج ، وكانت مصر والعراق من نصيب على ، ومع ذلك لم ينفع على بهما في شيء ، وذلك لفساد الأمر فيما بسبب الولاة والقادة الذى أحدثها أولئك الولاة . وباختصار شديد كانت كل عوامل القلق والاضطراب في جانب على ، وكانت كل عوامل الراحة والطمأنينة والطاعة في جانب معاوية .. وحسبك أن تستمع إلى على بن أبي طالب وهو يقول لأخيه .

« دع عنك قريشاً وترأكضهم في الضلال فإن قريشاً قد أجمعوا على
حرب أخيك إجماعاً قبل اليوم على حرب رسول الله ﷺ »
من أجل ذلك وجدنا على بن أبي طالب يقع عليه كل ذنوب عصره:
وقدت عليه شكوك الناس من قريش .

ووقع عليه تهافت الولاة على المال ، مع أنه شديد الحاسبة لهم .
ووقدت عليه مسؤولية الدعوة إلى الإصلاح الذي دعا به الحفاظ والناس
ومن إليهم . فلماذا يفعل على بن أبي طالب أمام هذه الظروف كلها ؟
وما حيلته في الشعور بالتبرم والسطح من جميع الناس في عصره ؟
وما عسى أن تكون سياساته الاعلامية في تلك الفترة التي انقسم فيها
المسلمون قسمين أو حزبين ، حزب مع على ، وحزب مع معاوية ؟

الدعاه والإعلام في عهد على

رأينا كيف كان الفرق عظيماً جداً بين على ومعاوية من حيث نظام الحكم
عندهما ومن حيث الرعية التي كان يحكمها كل واحد منها ، ومن حيث
السنة التي اتبعاهما ، ومن حيث البطانة التي كانت تحيط بكل منها ، ومن حيث
حيث الأخلاق والمبادئ التي أخذت بها كل بطانة على حدة ، ومن حيث
الموارد المالية التي تملكتها ، ثم من حيث المدف الذي تهدف إليه آخر الأمر .
وقد شرحنا كل هذه الفروق بليجاً زام ، وزرید أن نعرف بعض الوسائل
الاعلامية والدعائية التي تذرع بها كل واحد من هذين الفريقين .

ويتمكن أن نوجز القول في الكلمة نذكرها أولاً ، ثم نقدم الأدلة
عليها بعد ذلك .

وهذه الكلمة هي أن (الإعلام) كان وسيلة الإمام ، أما (الدعاية)
فكانـت وسيلة معاوية .

وهكذا وجدنا طرق الدعاية تتسع أمام معاوية لأنـه إنـما يسعى إلى ملـكـ

دنيوي . وأن طرق الإعلام تضيق أمام على لأنه إنما يتقدّم أمر خلافة دينية قبل كل شيء .

ثم هكذا شاعت حكمـة الله أن يكون للحق طريق واحد لاثني له ، وأمام الباطل طرق متعددة ، وأساليب متنوعة ، ووسائل لاحصر لها . وقد أشرنا إلى بعض وسائل الدعاية عند معاوية ، ولم نذكرها كلها . لأننا إنما نتحدث عن الدعاية الأموية لجراحتها بالإعلام العلوى ، فما هي وسائل هذا الإعلام ؟ .

الواقع أن الإمام لم يكن يملك من وسائل الإعلام غير وسائلين هما :

١ - وسيلة الخطبة .

٢ - وسيلة الرسالة .

وكان يساعدـه على النجاح في ممارسة هاتين الوسائلـتين أمور كثيرة من أهمـها :

١ - قوة شخصـيـته .

٢ - وحسن أخلاقـه وجميل سيرـته .

وقد كان في هذه الصـفة أشبهـه رجل برسـول الله ﷺ . وفضلاً عنـ هذا وذاك كان الإمام مضرـب المثل في الفروسيـة العربية ، وما قـرن بها منـ أخلاقـ ، ويكتـفي للتـدـليل على ذلك أن نـسوق شـاهـدين :

١ - أن معاـويـة كان من خطـطـتهـ في الحـروبـ التي دـارتـ بيـنـهـ وـبـيـنـ عـلـىـ وـمـنـهـ حـربـ صـفـينـ - أن يـبدأـ بـامـتـلاـكـ موـارـدـ المـاءـ ، وـمـنـيـ اـمـتـلاـكـ هـذـهـ المـوـارـدـ مـنـعـهـاـ عـنـ أـصـحـابـ عـلـىـ حـتـىـ يـقـتـلـهـمـ الـظـمـاـ .

فعلـ مـعاـويـةـ ذـلـكـ مـعـ أـصـحـابـ عـلـىـ ، فـأـشـارـ عـلـيـهـ أـصـحـابـهـ أـنـ يـفـاوـضـ مـعاـويـةـ فـيـ السـلـمـ وـلـسـكـنـ مـعاـويـةـ لـمـ يـقـبـلـ مـنـهـ ذـلـكـ ، فـإـنـ كـانـ مـنـ عـلـىـ وـأـصـحـابـهـ إـلـاـ أـنـ هـاجـمـواـ مـعاـويـةـ وـأـصـحـابـهـ حـتـىـ اـمـتـلاـكـهـ كـوـاـ مـوـارـدـ المـاءـ ، وـإـذـ ذـلـكـ أـشـارـ أـصـحـابـ عـلـىـ بـأـنـ يـمـنـعـ الـإـمـامـ المـاءـ عـنـ أـصـحـابـ مـعاـويـةـ فـأـبـيـ عـلـيـهـمـ ذـلـكـ كـلـ الإـباءـ ، وـقـالـ لـأـصـحـابـ مـعاـويـةـ : خـذـنـاـ مـنـ المـاءـ ماـشـتمـ وـارـجـعـواـ

إلى معسكركم . ثم قال الإمام لأصحابه : خلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغتهم » .

وهذا خلق من أخلاق الفروسية العربية الإسلامية كان خليقاً بعلى بن أبي طالب ولم يقدر عليه رجل كعاوية بن أبي سفيان .

٢ - المشاهد الثاني على أخلاق الفروسية عند علي :

رأى على عمرو بن العاص وهو متى على الأرض مكشوف السواعد يحاول أن يدفع عن نفسه الموت بما حضره من وقاء ، فصرف على وجهه عن عمرو وهو في هذه الحالة وأنف أن يصرع رجلا يخاف الموت بهذه الصورة التي لا ترضها كرامة الصراع في أي درجة من درجاته ، ولو غير على رأى عدوه بهذه الحالة لانتهز الفرصة فقضى عليه وتحاصل منه .

بقي أن نضرب المثل على نجاح الإمام في ممارسة هاتين الوسائلتين من وسائل الإعلام - وهم الخطاب والرسائل .

خطب على

والمعروف أن كتاب نهج البلاغة يشتمل على كثير من خطب الإمام على ، وللنقاد والباحثين أن يشكوا في هذا الكتاب وفي نسبة الخطاب التي يشتمل عليها إلى الإمام على ، وأن هذه القضية من قضايا الأدب لاتعنينا في هذا البحث ، وما لا شك فيه أن قدرأً كبيراً من الخطاب يمكن نسبته إليه ، وأن الباقي من هذه الخطاب لا بد أنه صيغ على غرار الخطاب الذي صدرت من على ، وجرت على النط بلاغي أو الأسلوب الخطابي الذي عرف به ، ونحن نعلم أن الفرق عظيم بين الإعلام من جهة ، والدعائية من جهة ثانية .

فالإعلام لا بد أن يبني على الصدق ، وعلى الصدق وحده . ورجل الإعلام هو الذي يزود الناس بالأخبار الصادقة والمعلومات الصحيحة ، هو الذي يفسر هذه المعلومات - إن أراد - ولكنه محاول أن يؤثر في الناس بطريقة من الطرق حتى يفهموا هذه المعلومات بالطريقة التي أرادها رجل

الإعلام ، ولكنها يترك لهم الحرية التامة في فهم هذه المعلومات وإدراكيها بعد أن قدمتها لهم وأعقب ذلك بشرحها وتفسيرها قدر المستطاع .

أما الدعاية فقد تبني على الصدق وقد تبني على الكذب، وهي على الكذب أكثر اعتماداً في أغلب الأحيان . والقصد من الدعاية هو استهلاك الناس والتأثير في نفوسهم وعقولهم لغرض مشكوك فيه ، ومع أن الدعاية لها هذا الطابع المخالف لطابع الإعلام فإنها قوة كبيرة من القوى التي تستطيع أن تغير ميزان العالم في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والأدبية والفنية على السواء ،

حدث أن علياً سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام مناشير كانوا في واقعة (صفين) فقال لهم :

«إِنَّ أَكْرَهَ أَنْ تَكُونُوا سَبَابِينَ ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْحَابُ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغُ فِي الْعَذَّارِ ، وَقَلْمَنْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِلَيْهِمُ اللَّهُمَّ اسْجُنْ دَمَاعَنَا وَدَمَاعَهُمْ ، وَأَصْلَحْ ذَاتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالِهِمْ حَتَّىٰ يَعْرِفُ الْحَقَّ مِنْ جَهَلِهِ وَيَرْعُو عَنِ الْغَيْرِ وَالْعَدُوَانَ مِنْ طَرْجِهِ .

فأين هنا من فجل معاویة حين كان يأمر بأن يسب على فوق المنابر ، ويأتي من الأعمال ما أشرنا إلى بعضه في الفصل ، الذي عنوانه « الأحاديث

النبوية وقوتها الدعائية » ، وفي ذلك الفصل ذكرنا بعض الأحاديث التي زيفها معاوية على النبي ﷺ .

ومنها : مارواه الزهرى أن عروة بن الزبير حدثه فقال :

حدثنى عائشة قالت : كنت عند رسول الله ﷺ إذ أقبل العباس وعلى ، فقال النبي ﷺ : « ياعائشة إن هذين يموتان على غير ملتئ » ولا شك أن هذا من الأحاديث الموضوعة وليس له أدنى قسط من الصدق .

ويدللنا كل ذلك على صحة ما قلناه من أن (الإعلام) كان وسيلة الإمام . وأما (الدعاية) . والدعاية السوداء لا البيضاء — فقد كانت وسيلة معاوية .

الدعاية ضد على

وبغض النظر عن الأساليب التي اتبعها معاوية في نشر الدعاية السائبة حسول على ومنها أسلوب الأحاديث الموضوعة أو الكاذبة ، ومنها أسلوب تفسير آيات القرآن تفسيرا يسعى إلى سمعة على ، وقد أشرنا إلى أمثلة من ذلك في الفصل الذي عنوانه (الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية) ، نقول بصرف النظر عن هذه الأساليب التي اتبعها معاوية في ممارسة على نظر في كتب التاريخ فنجد أن معاوية أشاع عن الإمام صفات غير حقيقية وأحد هذه بعيب لايست فيه ، ومنها :

١ - أشاع معاوية عن على أنه رجل ذو دعابة . وهي صفة أراد بها معاوية أن يقلل من هيبة الإمام في النفس ، لأن مثل على لا يصبح أن يكون كذلك ، وإن نظر إليه حزبه من كبار الصحابة نظرة استخفاف ، وهم قوم درجوا على الجد لا المزاح ، وبلغ ذلك علياً فقال :

عجبأً لابن التابعه يزعم لأهل الشام أن في دعابة ، وأتني أمرؤ تلعابة ، لقد قال باطلأ ، ونطق آثماً . أما وشر القول الكذب ، وإنه ليقول فيكتسب ، ويعد فيخالف ، ويسأل فيحلف ، ويخون العهد ، ويقطع الأهل ، أما

وَاللَّهُ لَنِي لَمْ يَنْعِي مِنَ الْعَبْدِ ذِكْرُ الْمَوْتِ . وَإِنَّهُ لَمْ يَنْعِي مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ
نَسْيَانُ الْآخِرَةِ .

٢ — كَمَا أَشَاعَ معاويةٌ عَنِ الْإِمَامِ عَلَى أَنَّهُ قَلِيلُ الدَّهَاءِ ، فَكَانَ الْإِمَامُ
يَرِدُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : وَاللَّهُ مَا معاويةُ بِأَدْهَى مِنِّي . وَلَكِنَّهُ يَغْزِرُ وَيَهْجُرُ . وَلَوْلَا
بِكُراهِيَّتِ الْغَدَرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ . وَلَكِنْ لَا رَأْيٌ لِمَنْ لَا يَطْعَعُ .

وَكَانَ معاويةٌ يَفْخُرُ بِذِكْرِ الْخَصَالِ الَّتِي اسْتَعَانَ بِهَا عَلَى الْإِمَامِ فَيَقُولُ عَنْهُ :
إِنَّهُ كَانَ لَا يَكُنْ سِرًا . وَكَنْتُ كَتُومًا لَسَرِيِّ وَإِنَّهُ كَانَ يَظْلِي فِي مَكَاتِبِهِ
حَتَّى يَفْاجَئُهُ الْأَمْرُ وَكَنْتُ أَبَادِرُ إِلَى ذَلِكَ . وَكَانَ فِي أَخْبَثِ جَنَدٍ وَأَشَدِهِمْ
أَخْلَاقًا . وَكَنْتُ فِي أَطْوَعِ جَنَدٍ وَكَنْتُ أَحْبَبُ إِلَى قَرِيشٍ مِنْهُ فَنَلَتْ مَا شِئْتُ .

٣ — وَكَانَ معاويةٌ يَشْيَعُ عَنْ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ وَفَنُونِ
الْحَرْبِ بِرَغْمِ أَنَّهُ رَجُلٌ شَجَاعٌ وَفَارِسٌ فَذٌ .

٤ — وَكَانَ معاويةٌ يَشْيَعُ عَنِ الْإِمَامِ أَنَّهُ رَجُلٌ لَا يَصْلَحُ لِلْخِلَافَةِ . وَكَانَ
يَسْتَشْهِدُ بِنَبْولِ عَمَرٍ وَبْنِ الْعَاصِ .. لَا يَصْلَحُ لِلْخِلَافَةِ إِلَّا رَجُلٌ لَهُ ضَرْسَانٌ
يَأْكُلُ بِأَحْدَاهُمْ وَيَطْعَمُ النَّاسَ بِالْآخِرِ ، وَرَبِّمَا كَانَتْ هَذِهِ نَظَرِيَّةُ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ
قَبْلَ أَنْ تَكُونَ نَظَرِيَّةً معاويةٌ أَوْ أَبْنَى الْعَاصِ .. وَلِذَلِكَ بِذَلِكَ هُؤُلَاءِ الْمُلَائِكَةِ
كَثِيرًا مِنَ الْمَالِ لِلأَتَيَّابِ وَالْأَعْوَانِ .. وَكَانُوا يَقْرَبُونَ إِلَيْهِمْ أَبْنَاءَ الصَّحَابَةِ
وَيَبِلَّغُونَ فِي إِكْرَامِهِمْ وَيُوْفِرُونَ لَهُمْ أَرْغَدَ الْعِيشِ ..

٥ — وَكَانَ معاويةٌ يَشْيَعُ عَنِ الْإِمَامِ أَنَّهُ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ رِجَالَهُ مَعْرِفَةً
جَيِّدةً . أَمَّا معاويةٌ فَكَانَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ يَخْتَالُ أَنَّهُ يَدْرِسُهُمْ . وَكَانَ
يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ بِالرَّسْلِ مِنْ عَنْدِهِ . وَكَانَ يَقُولُ لِلرَّسْلِ ، حَدَّثُوكُمْ أَحْصَابِيِّ بِمَا يَرِضِيهِمْ
وَأَجْبِيُوهُمْ إِلَى مَا يَحْقِقُ لَهُمْ كُلُّ مَا يَرْغَبُونَ فِيهِ أَمَّا عَلَى فَكَانَ لَا يَجْأَمِلُ أَحَدًا
مِنَ الْأَصْحَابِ فِي الْحَقِّ وَلَا يَشْتَرِي غَضِيبَ اللَّهِ بِرِضَاءِ الْأَصْدِقَاءِ ..

٦ — أَشَاعَ معاويةٌ عَنِ الْإِمَامِ عَلَى أَنَّهُ قَلِيلُ الْعِلْمِ بِالْأَخْلَاقِ الرَّعِيَّةِ . أَمَّا هُوَ

فعلي العــكس من ذلك يزعم لنفسه أنه أتقن درس الرعية ، وكان يصفها بقوله :

«إِنَّمَا أَتَيْتُكُمْ كُلَّ نَعْقَلٍ، وَأَنْهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَضْرَوْا، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا لِأَنَّهُمْ إِذَا تَفَرَّقُوا رَجَعُ أَصْحَابِ الْمَهْنَ إلى مَهْنَهُمْ. فَانْتَفَعُوا بِهِمْ».

وزعم معاوية أن الذى أعانه على دراسة الناس وأخلاقهم إلى هذا الحد هم العيون والأرصاد ، وهم الجواصيس بلغة العصر الحاضر ، يبعث بهم إلى البلاد فيتلونه بأخبار أهلها جميعاً ، فيرسو سهم على النحو الذى يرضهم .

ويفضل هؤلاء الجواصيس كذلك كان معاویة يعرف كيف يختار الرجال القادرين على خلق القلاقل وصنع المكائد وإيجاد الفتن في بلاد كالحجاز والعراق حيث يقيم على وكيار الصحابة ، ويحب هؤلاء في الحبىء إلى الشام وترك الإمام علي بن أبي طالب ، وقد كان في استطاعة الإمام أن يجرد سيفه ، ويعدم إلى قتل هؤلاء — ومعظمهم من الخوارج الذين يزعمون الأشعث بن قيس — ولكنه لم يفعل ذلك ، ولو فعل لأمن على نفسه من شرور كثرة .

٧ — كما اعتمد معاوية في دعائته ضد الإمام كذلك على الطرق المسرحية،
فما أن سمع بمقتل عثمان حتى بعث إلى المدينة من أئمته بقميصه — أى بقميص
عثمان وعليه دمه ، وأمر الرسول فحمل القميص على علم ووصل به إلى
المعاوية ففرشه على الأرض ، وجمع أصحابه ، وجلسوا يبكون على عثمان
ويقولون : على بن أئي طالب هو القاتل .

٨ - والذى لا بد من ذكره كذلك أن معاویة استغل في دعایته هذه
جهل الرعیة في زمانه ، وقد كان العلم في الشام - حيث الأuron الملتقطون
معاویة - أقل من العلم في الحجاز حيث كبار الصحابة وأبناء الصحابة
الذين تألف منهم حزب على. واستمع إلى المسعودي إذ يقول :

« وبلغ من إحكام معاوية للسياسة (يريد الدعاية) وإتقانه لها واجتذاب قلوب خواصه وأعوانه أن رجلاً من أهل الكوفة دخل ببعيره إلى دمشق، فتعلق به رجل من أهلهما وقال : هذه ناقتي أخذت مني ، فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً يشهدون أنها ناقته ، فقضى معاوية للدمشقي على الكوفي وأمره بتسليم الناقة إليه . فقال الكوفي : أصلح لك الله أنها الأمير ، إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضى ، ثم دس معاوية إلى الكوفي بعد تفرق الجماعة من أحضره إليه ، وسألة معاوية عن ثمن الجمل ودفعه إليه ، وبربه وقال له : أبلغ علياً أنني أقابلها بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل »^(١) .

واستطردنا إلى وصف شيء من الدعاية التي قام بها معاوية ضد على لتمرد الحقيقة التالية وهي :

— أن الدعاية — ولو كانت قائمة على الباطل في بعض الأحيان — لها من التأثير في النفوس والقدرة على قلب النظم والأوضاع — مالإعلام برغم أنه قائم على الحق وعلى الحق وحده قبل أي شيء . ولأنها لحقيقة مؤلمة ولتكن السكوت عنها يضر بالحق نفسه فإن الساكت على الدعاية لا يقاومها بكل الطرق الممكنة كالساكت على النار تقرب منه شيئاً فشيئاً حتى تشتعل بشيابه وتأكله .

صحيح أن من أمضى الأسلحة في مقاومة الدعاية هو الإعلام ، والإعلام هو القادر على إسكات الدعاية ، وذلك بالكشف بما فيها من الكذب والزيف عن الحقائق وبعد عن الصحة ومخالفة الواقع ، ولتكن الإعلام في هذه الحالة لابد من أن يبذل من الجهد الكبير أضعاف ما تبذله الدعاية ، وبغير ذلك تكون العلبة للأخيرة في النهاية »

(١) عبد الطيف حمزة : الإعلام والدعاية ص ١٧٦ نشر دار الفكر العربي . نقل عن مروج الذهب المسعوردي ج ٢ ص ٧٢ — المطبعة البهية .

وهذا هو الموقف الحرج الذي وقفه الإمام على من داهية الشام
معاوية ابن أبي سفيان .

لقد كان الإمام محيطًا بقوم من أصحابه يعرفون أن لهم حقاً في مناقشة
الحساب في كل شيء ، وكانوا قلماً يطعونه في شيء ، في حين أن
معاوية كان محيطًا بقوم من أتباعه بلغ من أمر طاعتهم له أن صلى بهم
عند مسيرته إلى (صفين) صلاة الجمعة يوم الأربعاء :

(تم بحمد الله)

الخاتمة

بقلم الدكتور إبراهيم إمام

أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة

عندما تفضل أستاذنا الراحل العالم العظيم الدكتور عبد اللطيف حمزة — رحمة الله وأسكنه فسيح جناته — بإعطائني مسودة هذا الكتاب «الإعلام في صدر الإسلام» لكي أطلع عليها ، كما كان يفعل دائماً معنى في كل كتبه ، لم يدر بخلدِي أن هذه الدرة المثيرة سوف تكون آخر بحوثه العلمية القيمة التي أربت على المئتين كتاباً وبهذاً :

ومع ذلك ، فإن قارئ هذا الكتاب يشعر شعوراً غريباً بأن مؤلفه العظيم يكتب وكأنه يصلح ، وينسى العبارات وكأنه يتبع ، وبتواضع المؤمن العالم يقول — رحمة الله — أنه كان يتهدب الخوض في هذا الموضوع ، وأنه تردد كثيراً قبل الإقدام عليه .

هذا ، مع أن أستاذنا الراحل كان مؤهلاً حقاً تمام التأهيل للبحث في هذا الموضوع الجليل ، ويُكفي أنه شارك بالبحث في الثقافة الإسلامية بأكثر من عشرين كتاباً ، كما أسهם في الدراسات الإعلامية بأكثر من أربعين بحثاً فيما ، منها ما يعد بحق خير ما كتب باللغة العربية في فنون الدعاية والإعلام حتى الآن .

والواقع أن كتاب «الإعلام في صدر الإسلام» هو افتتاحية سلسلة جديدة من الكتب ، ووضع أستاذنا الراحل خطتها بإحكام ، على أساس أن الثقافة الإسلامية تحتوى على كنوز من فنون الدعوة والاعلام والدعائية ، تبدأ منذ أخذ الرسول — عليه الصلاة والسلام — يدعو للدين الحنيف سراً ، إلى أن اتخذت الدعوة شكلاً لها العلن ، ثم مرحلة الاضطهاد ، ومنها إلى

المهجرة حتى مرحلة الاستقرار في المدينة ، التي شهدت ذروة الدعوة المقدسة !

ويفرق المغفور له الدكتور عبد اللطيف حمزة بين الدعوة والاعلام والدعائية فيقول أن اصطلاح « الدعوة » مقصور على جهود الرسول - عليه الصلاة والسلام - في نشر الرسالة كما بینا من قبل ، أما كلمة « الاعلام » فتحتخص بأعمال الحلفاء الراشدين في هذا المضمار ، ولاشك أن « الاعلام » هنا يقصد به التفسير والتلويح والشرح القائم على فكر سليم ، وضمير حي ، وأصول أخلاقية متينة ، في حين أن كلمة « دعائية » تنطبق على أوجه النشاط السياسي التي تعددت بعد تكوين الدولة الاسلامية الكبرى ، وهذا نجد كنوزا من المعرفة والفنون الدعائية في عصور الاميين والعباسيين والفااطميين ، فضلا عن الدعائية المدروسة المتقدمة عند الشيعة والقراططة وغيرهم .

وما من شك في أن كنوز الدعائية في الحضارة الاسلامية ، لم تجد بعد من يجلوها ويزيل عنها ركام النسيان الذي ران عليها عبر القرون . صحيح أن المستشرقين وغيرهم من الكتاب الغربيين قد قاموا بجهود متعددة الأهداف ، ومتعددة الأغراض ، للدراسة الفكر السياسي الإسلامي وفنون الدعائية ، وخاصة عند الشيعة وغيرهم ، إلا أن هذه الجهود كان يحدوها التحيز أحيانا ، والموى أحيانا أخرى . وقد كان أستاذنا - رحمة الله - يتسائل : وحتى هؤلاء الذين يقومون بالبحث العلمي لوجه الله والحقيقة ، هؤلا المستشرقون والأجانب ، هل نتركهم يفكرون لنا ؟ وهل نرضى أن نظل مكتوفين الأيدي ، ننظر في سلبية إلى إنتاج الأجانب الفكرى دون أن نبذل أى جهد من جانبنا ؟

ويتهمس مؤلفنا - الراحل - فيقدم اقتراحا يقول فيه : « فإذا كان لي أن أقترح شيئا على الجامعات والمعاهد ومراکز البحث في مصر وفي غيرها من بلاد العالم الاسلامي ، فإني أقترح أن تتألف جنة علمية للقيام بهذا المشروع الضخم ، وأعني به مشروع « التأريخ للدعائية والاعلام في الاسلام »

وهل هذه اللجنة أن تقوم ببحث هذا التاريخ عصراً ، أو فكرة فكرية ، أو مذهباً مذهبها ، في النهاية ستحصل المكتبة العربية على مجموعات غنية من السكتب الإمامية ، تصبح كل واحدة منها بمثابة رائد من الروايد الذى تصب في نهر الإعلام » .

وقد كان يحلموا لاستاذنا الراحل أن يتحدث عن مؤامرة الصمت الذى ابتلى بها العالم الإسلامي في تاريخه وحضارته ، فقارئ كتب التاريخ ؛ ودوائر المعارف الأجنبية ، يجد الكثير عن الفكر اليوناني والعصور الوسطى المسيحية ، وعصر النهضة ، والعصور الحمدية مرتبة ترتيباً زمنياً ، ولكن لا يجد شيئاً عن الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، رغم ما أعلنه بعض كبار المفكرين الغربيين من اعتراف بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الأولمبية الحديثة .

ومع أن الجوانب التاريخية والسياسية والأدبية من الحضارة الإسلامية قد حظيت ببعض اهتمام الباحثين ، كما ظفت الدراسات الدينية بعنوان ملحوظة ، إلا أن الجوانب الإعلامية والدعائية ، لم تكن موضوع بحث علمي رغم ثراها ونضتها وتنوع فنونها على مر العصور الإسلامية .

ولا أريد أن يفهم القارئ أن مؤلفنا - رحمة الله - كان لا يخفل بالدراسات الأجنبية أو أنه كان معادياً لها ، لأنه كان على - النقيض من ذلك - محظياً بها مقدراً بجهودها ، غير أنه كان يفرق دائماً بين الغزو الفكري لحضارتنا العربية - وهو مالم يكن يقره أبداً - وبين التعاون العلمي ، وتبادل المعرفة ، وهذا ما كان يشجعه ويوبيده كل التأييد .

ورب سائل يقول : ولكن لم تزدهر الحضارة الإسلامية قبل ظهور أجهزة الإعلام الحديثة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وسينما ، وغيرها من فنون الإعلام المختلفة ؟ فهل نتهم على حضارة تنا الإسلام ، تلك المفاهيم الحديثة ، التي لم تكن جزءاً من صلب كيانها ؟

الحقيقة أن هناك علاماً جديداً يقال له « علم الاتصال بالجماهير » وهو

فرع من دراسة الاتصال الإنساني ، عنى به العلماء منذ ظهور الدول الشهولية والدكتاتورية الحاديثة ، كالفاشية والنازية وغيرها ، وما كان من أثر قوى للزعماء وأجهزة الدعاية على سائر الناس ، وكانت ذروة ذلك كله في إنشاء وزارة الدعاية الألمانية تولتها جوباز لأول مرة في التاريخ .

وقد توجهت عناية العلماء والباحثين إلى دراسة الاتصال وفنونه المختلفة ، مبتدئين بالاتصال الطبيعي عن طريق المحادثة الشخصية والاتصال المباشر وجهاً لوجه ، ثم الاتصال الجماعي الذي يظهر في الخطابة السياسية والدينية ، والتجمعات المختلفة التي يلتقي فيها القادة بأفراد الشعب من الجماهير ، إلى أن تنهى الدراسة بالاتصال الجماهيري أو الاتصال الصناعي ، حيث لا يتم لقاء بين المصدر والجماهير مباشرة وإنما تنقل المادة الإعلامية من خلال صحيفة مطبوعة ، أو كلمة مذاعة ، أو صورة مرئية على شاشة التلفزيون الصغيرة ، أو شاشة السينما الكبيرة .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية لم تشهد هذا النوع الأخير من الاتصال الصناعي ، فقد ازدهرت فيها طرق الاتصال الشخصي والجماعي ازدهاراً شديداً ، فالقصائد الشعرية ، والنثر الفنى الرائع ، والخطب السياسية والدينية والرسائل البليغة ، وحلقات الفقهاء والدعاة ، وفنون النداء والمنادين ، وأسواق الأدب والبلاغة ، والندوات على اختلاف أنواعها ، فضلاً عن أوجه النشاط الدبلوماسي التي وضع أساسها الأول رسولنا الكريم ﷺ بأصولها الرائعة ، التي أخذناها عن الغربيون فيما بعد ، مع تطويرها وفقاً لما هبهم وأخلاقهم ومصالحهم ، كل هذه الفنون الاتصالية . وغيرها من الكتابات المستاذة التي ازدهرت بها الحضارة الإسلامية بمذاهبها المختلفة ، وفرقها الفكرية والدينية المتعددة ، تصلح أساساً طيباً للدراسة العلمية الجادة ، وهذا ما أراده أستاذنا الراحل الكريم :

ولكن بيت القصيد في الدراسات الإعلامية يمكن في الأبعاد النفسية والاجتماعية لعمليات الاتصال بوجه عام والاتصال الجماهيري بوجه خاص ، كما تشمل تلك الدراسات بحث العلاقة الوثيقة بين النظم السياسية والاجتماعية

من جهة ، والنظم الإعلامية من جهة أخرى . وهذه هي الدراسات التي اهتم بها الباحثون في العالم الغربي ، وأراد — أستاذنا الراحل — أن ينحو نحوها في العالم الإسلامي ، وذلك تأصيلاً لهذه الثقافة الإعلامية الجلديدة ، وبحثاً عن جذورها وأصولها الراسخة في حضارتنا ، وقد وضع العالم الراحل تلوك اللبننة الأولى في صرح البناء ، فكان ذلك الرائد الأول في هذا المضمار ، وإن خير ما يمكن أن تقوم به لإحياء ذكرى فقييدنا العظيم هو مواصلة البحث والدرس في هذا الميدان . وهذا ما فعلته كريمهه الفاضلة السيدة كريمان حمزة ، وما سوف يفعله بإذن الله تلاميذه وعارفو فضله ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

دكتور
إبراهيم إمام

الفهرس

الصفحة

تقديم : بقلم الدكتور عبد الحليم محمود	٣
الإهداء	٩
مقدمة	١١
هذا الكتاب	١٦

صور الاتصال والاعلام عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام

الفصل الأول : الاتصال بالجماهير — بعض صوره في الجاهلية	٢٢
فأما الإعلام	٢٣
القصيدة الشعرية ٢٦ — الخطبة والخطباء ٢٨ — المناداة ٢٨	—
الأعياد ٢٩ — عيد الشباب ٢٩ — الأسواق ٢٩ — سوق دومة ٣٠	
سوق المشقر ٣٠ — سوق هجر ٣١ — سوق عكاظ ٣١ — سوق	
جنة ٣٤ — سوق ذى الحجاز ٣٤ — المربد ٣٤ — الندوة ٣٥	
إشعال النار في رعوس الجبال ٣٥ — المناداة ٣٦ .	

الباب الأول

أشهر صور الاعلام في صدر الاسلام

تمهيد	٤٠
أسلوب العلاقات الدولية	٤١
الفصل الأول : القرآن أكبر وسائل الإعلام في الإسلام	٤٤
الفصل الثاني : الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية	٥٩
الفصل الثالث : القدوة الحسنة	٦٦
القدوة الحسنة وصاحب الدعوة	٦٨

صفحة

محمد المشل الأعلى في الصبر على الحرب الباردة بينه وبين المنافقين بالمدينة	٧٠
الفصل الرابع : الاتصال الشخصي والجماعي وأثره في نشر الدين وجمع كلمة المسلمين	٧٥
لقاء الرسول برجال من الخزرج في البيعة الأولى	٧٧
الفصل الخامس : القصص غير القرآن	٨٢
الفصل السادس : موسم الحج من أعظم وسائل الدعوة	٨٦
الفصل السابع : العلاقات الإنسانية في صدر الإسلام	٩٣

باب الثاني

الدعوة في عهد الرسول وأساليب نجاحها

تمهيد : الدعوة والإعلام والدعائية في الإسلام	١٠٤
الفصل الأول : المرحلة المسرية	١١٣
الفصل الثاني: المرحلة العلمية	١١٨
عرض الرسول نفسه على القبائل العربية	١٢٠
الفصل الثالث : مرحلة الاضطهاد الديني	١٢٤
الفصل الرابع : مرحلة الهجرة -- الهجرة إلى الحبشة	١٢٨
الفصل الخامس : مرحلة الاستقرار بالمدينة	١٣٤
الأذان وإقامة صلاة الجماعة	١٣٦
إقامة العلاقات الودية مع اليهود	١٣٨
العلاقات الودية مع القبائل المجاورة	١٤٠
الاحتياطيات الإعلامية وال الحرب	١٤١
بعثات الرسول إلى الأمراء والملوك	١٤٧
استقبال الرسول للوفود	١٥١
حركة المحسن وأثرها في نشر الدعوة	١٥٤
الفصل السادس : بعض الغزوات النبوية من الزاوية الإعلامية	١٦٠

الصفحة

غزوة بدر ١٦٠ — غزوة أحد ١٦١ — غزوة الأحزاب	
أو غزوة الخندق ١٦٤ — فتح مكة ١٦٥ — معركة	
حنين ١٦٦ — بعوث النبي وسراياه إلى حدود الروم وغايتها	
الإعلامية	١٦٨
الفصل السابع : الخطبة النبوية	١٦٩
المجالات العامة للخطب التي أثرت عن النبي	١٧١
مجال الأخلاق	١٧٢
خطبته في معنى الإخلاص	١٧٢
النبي يشى على أصحابه	١٧٣
حجة الوداع	١٧٥
الفصل الثامن : الدعاية الشعرية في عهد الرسول	١٨١

باب الثالث

الدعاية والاعلام في عهد الخلفاء الراشدين

تمهيد	١٩٣
الحكومة الديمقرatية ١٩٤ — ومنها الحكومة الأوتوقراطية	١٩٤
ومنها الحكومة الشيئوقراطية ١٩٥ — ومنها الحكومة الأولى يجاركية	١٩٥
الفصل الأول : الإعلام في عهد أبي بكر	١٩٩
يوم السقيفة	١٩٩
حركة الردة	٢٠٣
بعثة أسامة بن زيد	٢٠٦
بعوث إلى العراق والشام	٢٠٧
جمع القرآن الكريم	٢٠٩
الفصل الثاني : الإعلام في عهد الخليفة عمر	٢١٢
عمر والسياسة الإعلامية	٢١٤
أولاً — في الفتوح	٢١٤

الصفحة

٢١٥	ثانياً - سياسة عمر مع كبار الصحابة
٢١٦	ثالثاً - العسس
٢١٨	رابعاً - الرسائل
٢١٩	نموذج من رسائله إلى القضاء
٢٢٠	خامساً - زيارات عمر للأماصار والأقاليم
٢٢٣	سادساً - القدوة الحسنة
٢٢٧	الفصل الثالث : الدعاية والإعلام في عهد عثمان
٢٢٨	صورة السلطان في رأي عثمان
٢٣٠	خلافة عثمان من الزاوية الإعلامية
٢٣٠	حركة الانتخابية
٢٣١	حكم عثمان
٢٣٢	الفتوح في عهد عثمان
٢٣٣	تولية عثمان أقرباءه على الأماصار
٢٣٤	فاما السكوفة ٢٣٣ - وأما الشام ٢٣٣ - وأما في مصر ٢٣٤ -
٢٣٤	قوة المعارضة
٢٣٩	الفصل الرابع : الدعاية والإعلام في عهد علي
٢٤٠	موقف على من الفتنة
٢٤٢	الثورة تباعي عليها
٢٤٣	حزبان متعارضان
٢٤٤	الدعاية والإعلام في عهد علي
٢٤٧	خطب على
٢٤٩	الدعایات ضد علي
٢٥٠	الخاتمة بقلم الدكتور إبراهيم إمام
٢٦١	فهرس الموضوعات

دار الفكر العربي

الادارة:

١١ ش جوارحني - القاهرة

۳۹۵۰۰۹۳ ت ۱۳۰۴.ص

تقطب جميع منتشراتنا م. فروعنا

الفرع الرئيسي :

٤٦ - ش. جمادى - القاهرة

۳۹۴-۱۷۸ ت

فرع مدينة نصر :

٩٦٠ هش عباس العقاد / المنظمة

الدارسة - ت ٤٦١٩٠٤٩

فرع الدق :

٢٧ شیخ العظیم راشد / متفرع

من ش� الدكتور شاهين - العجوزة

VIVERA ت

ةـمـلـكـةـ

دارالكتاب الحدث

لطبع والتوزيع والنشر

اکتوبر

٢٢٠٧١/٦٠٧ بـ٥

ΟΥΣΛΙΓΟ & ΟΥΙΛΟΥΙ